ردمد ٣٥١٥-١٦٥٨
ISSN.١٦٥٨-٣٥١٥
رقم الإيداع ١٤٢٨/٢١٩٠


بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد وشروط النشر

مجلة الدراسات القرآنية مجلة دورية تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه. وتعنى بالبحوث العلمية، وفق الأمور الآتية:

- أن يكون البحث متسماً بالأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
- أن تتحقق له السلامة اللغوية.
- مراعاة علامات الترقيم.
- ألا يكون قد سبق نشره.
- ألا يكون مستلاًّ من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
- توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلاً، وتضبط الحواشي آليا لا يدوياً .
- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث.
- توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط الملحق في مكانها المناسب.
- ترفق جميع الصور والرسوم المتعلقة بالبحث واضحة جلية.
- ألا تزيد صفحات البحث عن ثمانين صفحة (A٤) ولا تقل عن عشرين صفحة.
- أن يكون خط الأصل (١٨) وخط الهامش (١٤)، ونوع الخط (Arabic Traditional).
- أن تكون هوامش الصفحة من الأعلى والأسفل واليسار ٢,٥سم ومن اليمين ٣,٥سم.

- تكتب الآيات القرآنية وفق المصحف الإلكتروني لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .
- يرفق الباحث ثلاث نسخ مطبوعة، مع ملخص لا يزيد على صفحة واحدة.
- تُحكَّم البحوث والدراسات المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين على الأقل.
- تُعاد البحوث معدلة على قرص حاسوبي.
- لا تعاد البحوث والدراسات إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
- للمجلة الحق في نشر البحث على الموقع الإلكتروني للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بعد إجازته للنشر.
- أن تكون المراسلات عبر البريد الإلكتروني.
- يُعطى الباحث نسختين من المجلة وخمس مستلات من بحثه.

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم
رئيس هيئة التحرير على النحو التالي:

المملكة العربية السعودية - الرياض
ص. ب: ١٧٩٩٩ الرياض: ١١٤٩٤
هاتف وناسوخ ٢٥٨٢٧٠٥
البريد الإلكتروني: quranmag@gmail.com

عنوان الجمعية
ص - ب: ١٧٩٩٩ - الرياض - ١١٤٩٤ هاتف: ٢٥٨٢٦٩٥ - ٢٥٨٢٧٠٥

موقع الجمعية
www.alquran.org.sa

*　　*　　*

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحرير

الحمد لله حمد شكرٍ وذكرٍ وامتنان، والصلاة والسلام على أشرف الخلق الرسول الحق وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

وبعـــــــد :

نسعد بأن نقدم للقراء العدد العاشر من مجلة الدراسات القرآنية المحكمة التي تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه " تبيان " بماتحمله من مواد علمية كتبها كتابها بعناية علمية وموضوعية مرعية، وحكمها ثلة فاضلة من كرام وكبار الأساتذة، وذلك سعياً من المجلة لأن تقدم لقرائها مادة علمية جيدة ترضي طموحهم، وتحقق لهم الفائدة الماتعة من جديد ومفيد الدراسات والبحوث.

ولذلك حققت المجلة مكانتها السامقة بين مثيلاتها على الرغم من عمرها القصير، وما ذاك إلا بسبب الثقة القائمة والتعاون الدائم والمتواصل بين كتّاب المجلة، وقرائها، ومحكمي بحوثها، وهو ما نأمل استمراره ودوامه.

والشكر الموفور والموصول للعاملين في الجمعية والمجلة كافة، والداعمين لها مادياً ومعنوياً من داخل الجامعة وخارجها.

والله الموفق للحق، والمعين على الخير.

رئيس تحرير المجلة
أ . د / محمد بن عبد الرحمن الشايع

المحتويات

المعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم

معانيها ودلالاتها

د. ناصر بن محمد عبدالله الماجد

د. ناصر بن محمد عبدالماجد

- أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته: (عادات أهل الجاهلية – دراسة موضوعية في ضوء القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (أحكام القرآن للقاضي بكر بن العلاء القشيري، من أول سورة الأنفال إلى آخر القرآن – دراسة وتحقيق).

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء :١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠] ،،، أما بعد:

فإن أشرف العلوم منزلة، وأرفعها مكانة، ما اتصل بكتاب الله بسبب، ودنى منه بقربى، ومن هنا كان بيان كلام الله – تعالى – وتفسيره؛ أشرف العلوم وأرفعها، ويزداد الشرف والرفعة إذا كان محل النظر من كلامه – تعالى – ما تعلق بذاته وما له من جميل الصفات وجَلِيلِها سبحانه وبحمده.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الآيات المتعلقة بما يجب أن يعتقده العبد في ربه، ومن ذلك ما تعلق بأسمائه – عز وجل – وصفاته، وحقيقة ما يجب لله فيها، ذلك أن القرآن الكريم هو المورد الذي يصدر عنه المؤمن في عقيدته، وما يجب لربه، وهو المعتصم من مسارب الضلال، ومَعْقِد النجاة يوم الحساب.

وإنك لن تجد منتحلاً لعقيدة، أو مدعياً قولاً فيما يجب لله – تعالى –

من حقائق الاعتقاد، إلا وجعل آيات الكتاب العزيز دليله ومُعْتَصمه، إنْ بحق أو بباطل، ولهذا كان من الواجب على أهل العلم، المقتفين آثار السلف، من القرون المفضلة والتابعين لهم بإحسان؛ أن يبينوا معاني آيات الكتاب العزيز، وما دلت عليه مما يجب اعتقاده في الله – عز وجل –

ولهذا فقد عزمت مستعيناً بالله راجياً منه التوفيق، على دراسة آيات من كتاب الله – العزيز – تتعلق بصفة من صفات الله – عز وجل – وهي صفة المعية، وأسميت هذه الدراسة:

«المعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم ، معانيها ودلالاتها» .

- **أهمية الموضوع وسبب اختياره.**

لموضوع المعية عدد من الجوانب الدالة على أهميته، والتي كانت سبباً لاختياره، منها:

أولاً: يتميز هذا البحث بأنه يدرس أبواباً من العقيدة بمنهج تفسيري، يقوم على جمع الآيات ذات الصلة بالموضع، والنظر في معانيها، والسياق الذي وردت فيه، والدلالة الموضوعية التي احتفت بها، مما يضيف لتلك المسائل العقدية أصالة في النظر، وجِدَّةً في البحث، وهذا معنى لفت النظر إليه ابن تيمية حيث يقول: " فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها، وإن امتاز كل موضع بخاصية"[(١)].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٠٤).

ثانياً: أن من تكلم في آيات المعية من سلف هذه الأمة، وأهل العلم، كان همهم متعلقاً بتقرير دلالاتها على معية الله – تعالى – دون نظر للمعاني الأخرى التي تدل عليها، وهذا ما يسْتَوفِز همة المشتغل بكتاب الله للنظر في تلك المعاني وتجليتها.

ثالثاً: أن القرآن الكريم هو المورد الأول لمعرفة صفات الله – سبحانه – وما يجب له من الاعتقاد، ولهذا فإن جميع الطوائف المنتسبة إلى الدين، المخالفة لما كان عليه سلف الأمة في باب الاعتقاد، قد استدلت بآيات القرآن الكريم على قولها، ومن ذلك ما تعلق بمعيته – عز وجل – خلقه، مما يقتضي جمع هذه الآيات ودراستها، وإيضاح المعاني التي تدل عليها، وبيان الانحراف المنهجي في تفسيرها عند تلك الطوائف.

رابعاً: يؤكد هذا أنني لم أجد بحثاً أو مؤلفاً درس آيات المعية كلها، وإنما غالب البحث والتقرير يقتصر على آيات محدودة، هي آية سورة التوبة، وآية سورة الحديد، وآية سورة المجادلة، مع وجود آيات أخرى، متعددة في ذاتها، ومتنوعة في معانيها ودلالتها ولوازمها، مما يقتضي جمعها ودراستها.

- **حدود البحث**.

يتعلق هذا البحث بدراسة جميع الآيات الكريمة التي فيها ذكر لمعية الله – تعالى – وذلك بحصرها، وبيان معانيها، ودلالاتها، ولوازمها، وسياقها الذي وردت فيه، وذلك بدراسة غالب كتب التفسير المستقلة المشتهرة المتداولة بين الناس على اختلاف عقائدهم؛ عدا المختصرة منها؛ لأن مواقفهم – بهذا الوصف – مما تدعو الحاجة إلى بيانه، ودراسته،

وتعريف المختصين بها، وهي:

جامع البيان للطبري، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين، تفسير السمرقندي، الكشف والبيان للثعلبي، الهداية لمكي بن أبي طالب، عرائس البيان للبقلي، حقائق التفسير السلمي، النكت والعيون للماوردي، التبيان للطوسي، المحرر الوجيز لابن عطية، زاد المسير لابن الجوزي، الكشاف للزمخشري، مجمع البيان للطبرسي، مفاتيح الغيب للرازي، البسيط للواحدي، معالم التنزيل للبغوي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أنوار التنزيل للبيضاوي، التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، مدارك التنزيل للنسفي، لباب التأويل للخازن، البحر المحيط لأبي حيان، غرائب القرآن للنيسابوري، تفسير ابن عرفة، تفسير القرآن العظيم لابن كثير، الجواهر الحسان للثعالبي، اللباب لابن عادل، نظم الدرر للبقاعي، إرشاد العقل السليم لأبي السعود، روح البيان لإسماعيل حقي، البحر المديد لابن عجيبة، تفسير الأعقم، تفسير كتاب الله العزيز للهواري، هميان الزاد لأطفيش، فتح القدير للشوكاني، روح المعاني للألوسي، محاسن التأويل للقاسمي، التحرير والتنوير لابن عاشور، أضواء البيان للشنقيطي، الميزان للطبطبائي، تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي.

- **منهج البحث:**

سأسلك في هذا البحث – إن شاء الله – منهجاً وصفياً تحليلاً، كما أني اعتمدت في هذا البحث على عدد من الأمور المنهجية في الدراسة وهي:

أولاً: راعيت عند دراسة الآيات الكريمة المتعلقة بالمعية أمرين:

- التعريف بالسورة التي ورد ذكر المعية في أثنائها، وسياق الآية فيها إجمالاً.
- الاقتصار في استنباط الفوائد والدلالات من الآيات الكريمة على ما يتعلق بمعنى المعية، أو يلزم منها.
- بعض الآيات تشترك في عدد من الدلالات والفوائد، ولهذا أكتفي بذكر تلك الدلالات في أول موضع، مُستغنياً به عن إعادتها في الموضع الآخر.

ثانياً: تتبع أقول المفسرين في كتبهم المشهور المتداولة بين الناس التي ورد ذكرها في حدود البحث، وقد قام ذلك التتبع على عدد من الأسئلة المنهجية، أهمها:

- هل المفسر يتناول معنى المعية في موردها من الآيات بالبيان والتوضيح أو يدع بيانها ؟
- وإذا كان يعمد إلى البيان، فهل يفصل فيه أو يجمل ؟
- ما موقفه من الخلاف في معنى الآيات، هل يشير إليه أم يغفله ؟
- وإذا كان يشير إلى الخلاف في معنى الآية؛ فهل يفصل فيه عرضاً

ورداً أو يجمل ؟

ثالثاً: منهج بيان موقف المفسرين من معنى آيات المعية، وفق التالي:

- إذا اتفق المفسرون الذين ذكرتهم في حدود الدراسة على معنى معين من معاني آيات المعية؛ فإني أشير إلى ذلك المعنى، وأشير إلى أنه قول عامة المفسرين ولا أنص على أحد بعينه اكتفاء بأنه قول العامة.
- إذا قال أكثرهم بمعنى معين معاني آيات المعية، فإني أنص على أنه قول الأكثر، وأسمي بعضهم من باب التمثيل، وأنص على من ذكر معاني أخرى سوى قول الأكثر.
- وما سوى ذلك فإني أنص عند ذكر كل معنى على قائله.

- **خطة البحث**

تشتمل على: مقدمة، وفصلين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج البحث وخطته.

الفصل الأول: المراد بالمعية الإلهية، وموقف المفسرين منها، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المراد بالمعية الإلهية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى المعية، ومذاهب الناس في المراد بها.

المطلب الثاني: أقسام المعية الإلهية.

المطلب الثالث: العلاقة بين المعية والعلو.

المبحث الثاني: موقف المفسرين من آيات المعية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: موقفهم من آيات المعية العامة.

المطلب الثاني: موقفهم من آيات المعية الخاصة.

الفصل الثاني: آيات المعية الإلهية، عرض ودراسة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آيات المعية العامة معانيها وآثارها.

المبحث الثاني: آيات المعية الخاصة معانيها وآثارها، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: معية النصرة والتأييد.

المطلب الثاني: معية الإعانة والهداية.

المطلب الثالث: معية الحفظ والحماية.

المطلب الرابع: آثار المعية الخاصة ووسائل تحقيقها.

الخاتمة: نتائج البحث، وتوصياته.

وبعد: فإني أتوجه بالحمد والثناء على الله – تعالى– بما هو أهله، حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، على نعمه التي لم تزل تترى، وآلائه التي لا أحصي لها عداً، ولا أعرف لها حداً.

كما أتوجه بالشكر لكل من أعان على هذا البحث برأيٍ، أو توجيهٍ، أو مشورةٍ، وأخص بالشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ممثلة في عمادة البحث العلمي، على دعمها لهذا البحث، وتبنيها له.

ثم إني أسأل الله تعالى الكريم رب العرش العظيم، أن يعصمني من سلطان الهوى، وغلبة الجهل، وخطل الرأي، كما أسأله – وهو البر الرحيم – أن يجعل هذا العمل خالصاً له – عز وجل – مقرباً مرضاته، في يوم لا

ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه والطيبين.

الفصل الأول:

المراد بالمعية الإلهية، وموقف المفسرين منها.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المراد بالمعية الإلهية.

المبحث الثاني: موقف المفسرين من آيات المعية.

المبحث الأول:

المراد بالمعية الإلهية.

لبيان المراد بالمعية الإلهية سيكون البحث مقسماً على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى المعية، ومذاهب الناس في حقيقتها.

المطلب الثاني: أقسام المعية الإلهية.

المطلب الثالث: العلاقة بين المعية والعلو.

المطلب الأول: معنى المعية، ومذاهب الناس في المراد بها.

يدور كلام أهل اللغة في معنى المعية على أن أصلها من: مع، وهو اسم يدل على المصاحبة زماناً أو مكاناً، تقول: جاء زيد مع عمرو، وجلس زيد مع عمرو[1].

وقد تكون هذه المصاحبة حسية، كالمصاحبة زماناً أو مكاناً، وقد تكون معنوية مثل ما تقول: هما في الشرف معاً[2].

هذا مدار معنى المعية في اللغة، أما المراد بها وحقيقتها؛ فقد اختلف فيه الناس على خمسة أقوال:

القول الأول: أن معية الله لخلقه معناها: علم الله التام بخلقه، واطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، مع اعتقاد علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، وهذا قول السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة الدين[3].

---

(١) ينظر: المحكم، وتاج العروس، ولسان العرب، مادة: معع.

(٢) ينظر: مفردات الراغب الأصفهاني، مادة: مع.

(٣) ينظر: الأسماء والصفات للبيهقي(٢/ ٢٨٩) والشريعة للآجري ص:٢٧٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٧) (٥/ ٢٣١) واجتماع الجيوش الإسلامية ص:٣٣.

ومما يحسن الإشارة إليه أن شيخ الإسلام ابن تيمية نص على أن معية الله تعالى لخلقه معية حقيقة، وقد يظن الظان أن قوله – رحمه الله – خلافُ قولِ السلف، حيث فسروا المعية بالعلم، وهذا الظن يندفع إذا علمنا أن قول شيخ الإسلام لا يخرج في حقيقته عن قول السلف؛ لأن السلف فسرو المعية – كما بينا – بأنها: علم الله التام بخلقه، وإطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، مع اعتقاد علوه على خلقه، واستوائه على =

القول الثاني: أن معية الله تعالى لخلقة معية ذاتية، فذات الله – عز وجل – في كل مكان، مع إثبات علوه بذاته فوق عرشه، وهذا قول بعض طوائف من أهل التصوف[(١)].

القول الثالث: من نفى عن الله تعالى الوصفين، فنفى أن يكون الله داخل العالم أو خارجه، ونفى أن يكون قريباً منهم أو بعيداً عنهم، وهذا قول الجهمية النفاة[(٢)].

القول الرابع: أن الله تعالى موجود في كل مكان، وهذا قول أكثر المعتزلة[(٣)] ومتأخرة الأشاعرة[(٤)].

القول الخامس: أن الله حال بذاته في كل مكان، أي أنه عين وجود المخلوقات، وهذا قول الحلولية من غلاة المتصوفة، ومن وافقهم من

= عرشه، وهذه حقيقة المعية التي يشير إليها شيخ الإسلام، وقررها في مؤلفاته، يؤكد هذا أنه لم يبق بعد هذه المعاني التي قررها السلف إلا القول بالحلول في الأمكنة تعالى الله عن ذلك، إذ لا يتصور بعد هذه المعاني إلا القول بالحلول، وهذا ما لا يقوله – رحمه الله – وإنما نص على أنها معية حقيقة طرداً لطريقة أهل السنة في إثبات صفات الله على حقيقتها ورداً لطريقة أهل التأويل، والسلف فسروها بالعلم ونحوه دفعاً لقول أهل الحلول ومن وافقهم بأنه تعالى مع خلقه بذاته حالٌ فيهم، والله أعلم.

(١) ينظر: مقالات الإسلاميين(١/ ٧٤) والفصل في الملل(١/ ٩٦) ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٤).

(٢) ينظر: مقالات الإسلاميين ص٢١٤ ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٢).

(٣) ينظر: مقالات الإسلاميين ص٢١٢ والفصل في الملل(٢/ ٩٦).

(٤) ينظر: الآثار المروية في صفة المعية ص٧٨.

النجارية، والجهمية الحلولية[1].

وتفسير السلف لمعنى المعية هو الحق الذي يجب اعتقاده في معية الله تعالى لخلقه، وذلك لأمور منها:

الأول: أن لفظ المعيّة يعبر به في اللغة عن مطلق المصاحبة والاجتماع، دون أن يكون من لازمه ومقتضاه المخالطة في ذات المكان، أو المماسة والمحاذاة، وإنما يوجب في كل استعمال ما يناسبه، قال ابن تيمية في كلام دقيق نادر:" ذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت؛ فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا"[2].

الثاني: أن ظاهر الآيات الدالة على معية الله تعالى، لا يجوز أن تدل على أكثر من هذا القدر الذي قرره السلف؛ لأنه ليس بعد العلم والإحاطة – سماعاً وبصراً وقدرة – إلا المخالطة في المكان والحلول فيه، وهذا مع أنه ممتنع على الله جل وعلا؛ فهو سبحانه منزه عنه، لما يلزم منه من مخالطة القاذورات والحلول فيها، تعالى الله عن ذلك، وهذا ما أشار إليه الإمام أحمد في رده على الجهمية، قال:" فقلنا لهم: أنكرتم أن يكون الله على العرش، وقد قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ؟ وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) ينظر: مقالات الإسلاميين ص٢١٥، ومجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٢٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٠٣).

﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ فقالوا: هو تحت الأرض السابعة كما هو على العرش، وفي السموات، وفي الأرض، وفي كل مكان، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، وتلوا آية من القرآن: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عِظَمِ الرب شيء، فقالوا أي مكان؟ فقلنا: أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة، ليس فيها من عظم الرب شيء، وقد أخبرنا أنه في السماء فقال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾"[١].

الثالث: مما يقوي هذا المعنى؛ أن سياق آية المعية دال على أن المراد بالمعية هي العلم والإحاطة بالخلق، حيث جاءت متضمنة ذكر علم الله تعالى في صدرها وختامها، وهذا ما أشار إليه الإمام أحمد بن حنبل، لما سأله أبو طالب عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ قال: قد تَجَهْم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها، هلا قرأت عليه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ فالعلم معهم، وقال في سورة: ق ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ فعلمه معهم"[٢].

الرابع: ومما يؤكد صحة فهم السلف لنصوص المعية؛ الأدلة المتنوعة المتكاثرة من النصوص السمعية، والأدلة العقلية والفطرية، الدالة على علو

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص٣٨. ينظر أيضا: شرح العقيدة الواسطية(١/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة(٣/ ١٥٩).

الله تعالى على خلقه، علو ذات، وعلو قهر وقدر، ففهم السلف للمعية يجمع بين إثبات معيته لخلقه وعلوه عليهم، وسيأتي – إن شاء الله تعالى – في المطلب الثالث تقرير هذا، والإشارة إلى شيء من تلك الأدلة.

الخامس: أن حقيقة من يقول: إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه، أنهم ينفون عن الله تعالى الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما[(١)].

ثم هؤلاء القائلون بنفي الوصفين المتقابلين، متناقضون في معنى المعية، مضطربون في تقرير عقيدتهم، قال ابن تيمية:" وكثير منهم يجمع بين القولين؛ ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما، فيقول: لا هو داخل العالم ولا خارجه، وفي حال تعبده وتألهه يقول: بأنه في كل مكان لا يخلو منه شيء"[(٢)].

السادس: قول السلف في معنى المعية، هو القول الذي أجمعوا عليه، واتفقت عليه كلمتهم، وقد حكى هذا الإجماع عدد من أئمة الإسلام، قال أبو عمر الطلمنكي :" أجمع المسلمون من أهل السنة، على أن معنى قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ونحو ذلك من القرآن؛ أنه علمه، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء"[(٣)].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى(٥/ ٢٢٧) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٨٠ وشرح العقيدة الواسطية(١/ ٤٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى(٥/ ٢٧٢).

(٣) ينظر: العلو للذهبي ص٢٤٦، ومجموع الفتاوى(٥/ ١٨٩) واجتماع الجيوش الإسلامية =

وقال ابن عبد البر:" علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يُحتج بقوله"[1].

هذه أبرز الأدلة والمعاني التي بنى عليها أهل السنة قولهم في معنى المعية الإلهية، والمخالفون لهم في هذا الباب اعتمدوا على شبهتين رئيستين[2]:

الأولى: تمسكوا ببعض النصوص التي ظنوا أن ظاهرها يخالف ما ذهب إليه السلف، وهي ما ورد من آيات في معية الله لخلقه، وقربه منهم مثل: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

= ص٤٤.

(١) التمهيد(٧/ ١٣٧).

(٢) ينظر في هذا الشبهة: الشريعة للآجري ص٢٧٣، ٢٨٢، ومجموع الفتاوى(٥/ ١٠٢) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٤٤.

وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٨٤] فقالوا: إن تفسير السلف لها بمعية العلم عدول عن الظاهر، وتأويل للكلام، فإن ظاهرها يقتضي أن يكون الله – تعالى – معه خلقه بذاته.

الجواب عليها: قد تقدم قريباً في تقرير قول السلف – رحمهم الله – أن اللغة لا توجب في أصلها أن يكون لفظ المعية يقتضي اجتماعاً أو مماسة، وإنما توجب مطلق المصاحبة، ثم يفهم معنى المعية بحسب الموضع الذي استعملت فيه، حيث توجب في كل موضع من المعاني ما لا توجبه في الموضع الآخر، قال ابن تيمية في تقرير هذا المعنى: " ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته... ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد... وقد يدخل على الصبي من يخيفه فيبكي، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف؛ أنا معك، أو أنا هنا، أو أنا حاضر، ونحو ذلك، ينبهه على المعية الموجبة – بحكم الحال – دفع

المكروه؛ ... فلفظ "المعية" قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها -وإن امتاز كل موضع بخاصية- فعلى التقدير ليس مقتضاها: أن تكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق، حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها"[١].

وإلى هذا المعنى يشير أبو حنيفة في جوابه عمن سأله عن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ قال: "هو كما تكتب إلى الرجل: إني معك وأنت غائب عنه"[٢] أي أن لفظ المعية لا يلزم منه المخالطة.

ونحواً من هذا قال ابن قتيبة: "نحن نقول في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إنه معهم يعلم ما هم عليه، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع: احذر التقصير فإني معك، تريد أنه لا يخفى عليَّ تقصيرك، وكيف يسوغ لأحد أن يقول: إنه سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ومع قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ كيف يصعد إليه شيء هو معه، وكيف تعرج الملائكة إليه وهي معه، ولولا أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما ركبت عليه خِلَقُهم من معرفة الخالق؛ لعلموا أن الله هو العلي، وهو الأعلى، وأن الأيدي ترتفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجميها وعربيها، تقول: إن الله في السماء، ما

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٠٣) وينظر - أيضا -: الشريعة للآجري ص٢٧٣.

(٢) الأسماء والصفات(٢/ ٢٣٨).

تُـركت على فطرها"[١].

ومما يؤكد فساد هذه الشبهة، صحة قول القائل: أنا مع المتقين، أو مع الصابرين، أو مع الصائمين، وإن كان في أقصى الأرض، فهو معهم في صفاتهم وأخلاقهم، قال ابن عطية معلقاً على قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] : " (مع) في هذه الآية؛ تقتضي الصحبة في الحال، والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح"[٢].

وأما استدلالهم بالآيات الدالة على القرب، فإنه قد اختلف المفسرون في متعلق القرب[٣]: أيراد به الله تعالى أم ملائكته؟ وعلى القول بأن القرب هو قرب الله تعالى، فهو كما قال الحارث المحاسبي في جوابه عمن استدل بهذه الآيات: " ما قرب من الشيء ليس هو في الشيء"[٤].

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤] فالواجب حمل هذه الآية – كما يقول ابن عبد البر –: " على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير"[٥].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص١٨٢.

(٢) المحرر الوجيز(٤/ ٤٣٢).

(٣) سيأتي في المطلب الثالث – إن شاء الله – الكلام عن آيات القرب.

(٤) فهم القرآن ص٣٥٤ ونقله عنه في الفتاوى(٥/ ٧٠).

(٥) التمهيد(٧/ ١٣٤) وأشار إلى نحوه الكرمي في أقاويل الثقات ص١٠٥.

وقال البيهقي في سياق الرد على الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣] " وكيف ما كان، فلو أن قائلاً قال: فلان بالشام والعراق يملك، لدل قوله: يملك، على الملك بالشام والعراق، لا أنه بذاته فيهما"[(١)].

الشبهة الثانية: تعارض القول بالمعية، مع إثبات العلو لله، واستوائه على عرشه، فقالوا: لا يمكن القول بالمعية مع إثبات العلو لله تعالى؛ لأن العلو ينفي المعية ويعارضها.

الجواب عليها:

سيأتي الجواب عن هذه الشبة – إن شاء الله تعالى – في المطلب المتعلق بالعلاقة بين المعية والعلو، وبيان ما ينفي القول بتعارض إثبات مقتضاهما لله تعالى.

(١) الأسماء والصفات(٢/ ٣٤٣).

المطلب الثاني: أقسام المعية الإلهية[1].

تنقسم المعية إلى أقسام متنوعة بحسب الاعتبار والنظر، ويمكن حصرها في ثلاثة اعتبارات:

الأول: اعتبار العموم والخصوص.

الثاني: اعتبار تعلقها بالذات والفعل.

الثالث: اعتبار تعلقها بوصف أو شخص.

الاعتبار الأول: العموم والخصوص.

قسم أهل العلم المعية الإلهية من حيث العموم والخصوص إلى قسمين:

القسم الأول: المعية العامة.

ويراد بها: علم الله التام بجميع خلقه، واطلاعه عليهم سمعاً وبصراً، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم.

ولأنها تشمل الخلق جميعاً– مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم – سُميت معية عامة، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

القسم الثاني: المعية الخاصة.

(١) ينظر: مجموع الفتاوى(٥/ ٢٢٧) وشرح العقيدة الواسطية(١/ ٤٠٠).

وهي قدر زائد على معنى المعية العامة، إذ تدل مع العلم والإحاطة؛ على معنى النصرة والحفظ والتأييد والتوفيق، ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسياق الذي وردت فيه.

وهذه المعية تكون لمن ذُكِرت له، ولهذا سُميت معية خاصة، مثل معية الله تعالى للصابرين، ومعيته للمتقين ونحو ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الاعتبار الثاني: تعقلها بذات الله تعالى أو فعله.

تنقسم المعية الإلهية باعتبار تعلقها بذات الله - عز وجل - أو فعله، إلى قسمين:

القسم الأول: صفة ذاتية لله تعالى، وهي المعية العامة؛ لأنه تعالى لم يزل مع خلقه علماً وإحاطة وقدرة وسلطاناً.

القسم الثاني: صفة فعلية، وهي المعية الخاصة؛ لأنها معية تابعة لمشيئة الله تعالى، متعلقة بسبب، فإذا وجد السبب المُقتضي لها تحققت، مثل: معية الله للصابرين والمتقين، تتحقق إذا وُجِد الصبر والتقوى فيهم، فيكون الله معهم حِفظاً وتوفيقاً وتأييداً ونحو ذلك من المعاني المناسبة للسبب المقتضي لها.

الاعتبار الثالث: تعلقها بوصف أو بذاتٍ.

تنقسم المعية الإلهية باعتبار كونها تتعلق بوصف أو بذات، إلى قسمين:

القسم الأول: معية تتعلق بوصف ما، وهي معية إلهية خاصة بمن

قام به وصف خاص، مثل من تحقق فيه وصف التقوى أو الإحسان، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

القسم الثاني: معية تتعلق بذات معينة، وهي معية إلهية خاصة بذات معينة من خلقه – عز وجل – مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة: ٤٠] فهي معية خاصة بالنبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، ومثل قوله تعالى في شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

وأخصُّ معيةٍ من هذا النوع معية الله تعالى لموسى عليه السلام المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

وهذا النوع من المعية هو أخص أنواع المعية الإلهية، لأنها معية مخصوصة بذات معينة، ولهذا فلم تثبت في القرآن الكريم إلا لهؤلاء الأربعة الكرام: محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة السلام، وأبو بكر رضي الله عنه.

ونلحظ أن هذا القسم بنوعيه يتعلق بالمعية الإلهية الخاصة دون المعية العامة؛ لأنها معية خاصة بمن هي له، سواء كان ذاتاً معينة أو صفة ما.

المطلب الثالث: العلاقة بين المعية والعلو.

من المسائل الجديرة بالبحث في موضوع المعية الإلهية؛ بيان العلاقة بينها وبين إثبات العلو الذاتي لله تعالى؛ لأن إثبات صفة العلو يعين على فهم حقيقة المعية، وما تدل عليه، ثم إن بعض من أنكر علو الله بذاته على خلقه، يحتج بنصوص المعية على إنكاره لتوهم تعارضهما، وعدم إمكان الجمع بينهما[١] ولهذا سيكون الكلام عن هذه المسألة في فقرتين:

الأولى: إثبات علو الله تعالى ذاتاً وصفة.

الثانية: الجمع بين النصوص الدالة على صفة المعية وصفة العلو لله عز وجل.

- **الفقرة الأولى: إثبات علو الله تعالى ذاتاً وصفة[٢].**

من المتقرر عند أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان؛ إثبات علو الله تعالى على خلقه، علو ذات وعلو قهر وقدر، وأدلتهم على ذلك كثيرة متنوعة، منها ما هو سمعي، ومنها ما هو عقلي،

---

(١) مما يدل على ذلك ما ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن عند آية سورة الحديد(١٧/ ٢٣٧) حيث يقول:" وقد جمع في هذه الآية بين ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وبين ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض؛ فدل على أنه لا بد من التأويل، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض".

(٢) ينظر: الأسماء والصفات(٢/ ٣٠٣) والشريعة للآجري ص٢٧٧ ومجموع الفتاوى(٥/ ١٣٦) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٢ وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٨١.

ومنها ما هو فطري.

فأما السمعي؛ فنصوص كثيرة من الكتاب والسنة، دالة على إثبات علو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه، منها ما جاء النص فيه صريحاً على علوه عز وجل، كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨] .

ومنها ما ورد النص فيها على صعود الأشياء له، وعروجها إليه، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ومنها ما ورد النص فيها على نزول الشيء منه تعالى، كقوله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١].

ومنها التصريح باستوائه على عرشه كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

وأما الدليل العقلي؛ فقد أشار إليه ابن أبي العز بقوله: " علوه سبحانه وتعالى – كما هو ثابت بالسمع – ثابت بالعقل والفطرة، أما ثبوته بالعقل، فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر، قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً

من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته، أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل؛ أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والثاني: يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم، وغير منفصل عنه؛ غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه؛ يقتضي نفي وجوده بالكلية؛ لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل، فتعين الثاني، فلزمت المباينة"(١).

وأما الدليل من الفطرة؛ فقد أشار إليه أبو الحسن الأشعري، يقول: "ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله عز وجل على العرش؛ لم يرفعوا أيديهم نحو العرش"(٢).

ولهذه الأدلة كلها؛ فقد أجمع السلف كلهم - قبل ظهور أهل البدع - على إثبات صفة العلو لله تعالى على خلقه، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبا حاتم وأبا زرعة الرازيين - رحمهما الله - عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك، فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازاً، وعراقاً، ومصراً،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٨٩.

(٢) الإبانة ص٤٠.

وشاماً، ويَـمَناً، فكان من مذهبهم... وأن الله على عرشه، بائن من خلقه، كما وصف نفسه، بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً"[(١)].

ومع هذه الأدلة المتنوعة فإنه كما يقول ابن تيمية – في كلام مَتِين قلَّ نظيره –:" ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، ولا عن أحد من سلف الأمة، لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف؛ حرف واحد يخالف ذلك، لا نصاً ولا ظاهراً ... فكيف يجوز على الله تعالى، ثم على رسوله، ثم على خير الأمة، أنهم يتكلمون دائماً بما هو إما نص وإما ظاهر في خلاف الحق، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه، لا نصاً ولا ظاهراً، حتى يجيء أنباط الفرس، والروم، وفروخ اليهود والنصارى، والفلاسفة، يبينون للأمة العقيدة الصحيحة، التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها "[(٢)].

- **الفقرة الثانية: الجمع بين صفة المعية وصفة العلو لله عز وجل**[(٣)].

من الشبه التي تمسك بها المخالفون لأهل السنة في صفة المعية والعلو، زعمهم تعارض ظواهر النصوص الواردة في هاتين الصفتين؛ مما يوجب القول بالتأويل، وصرفها عن ظاهرها، ولهذا فالجمع بينهما، ونفي

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة(١/ ١٧٦).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية(٥/ ١٥).

(٣) للشيخ ابن عثيمين كلام حسن في القواعد المثلى ص٧٧ في الجمع بين هاتين الصفتين، أشرت إلى بعضه هنا.

التعارض عنهما، يَرُد قولهم، ويبطل حجتهم.

وقد أشار إلى وجه الجمع بينهما أئمة السلف، ومختصر كلامهم في الجمع بين الصفتين، أن صفة المعية لا توجب مخالطة للخلق، ولا مماسة لهم، بل هو تعالى معهم بعلمه واطلاعه عليهم، وإحاطته بهم، وقدرته عليهم، ونفوذ أمره فيهم، مع علوه عليهم، واستوائه على عرشه.

وإنما جاء توهم التعارض من تصور أن المعية توجب مخالطة المخلوق، على نحو يعارض علوه - عز وجل - وهذا ما لا تدل عليه ظواهر النصوص من الكتاب والسنة، ولا توجبه لغة العرب التي نزل بها القرآن، قال ابن تيمية:" وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت؛ فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة، أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني؛ دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا، ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة"[(١)].

فإذا أمكن تحقق المعية من غير مخالطة في حق مخلوق مثل: القمر والنجم ونحوهما، ففي حق الخالق المحيط بكل شيء من باب أولى.

ومن كان عالماً بك، مطلعاً عليك سمعاً وبصراً، محيطاً بك قُدْرَةً وأمراً؛ فهو معك وإن كان فوقك، فالله تعالى مع خلقه علماً وإحاطة وقدرة،

(١) ينظر: مجموع الفتاوى(٣/ ١٤٣).

وهو فوق خلقه مستو على عرشه.

ثم هَب أن الجمع بين الوصفين مما يستحيل وقوعه في حق الخلق؛ فإن ما يجب للخالق لا يقاس بخلقه، فهو عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فما يمتنع على المخلوق لا يلزم امتناعه على الخالق جل وعلا، كيف والله تعالى قد جمع بينهما لنفسه في كتابه الكريم، المنزه عن كل نقص، المعصوم من التناقض والاضطراب، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

المبحث الثاني:
موقف المفسرين من آيات المعية:

هذا المبحث مخصص للإبانة عن مواقف المفسرين من آيات المعية بنوعيها العامة والخاصة، ولهذا سنورد أقوال المفسرين، ونضرب الأمثلة من تفاسيرهم، بحسب ما يقتضيه المقام، مع الاختصار على ما يحقق المقصود، ويكشف عن المراد قدر الإمكان، وقد جعلت هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: موقفهم من آيات المعية العامة.

المطلب الثاني: موقفهم من آيات المعية الخاصة.

المطلب الأول: موقفهم من آيات المعية العامة.

ورد في القرآن الكريم، الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه المعية العامة، في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في سورة النساء، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ٤].

الموضوع الثاني: في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

الموضوع الثالث: في سورة المجادلة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

وبعد النظر في كلام المفسرين على هذه الآيات الكريمة، يمكن أن نُبين موقفهم من خلال عدد من النقاط:

أولاً: نهج غالب المفسرين على الاختصار في الكلام عن آيات المعية، وذلك إما لأن المسألة متقررة عندهم، لا تحتاج إلى مزيد نظر وبحث، وإما مراعاة لما قَصَدَه بعضهم من الاختصار في أصل الكتاب.

ونستثني من هذا تفاسير الصوفية، فإنهم قد توسعوا في الكلام عن معنى هذه الآيات، خصوصاً آية سورة الحديد وسورة المجادلة، وذلك بذكر بعض الإشارات الصوفية، والمعاني الروحية، جرياً على طريقتهم، لِمَا للمعية من المعاني الخاصة عندهم، وينظر في هذا ما ذكره البقلي والقشيري عند آية سورة الحديد والمجادلة(١).

ثانياً: قرر غالب المفسرين معنى المعية الإلهية عند آية سورة الحديد، وأما آية سورة النساء وآية سورة المجادلة؛ فإنهم يشيرون إلى المعنى فيهما إجمالاً كما صنع البغوي والطبرسي(٢)، وبعضهم ترك الكلام حتى عن المعنى كما فعل الماوردي(٣).

وبعضهم ربما قرر المعنى عند آية سورة المجادلة، وسكت عنه في آية سورة الحديد كما فعل الزمخشري(٤).

على أن بعض المفسرين لم يُشر إلى معنى المعية في هذه المواضع الثلاثة، كما فعل الشنقيطي، مكتفياً بالإحالة على ما قرره عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

ثالثاً: أجمعوا على تفسير معنى معية الله تعالى لعباده بالعلم، على اختلاف مذاهبهم، بل بعضهم حكى الإجماع على هذا التفسير، كابن عطية

---

(١) ينظر: عرائس البيان(٢/ ٥٤٥) ولطائف الإشارات(٥/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: معالم التنزيل(٦/ ٣٢٣) ومجمع البيان(٨/ ٣٤٥).

(٣) ينظر: النكت والعيون(٤/ ٢٤٤).

(٤) ينظر: الكشاف(٤/ ٦٣).

والرازي وابن جُزي، وأشار إليه ابن كثير[1].

ونشير هنا إلى أن لبعض الصوفية في تقرير المعية الإلهية كلاماً مجملاً مبهماً، ربما أوهم معان فاسدة، ينزه الرب تبارك وتعالى عن مثلها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره البقلي عند آية سورة الحديد[2].

رابعاً: والمفسرون وإن أجمعوا على تفسير المعية هنا بالعلم، فإن كثيراً منهم جعل التعبير بالمعية هنا من باب المجاز والتمثيل الدال على كمال العلم والقدرة، كما قرره الواحدي وابن عطية وأبو حيان وابن عاشور وغيرهم[3]، وهذا مفرق طرق بين طريقة السلف وطريقة من خالفهم من سائر الطوائف، فإن السلف – كما قررنا عند الكلام عن مذاهب الناس في معنى المعية – حملوا الآية على ظاهرها، ولا يقولون بأنها من المجاز والتمثيل، ووجه ذلك يظهر في ثلاثة أمور:

١. أنهم يرون أن معنى المعية – على ما سبق تقريره – تدل في الأصل على مطلق المصاحبة، وتفسر بحسب من تضاف إليه، فمعية كل أحد بحسبه.
٢. أن معية الله تعالى لخلقه لا يمكن بحال أن يفهم منها أكثر مما قرره أئمة

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز(٨/ ٢١٥) ومفاتيح الغيب (٢٩/ ١٨٧) والتسهيل(٢/ ١٣٢) وتفسير القرآن العظيم(٤/ ٥٠٣).

(٢) ينظر: عرائس البيان(٢/ ٥٤٥).

(٣) ينظر: البسيط(٢١/ ٢٨٧) والمحرر الوجيز(٨/ ٢٨٧) والبحر المحيط(٨/ ٢١٧) والتحرير والتنوير(٢٧/ ٣٦٤).

السلف من معنى علمه - عز وجل - وإحاطته وقدرته على خلقه، ولم يبق بعد هذه المعاني إلا القول بحلول الله في المخلوقات تعالى الله عن ذلك.

٣. أن سياق الآية الكريمة دال على معنى العلم، فسياقها يشير إلى علم الله تعالى بخلقه وأحاطته بهم، حيث ذُكر العلم في أول الآيات وآخرها.

ولهذه المعاني لا يصح أن يقال: أن دلالتها على العلم والقدرة من باب المجاز، بل هذه الآيات في حقيقتها دالة على العلم والقدرة والإحاطة.

خامساً: بعض المفسرين ربما نص على بعض أقوال السلف مستشهداً بها على ما تدل عليه من معية الله تعالى لخلقه، كما فعل الطبري، ومكي بن أبي طالب، وابن عطية، والألوسي(١).

سادساً: درج غالب المفسرين على تقرير معنى المعية، دون الإشارة إلى قول المخالف، نظراً لأن المسألة محل إجماع، والمخالف فيها لا يكاد يُعرف، إلا ما كان من القرطبي فقد أشار إلى قول من خالف في معنى المعية من الجهمية والمعتزلة، عند كلامه عن آية سورة النساء(٢).

على أن بعضهم أشار إلى بعض الخلاف الذي لا يتعلق بأصل المعنى، بل بمسائل وثيقة الصلة به، كما فعل البقاعي(٣)، حيث ذكر شُبَه

---

(١) ينظر: جامع البيان(١٢/ ١٣) والهداية(٦/ ٥٤٦) والمحرر الوجيز(٨/ ٢٨٧) وروح المعاني(٨/ ٢١٧).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(٧/ ١١٩).

(٣) ينظر: نظم الدرر(١٩/ ٢٥٩).

المخالفين وناقش أقوالهم، مستشهداً بكلام السلف، وكلام ابن تيمية في هذا الباب خصوصاً.

سابعاً: بعض من كان على طريقة السلف من المفسرين، جمع بين تقرير معنى المعية والتأكيد على إثبات صفة علو الله على خلقه واستوائه على عرشه؛ لأن المخالفين للسلف وإن وافقوهم على حمل معنى المعية على العلم؛ فقد خالفوهم في اعتقاد علو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وهذا ما حمل بعض المفسرين على الجمع بين الوصفين لله تعالى، تأكيداً على نفي تعارضهما، كما فعل الطبري ومكي بن أبي طالب، قال ابن جرير عند آية سورة الحديد:" وهو شاهد لكم أيها الناس أينما كنتم، يعلمكم ويعلم أعمالكم، ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سمواته السبع"[(١)].

ثامناً: جعل بعض المفسرين آيات المعية أصلاً في باب التأويل، لحقائق صفات الله تعالى، وغيرها مما يدخل في معناها من المغيبات، اعتماداً على أن آيات المعية صُرفت عن ظاهرها الذي يقتضي أن الله تعالى مع خلقه بذاته في كل مكان، وإذا جاز الصرف في موضع جاز فيما سواه، وهذا أشار إليه كثير من الأشاعرة أو من تأثر بهم، كالواحدي، وابن عطية، والرازي، وأبي حيان، وابن عادل، قال الواحدي:" وهذا حجة على من ترك تأويل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وأجراه على الظاهر، إذ لا بد من التأويل في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ ولا يجوز إجراؤه على الظاهر حتى يعتقد

---

(١) جامع البيان(١١/ ٦٧٠) وينظر: الهداية(٦/ ٥٤٦).

أنه مع كل واحد في مكانه وجهته، وإذا جاء التأويل في بعض جاز في الكل"[١].

وهذا الاحتجاج قد سبق الإشارة إليه، والإجابة عليه عند إيراد الشُبه التي تمسك بها من خالف السلف في معنى المعية الإلهية، وأن مبنى هذه الشبهة قائم على توهم أن المعية توجب في أصل معناها المخالطة والمماسة، وقررنا هناك أنها لا توجب في أصلها أكثر من مطلق المصاحبة، ثم توجب في كل موضع من المعاني بحسب من أُضيفت إليه.

على أن الألوسي قد تعقب هذا الإلزام، حيث قال بعد الإشارة إلى هذا المعنى:" وأنت تعلم أن الأسلم ترك التأويل، فإنه قول على الله تعالى من غير علم، ولا نؤوّل إلا ما أوّله السلف، ونتبعهم فيما كانوا عليه، فإن أوّلوا أوّلنا، وإن فوضوا فوضنا، ولا نأخذ تأويلهم لشيء سلماً لتأويل غيره"[٢].

تاسعاً: بعض المفسرين يعمد – بعد تقرير المعنى – إلى الإشارة إلى ما توحي به الآيات، من معان إيمانية تؤثر في سلوك المؤمن، وتعزز فيه جانب الرقابة والخشية من الله تعالى، لعلمه باطلاعه عليه، كما فعل ابن كثير

(١) التفسير البسيط(٢١/ ٢٧٧).

تنبيه: كذا في الأصل: جاء، ولم يعلق عليه المحقق، والأظهر: جاز، مراعاة لجواب الشرط بعده: جاز في الكل، وهذه عبارة مشهورة يكثر ذكرها على هذا النحو.

(٢) روح المعاني(١٥/ ٢٥٧).

عند آية سورة الحديد[1]، فبعد تقريره لمعنى معية الله لخلقه، ساق أحاديث متعددة عن النبي ﷺ تتعلق بخشية الله تعالى، وتعظيم مقامه – عز وجل – بل ونراه يذكر أبيات من الشعر تؤكد هذا المعنى.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٤/ ٤٧٥).

المطلب الثاني: موقفهم من آيات المعية الخاصة.

ورد في القرآن الكريم، الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه المعية الخاصة، في سبعة عشر موضعاً، هي بحسب ترتيبها في المصحف:

الموضع الأول: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

الموضع الثاني: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

الموضع الثالث: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة:٢٤٩].

الموضع الرابع: في سورة المائدة، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

[المائدة:١٩].

الموضع الخامس: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال:١٢].

الموضع السادس: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩].

الموضع السابع: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

الموضع الثامن: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦].

الموضع التاسع: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

الموضع العاشر: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ

فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

الموضع الحادي عشر: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

الموضع الثاني عشر: في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

الموضع الثالث عشر: في سورة طه، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

الموضع الرابع عشر: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥].

الموضع الخامس عشر: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

الموضع السادس عشر: في سورة العنكبوت، عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

الموضع السابع عشر: في سورة محمد، عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟

وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد:٣٥].

وبعد النظر في كلام المفسرين على هذه الآيات الكريمة، يمكن أن نبين موقفهم من خلال عدد من النقاط:

أولاً: لم يتبع المفسرون منهجاً واحداً فيما يتعلق ببيان معنى المعية في هذه الآيات، بل وجدناهم مختلفين؛ فمنهم من تكلم عن معنى المعية فيها وبيّن المراد بها، ومنهم من أغفلها.

وهذا الاختلاف لم يقتصر على المفسرين فيما بينهم، بل حتى المفسر الواحد منهم، قد يتكلم عن معنى المعية في موضع، ويغفل بيانها في موضع آخر فلا يتكلم عنه، ولم يظهر لي سبب ذلك، وقد وقع هذا عند كثير من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين على نحو لا نحتاج معه إلى ضرب مثال عليه.

ثانياً: ذهب عامة المفسرين إلى أن المعية في هذه الآيات، تفيد قدراً زائد عن معنى المعية العامة، ولهذا وجدناهم يشيرون إلى لازم خاص لهذا النوع من المعية، ولم أجد خلافاً في شيء من هذه المواضع كلها إلا خلافاً للرازي حيث جعل المعية عامةً، وتبعه عليه ابن عادل صاحب اللباب،ورجحه الألوسي، وذلك في آية سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٩] وسيأتي – إن شاء الله – بيانه في الفصل القادم(١).

ثالثاً: وكما ذهبوا إلى أنها تفيد قدراً زائداً على معنى المعية العامة، فقد ذهب عامتهم – أيضاً – إلى معاني محددة تفسر بها المعية الخاصة بحسب موردها، وإذا تأملنا كلامهم في ذلك نجده يدور على ثلاثة معاني:

الأول: النصر والتأييد.

الثاني: الإعانة والهداية.

الثالث: الحفظ والحماية.

وربما عبروا بألفاظ مختلفة، غير أنها قريبة المعنى من هذه الألفاظ.

على أن المفسرين وإن ذهبوا إلى ذلك؛ فقد وجدت الرازي – أيضاً – عمد إلى تفسير المعية في آية النحل، بمعنى لم أجده عند غيره، إلا ما كان من مُتابعة ابن عادل له، وقد عُلم أنه كثير النقل عنه جداً، قال الرازي: "﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ معيته بالرحمة والفضل والتربية"(٢).

وقريباً منه ما ذكره الخازن، حيث قال: "وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة"(٣).

وهذه المعاني – في حقيقة الأمر – تدخل ضمن معاني الحفظ والهداية، وتلزم عليها، ولكن التعبير بهذا اللفظ لم أجده لغيرهما.

---

(١) في المطلب الثاني من المبحث الثاني.

(٢) مفاتيح الغيب(١٩/ ١١٤)، وبنصه في اللباب(١٢/ ١٩٢).

(٣) تفسير الخازن(٣/ ١٠٨).

رابعاً:لم يَعْتَن المفسرون في الجملة بتحرير المعاني الثلاثة التي تُفسر بها المعية الخاصة – التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة – بحسب سياقها في الآيات، بمعنى لم أجد لهم فيما وقفت عليه من كلامهم نصاً على ضابط تحمل الآية عليه، فلم أجد ضابطاً لتفسير المعية بالنصر مثلاً أو معنى الحفظ، حيث نجد منهم من يذكر أكثر من معنى في الآية الواحدة، كما فعل السمرقندي عند آية سورة المائدة في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ﴾ [المائدة:١٩] قال: "﴿إِنِّي مَعَكُمْ ۖ﴾ أي: معينكم وحافظكم وناصركم"[(١)].

نعم قد يقال: إن الضابط هو السياق، ولكن يبقى أن اختيار المعاني في السياق غير منضبط، ويظهر لي أن سبب عدم اعتناء عامة المفسرين بتحرير معنى المعية الخاصة في كل موضع؛ أن تلك المعاني متقاربة في المعنى والدلالة، بل وبين بعضها تلازم ظاهر.

ومن أكثر الآيات وضوحاً على تداخل ما بين هذه المعاني، وعدم عناية المفسرين بها آية سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] فقد اختلفت عبارات المفسرين في بيان معنى المعية فيها، وتنوعت تنوعاً كبيراً، على نحو لا تجده في غيرها، – كما سيأتي بيانه في الفصل القادم إن شاء الله – ومرجع ذلك

(١) تفسير السمرقندي(١/ ٤٦٠).

بالإضافة إلى ما ذكرته من تقارب المعاني الثلاثة، أن الآية تحتمل هذه المعاني جميعاً، فكل من قال بمعنى منها له نظر في الآية سديد.

خامساً: تميز كلام المفسرين عن آيات المعية الخاصة بالاختصار الشديد، ولعل مرجع ذلك إلى وضوح المعنى من سياق الكلام بما يغني عن التوسع في تقريره.

غير أنّا وجدنا بعضهم يتوسع في المواضع التي قد تكون محل إشكال، فيورد الإشكال، ويذكر الأقوال، ومن أبرز من له تلك العناية الألوسي، وانظره مثلاً عن قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢][(١)].

سادساً: قلّ من المفسرين من يشير إلى قول المخالفين أو يرد عليهم، إلا ما كان من الرازي، فقد أشار إلى شيء من ذلك عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١٩٤] حيث قال:" ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: بالمعونة والنصرة والحفظ والعلم، وهذا من أقوى الدلائل على أنه ليس بجسم، ولا في مكان، إذ لو كان جسماً لكان في مكان معين، فكان إما أن يكون مع أحد منهم، ولم يكن مع الآخر، أو يكون مع كل واحد من المؤمنين جزء من أجزائه وبعض من

---

(١) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

أبعاضه، تعالى الله عنه علوا كبيراً "(1).

وكلامه في نفي المكان إن كان يقصد به نفي أن المكان يحويه – عز وجل – فحق، ولكن يعبر عنه بالألفاظ الشرعية، وإن كان قصده نفي جهة العلو – كما هو قول الأشاعرة – فهو باطل، وقد قررنا في مطلب مستقل – في المبحث السابق – أدلة إثبات العلو لله تعالى إجمالاً.

سابعاً: من المفسرين من يشير إشارات سريعة إلى شيء من آثار المعية ودلالاتها، بحسب السياق الذي وردت فيه، وكان غالب المعاني التي يذكرها المفسرون لا تخرج عن أحد أمرين: إما أن تكون دالة على الترغيب أو الترهيب، وذلك بأن يستشعر المؤمن معية الله تعالى له، فيحمله ذلك على الرغبة بما يلزم من تلك المعية من الحفظ والنصرة والهداية، أو يرهب من معية الجليل له، فيحمله ذلك على تقواه، وحذار مخالفة أمره، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره البقاعي عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] قال:" ومن كان الله معه أفلح كل الفلاح، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، قال الحرالي: ففي ضمنه إشعار وتطريق لمقصد السماح الذي هو خير الفضائل، من وصل القاطع، والعفو عن الظالم، ولما كان في هذه التقوى خروج عن حظ النفس؛ أعلمهم أنه تعالى يكون عوضاً لهم من أنفسهم، بما اتقوا وداوموا على التقوى، حتى

(١) مفاتيح الغيب(٥/ ١١٥).

كانت وصفاً لهم فأعلمهم بصحبته لهم، انتهى"(١).

على أن بعضهم ربما استنبط معان أخرى كما فعل ابن سعدي، والطبطبائي عند قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٣٦] وسيأتي في المطلب الثاني من المبحث القادم - إن شاء الله تعالى - إيراد أمثلة لتلك الاستنباطات عند دراسة آيات المعية.

ثامناً: أشار بعض المفسرين - صراحة - إلى أن هذا النوع من المعية مجاز، ثم بين نوع المجاز فيها بحسب موردها، كما قرر الطوسي عند قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦] وكذا قال ابن عاشور وكلامه فيه أوضح وأصرح، حيث قال عند قوله تعالى:﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ [المائدة١٩] "والمعيّة في قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ معيّة مجازية، تمثيل للعناية والحفظ والنصر"(٢).

وهذا منه - عفا الله عنه - تأويل لا دليل عليه، وإنما حمله عليه هو وغيره؛ توهم أن المعية تقتضي مخالطة أو مماسة في مكان، وقد قررنا - في

(١) نظم الدرر(٣/ ١١٨).

(٢) التحرير والتنوير(٦/ ١٤١).

وهذا لا يقتصر على ابن عاشور، بل كل من خالف السلف يقول بهذا، وإنما نصصت عليه لأنه ذكر ذلك صراحة.

المبحث السابق عند بيان مذاهب الناس – فساد هذا الظن، وأن آيات الكتاب العزيز لا تدل عليه، ولا تلزم منه؛ لأن المعية في أصلها تدل على مطلق المصاحبة، ثم تُفسر مع كل معنى بحسبه، وإذ صح هذا؛ فإنها تدل في ظاهرها على معية الله تعالى لخلقه بما يليق بجلاله على ما قرر المفسرون، وتصان عن الظنون الكاذبة.

الفصل الثاني:

آيات المعية الإلهية عرض ودراسة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: آيات المعية العامة، معانيها وآثارها.

المبحث الثاني: آيات المعية الخاصة، معانيها وآثارها.

المبحث الأول: آيات المعية العامة، معانيها وآثارها.

في هذا المبحث نتناول بالدراسة آيات المعية العامة، مُراعياً في ذلك ترتيب المصحف:

الآية الأولى: في سورة النساء: قال تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ [سورة النساء: ١٠٨].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة تتضمن عدداً كبيرا من الموضوعات التي يدور غالبها حول رعاية شؤون المجتمع المسلم نُظُماً وآداباً، وتحديد علاقات أفراده الداخلية والخارجية[1]، ولهذا فالتشريعات الواردة في السورة تأخذ الطابع الجماعي، بمعنى أنها شرائع لا تخاطب الفرد مستقلاً عن باقي المجتمع، بل تتوجه له في ضمن الإطار الجماعي، بحيث يمتثلها في ظل وجود مجتمع يعيش فيه.

ومن أحد الموضوعات المهمة التي عرضت لها السورة الكريمة، موضوع النفاق والمنافقين، هو موضع يأتي في صميم رعاية المجتمع المسلم وحماية نسيجه، وتحديد طبيعة العلاقة بين أفراده، ولهذا ذكرت السورة كثيراً من أخلاقهم وصفاتهم، وأبانت عن منهج التعامل معهم، وكيف يتقي المجتمع المسلم خطرهم، ويدرأ كيدهم.

(١) ينظر: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ص٣٩.

وفي هـذا الـسياق وردت هـذه الآيـة الكريمـة، وقـد سـبقتها آيـات تضمنت توجيهاً ربانياً ببيان مهمة النبي ﷺ، مـن الحكـم بـين النـاس في كـل شؤونهم، بالحق الـذي أنزلـه الله عليـه، وأراه لـه، ونهـاه عـن المخاصـمة عـن أهل الخيانة، والمجادلة عـنهم، ثـم تتابعـت الآيـات تـشير إلى بعـض أخـلاق المنافقين وطبائعهم، من المكر والخديعة، وإظهار خلاف ما يبطنـون، تلبيـساً على المؤمنين، وإيضاعاً فـيهم، ومـن هنـا ناسـب الإشـارة إلى معيـة الله تعـالى لخلقه وعلمه التام بهم وقدرته عليهم، حتى لا يظـن أولئـك المنـافقون أنهـم غائبون عن الله، مستخفون عنه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

هذه الآية الكريمة دالة على معية الله تعالى لخلقه المعيـة العامـة، علـماً وقدرة، وإحاطة بهم سمعاً وبصراً، وكل أئمة التفسير حملوا المعنى على معية العلم والإحاطة، ولا يخرجها عن المعية العامة ما فيها مـن تخـصيص بعـض الخلق – الذين يختانون أنفسهم – بالمعية هنا؛ لأنها لا تدل على أكثر مما تـدل عليه المعية العامـة للخلـق جميعـاً، ولا يلـزم عليهـا أكثـر ممـا يلـزم عـلى المعيـة العامة.

ولهذا فقد خُتمت الآية الكريمة بما يقرر هذا المعنى ويدل عليه، مـن التأكيد على كمال علم الله تعالى، وإحاطته بهم، فقال عـز وجـل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: ذِكْـرُ معيـة الله تعـالى في هـذه الآيـة؛ مناسـب لمـضمون الآيـة

والسياق الذي وردت فيه، ذلك أن من أخص صفات أهل النفاق الاستتار بنفاقهم، والخديعة بإسلامهم، والخيانة في أفعالهم، وهذه كلها أمور تخفى على الناس، فناسب ذِكرُ معية الله تعالى، تنبيهاً على أنهم وإن خدعوا الناس بإيمانهم، وخانوا المؤمنين بأفعالهم، فلا يقدرون على خيانة الله تعالى، ولا التخفي منه؛ لأنه – عز وجل – عالم بهم، مطلع عليهم، محيط بهم.

ثانياً: خص الله تعالى المعية لهم – حال تبييت الخيانة – مع أنه معهم في كل حال؛ معاملة لهم بنقيض قصدهم؛ وتأكيداً على أنه معهم وهم في هذه الحال الشديدة الخفاء، البالغة حرصاً على الاستتار، فما كان دون ذلك من أحوالهم من باب أولى عقلاً، مع أنه عليه – سبحانه – سواء.

ثالثاً: هذه الآية الكريمة من أعظم ما يردع المؤمن عن التجرؤ على محارم الله وحدوده، إذا خلا بها، لعلمه باطلاع الله عليه، حتى وإن استخفى عن الناس، ولشعوره بمراقبة الله له وإن غاب عنه كل رقيب، فلا يكن الله تعالى أهون الناظرين إليه، وفي الحديث رواه سعيد بن يزيد أنه قال للنبي ﷺ أوصني، قال: (**أوصيك أن تستحي من الله – عز وجل – كما تستحي من الرجل الصالح**) (1).

ولهذا فلا طريق للاستخفاء منه عز وجل إلا بترك ما يكره، والبعد عما نهى عنه، قال الزمخشري: " كفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم عليه من قلة الحياء والخشية من ربهم، مع علمهم – إن كانوا مؤمنين – أنهم في

---

(1) أخرجه أحمد في الزهد ص٤٦، والبيهقي في الشعب[٦/ ١٤٦ باب الحياء] وصححه الألباني في السلسة الصحيحة برقم: ٧٤١ .

حضرته، لا سترة، ولا غفلة، ولا غيبة، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح"[١].

رابعاً: سعة رحمة الله وحلمه بخلقه حتى مع هؤلاء، فلم يعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم لها، بل عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها، قال السعدي:" ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة، وحذرهم من الإصرار على ذنبهم الموجب للعقوبة البليغة"[٢].

خامساً: في الآية الكريمة إشارة إلى أن المؤمن إذا استشعر كمال علم الله وإحاطته بخلقه، وقدرته عليهم؛ عظم رجاءه به، وتوكله عليه، حتى لا يخشى كيد الخائنين، ولا مكر المفسدين؛ لأنه يعلم أن الله مطلع عليهم، عالم بهم، وشاهد عليهم، لا يستخفون منه ولا يغيبون عنه.

الآية الثانية: في سورة الحديد: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد: ٤].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة تتناول عدداً من الموضوعات المتعلقة بتحقيق

(١) الكشاف(١/ ٢٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص: ٢٠٥.

الإيمان في النفوس، وتعميقه في القلوب[1]، وقد استفتحت السورة مبتدئة بتعظيم الله تعالى وتنزيهه، بذكر بعض صفات جلاله وجماله، وكمال قدرته، على نحو يعمق الإيمان في القلوب، ويرسخه في النفوس.

وفي هذا السياق وردت الآية الكريمة مشيرة إلى معية الله تعالى لخلقه، وإطلاعه عليهم أينما كانوا، على نحو يورث لمن استشعر هذه الحقيقة إيماناً عميقاً في القلب، وخشوع للجوارح، وخوفاً منه تعالى.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

هذه الآية الكريمة دالة على معية الله تعالى لخلقه المعية العامة، علماً وقدرة، وإِحَاطَةً بهم سمعاً وبصراً، وكل أئمة التفسير حملوا المعنى على معية العلم والإحاطة.

ومما يقوي تفسير المعية في الآية بالعلم والإحاطة، أن الآية جاءت في سياق بيان علم الله، وكمال قدرته – عز وجل – ولهذا فما سبق الآية من آيات وما جاء بعدها كلها تقرر هاتين الصفتين العظيمتين لله تعال، يقول عز وجل: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٦/ ٣٤٧٦).

ٱلْأُمُورُ . يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ١-٦] بل حتى الآية ذاتها ورد النص فيها على علم الله – تعالى – في موضعين، أحدهما سابق لذكر المعية، والآخر لاحق لها.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: ذكر الله – تعالى– معيته لخلقه هنا للدلالة على كمال القدرة والعلم، ولهذا فسياق الآيات قبلها وبعدها كله يتضمن التأكيد على هاتين الصفتين وآثارهما في الخلق.

ثانياً: الآية الكريمة دالة على ما ذهب إليه سلف هذه الأمة من القرون المفضلة، في إثبات الجمع بين صفة الاستواء على العرش والمعية، وأنه لا تعارض بينهما، خلافاً لمن أنكر صفة الاستواء استدلالاً بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ووجه دلالتها على ما مذهب السلف أن الله تعالى وصف نفسه بهما، وجمع بينهما في موضع واحد، فدل على أنه لا تعارض بينهما.

ثالثاً: الآية الكريمة تتضمن أعظم المعاني التي تورث في القلب تعظيم الخالق – جل وعلا – وخشوع القلب له، ففيها دلالة على كمال القدرة، من خلق السموات والأرض، والاستواء على العرش، إلى لفت النظر إلى كمال العلم، حتى لا يخفى عليه أي شي مما يلج في الأرض، ومما يخرج منها، وكل ما يصعد إلى السماء وما ينزل منها، فهذه الحركة الدائبة في الكون صعوداً ونزولاً، وولوجاً وخروجاً، كلها جميعاً بعلم الله تعالى ومراقبته، وإن قلب المؤمن ليخشع أمام هذه الحقيقة العظيمة كلما زاد تأمله

لها، ونظره فيها.

الآية الثالثة: في سورة المجادلة: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ٧].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة تدور موضوعاتها حول مظاهر العناية الربانية بالمؤمنين، وحفظه تعالى لهم، ورعايته إياهم[(١)]، وأول تلك العناية سماع الله تعالى لشكوى امرأة ضعيفة، وحكمه في شأنها وشأن زوجها، ومن مظاهر عنايته تعالى كشف أخلاق المنافقين وأحوالهم، بما تضمنته الآيات من تأكيد على كمال علم الله تعالى واطلاعه على خلقه، حتى في أدق أحوالهم وخفي أسرارهم.

وفي هذا السياق وردت الآية الكريمة متضمنة لفت الأنظار إلى كمال علم الله وقدرته، فلا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه، وفي هذا السياق تأتي الإشارة إلى معية الله تعالى لخلقه، أينما كانوا، لتدل هذه المعية الإلهية على كمال العلم والإحاطة بالخلق.

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٦/ ٣٥٠٣).

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

الآية دالة على معية الله تعالى لخلقه بمعناها العام، الذي يشير إلى العلم بهم، والقدرة عليهم، والإحاطة بهم.

والذين خالفوا في باب المعية من الجهمية ومن تابعهم، يستدلون بهذه الآية على قولهم: إن الله معنا في كل مكان، حيث قال عز جل: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ وقالوا: لا نفهم من المعية إلا أنه معهم بذاته.

وقد رد عليهم أئمة السلف من المفسرين وغيرهم بما سبق الإشارة إليه[1]، ويعنينا هنا ذكر ما أشار إليه بعض أئمة السلف، وتابعهم عليه عدد من المفسرين، من أن سياق الآية قرينة قوية على كون المراد بالمعية في الآية معية العلم والإحاطة؛ لأنه متعلق بتقرير علم الله تعالى بخلقه وإحاطته بهم، فأول الآية وآخرها كله يشير إلى علم الله تعالى، وأول من وجدته أشار إلى هذا المعنى أحمد بن حنبل، فقد قال أبو طالب: سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ قال: قد تجهم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها، هلا قرأت عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فالعلم معهم، وقال في سورة (ق) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فعلمه معهم"[2].

(١) عرضنا ذلك في المبحث الأول من الفصل السابق عند الكلام عن الشبه التي تمسك بها القائلون بذلك.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة(٣/ ١٥٩).

- **دلالات الآية وفوائدها:**

أولاً: ذُكر معية الله تعالى لخلقه، سيق في هذه الآية مساق تهديد ووعيد[1]، ووجه ذلك أن الآيات قبلها حديث عن الذين يُحادّون الله ورسوله، وأن الله مطلع عليهم، عالم بهم، يحصي أعمالهم، وسيجازيهم بها في الآخرة، ثم أخبر تعالى – في هذه الآية – عن علمه بخلقه، ومعيته لهم حتى لا يخفى عليه شيء من أمرهم، وإن كان نجوى، ثم بعد ذلك جاءت الآيات – أيضاً – فيها وعيد لمن يتناجى من المنافقين بما يضر بالمؤمنين، وكل هذا سياقه سياق تهديد ووعيد.

ثانياً: في الآية دلالة على سعة علم الله – تعالى – وإحاطته بجميع خلقه، إحاطةً تشمل السموات والأرض وما فيهما، حتى في أخص أحوال الإنسان حين يناجي أخص الناس به، لا فرق بين قلة وكثرة، لا فرق بين مكان ومكان، فكله عليه سواء.

ثالثاً: خص الله تعالى حالة التناجي بالمعية؛ لأنها أدل على كمال العلم والاطلاع، فإن من كان مطلعاً عليك في حال تناجيك مع خاصتك، لا يخفى عليه شيء من أمرك على ما أنت عليه من هذه الحال، فمن باب أولى أن لا يغيب عنه ما دون ذلك من حالك.

رابعاً: الآية دالة على كمال عدل الله تعالى، فإنه سبحانه مع علمه بعمل خلقه وإحصائه له إحصاء دقيقاً، فإنه – عز وجل – يطلعهم عليه يوم

(١) أشار إليه ابن عاشور في التحرير والتنوير(٢٨/ ٢٦).

القيامة، لتقوم عليهم الحجة، وينقطع عنهم كل عذر.

خامساً: في الآية الكريمة أعظم المعاني التي تورث في القلب تعظيم الرب - جل وعلا - وخشيته، لما يعلمه المرء من اطلاع الله عليه وشهوده له، في أخص أحواله وأشدها خفاء عن الناس؛ كحال المناجاة، ومتى استشعر القلب هذا المعنى عظم مقام ربه في قلبه، وأصلح سريرته.

المبحث الثاني:
آيات المعية الخاصة، معانيها ودلالاتها.

بعد النظر في آيات المعية الخاصة، وكلام المفسرين عليها، قسمتها إلى ثلاثة أقسام، معتبراً في ذلك مقتضى تلك المعية ولازمها، وجعلتها على أربعة مطالب:

المطلب الأول: معية النصرة والتأييد.

المطلب الثاني: معية الإعانة والهداية.

المطلب الثالث: معية الحفظ والحماية.

المطلب الرابع: آثار المعية الخاصة ووسائل تحقيقها.

المطلب الأول: معية النصر والتأييد.

في هذا المطلب نستعرض بالنظر والدراسة الآيات التي تدل على معنى معية النصر والتأييد، وضابط هذا النوع من المعية: أنها تتعلق بالقتال والبأس، فإذا ذُكرت معية الله تعالى في هذا السياق؛ فإن أول ما تُفسر به معنى: النصر والتأييد.

وقد بلغت الآيات المندرجة تحت هذا المعنى ثمان آيات كريمات، هي:

الآية الأولى: في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة تعرض لعدد كبير من الموضوعات، التي تتعلق ببناء الأمة المسلمة وإعدادها للخلافة في الأرض(١)، والقيام بدين الله تعالى.

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر قصة قتال بني إسرائيل مع قائدهم طالوت لجالوت وجنوده، وما تضمنته تلك القصة من المعاني

(١) ينظر: في ظلال القرآن(١/ ٢٨).

والـدروس التـي يحتاجهـا المؤمنـون في جهـادهم لأعـداء الله تعـالى؛ لأن الاستخلاف في الأرض له تبعات ولوازم، من أعظمها مدافعة أهل الباطل ومجاهدتهم، وتشير الآية الكريمة إلى أهمية الصبر في الجهاد في سبيل الله وأثره، ويكفي في ذلك أن أهله في معية الله تعالى، ومن كان الله معه فلا غالب له.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

حمل المفسرون معنى المعية في الآية الكريمة على معية النصر والتأييد، ونسبه الماوردي إلى عامة المفسرين(١)، وهذا المعنى قد دل عليه سياق الآية الكريمة، إذ هي واردة في أثناء الحديث عن قتال المؤمنين لأعداء الله تعالى، فكان أولى ما تُفسر به معية الله للصابرين بنصره وتأييده لهم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: أشار الرازي في تفسيره إلى أن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام المؤمنين، ويحتمل أن يكون قولاً من الله تعالى، واستظهر أن يكون من تمام كلام المؤمنين(٢)، ويقوي ما ذكره أنه الأصل، إذ لا قرينة تصرفه عن هذا، ثم أن مما جرت به العادة فيمن يريد تثبيت غيره وتصبيره أن يقول له: الله مع الصابرين، قال ابن عاشور:

---

(١) ينظر: النكت والعيون(١/ ١٨٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٦/ ١٥٧) وممن أشار إلى هذا الاحتمال: أبو حيان في البحر(٢/ ٢٧٧) وأبو السعود في إرشاد العقل السليم(١/ ٢٤٩) والألوسي في روح المعاني(٢/ ٢٥٩).

"فإنهم قصدوا بقولهم هذا تثبيت أنفسهم وأنفس رفقائهم، ولذلك دعوا إلى ما به النصر؛ وهو الصبر والتوكل، فقالوا: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾"[1].

ثانياً: نلحظ في هذه الآية – وفي كل آيات المعية الخاصة – أن الله تعالى ذكر أنه مع عباده، ولم يرد في موضع أن ذكر أن عباده معه، وقد وجه ذلك عدد من المفسرين، على أن المؤمنين هم المباشرون لتلك الأوصاف من الصبر ونحوه، قال في روح البيان: "وما يفهم من كلمة "مع" من أصالتهم، إنما هي من حيث إنهم المباشرون للصبر، فهم متبوعون من تلك الحيثية، ومعيته تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة[2].

ثالثاً: عُلِّقَت معية الله تعالى هنا بوصف خاص وهو الصبر، وهذا يدل على علو منزلة الصبر، ورِفْعَة أهله، وحقيقة الصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل[3]، وهو بهذا المعنى داخل في كل مجالات الحياة، فالمرء متقلب بين مِنْحَة ومِحْنَة، هو بحاجة إلى الصبر فيهما، فيصبر على النعم بشكرها، والعمل فيها بما يرضي واهبها المتفضل بها، ويصبر على البلاء بما يُلْهِم الاحتساب والرضا عن الله وقضائه، وفي الحديث الذي رواه صهيب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (**عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان**

(١) التحرير والتنوير(٢/ ٢٩٩).

(٢) روح البيان(٤/ ٤٣٨)، ونحو ذلك أشار إليه أبو السعود (الأنفال/ ٤٦) والألوسي(الأنفال/ ٤٦).

(٣) ينظر: معالم التنزيل(١/ ٨٩).

خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) [(١)].

رابعاً: ومما يدل - أيضاً - على منزلة الصبر ومقامه، أن أولياء الله تعالى الذين خرجوا جهاداً في سبيله، وقياماً بدينه - كحال المذكورين في هذه الآيات - لا ينالون نصره وتأييده إلا بعد صبرهم على بلاء الله تعالى لهم، وصبرهم على ما يلاقونه من عدوهم؛ لأن سنة الله تعالى جرت أن يبتلي عباده، ويمتحن أولياءه، يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣٢].

خامساً: الآية الكريمة فيها دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والصبر؛ لأن النصر لا يتعلق فقط بالعدد والعدة، إذا لم يكن لأهلها ثبات وصبر، وهذا ما أشار إليه الذين ثَبَتوا من المؤمنين بقولهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ قال أبو السعود تعليقاً على هذا:" إنما قالوه تتميماً لجوابهم، وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييليِّ، تشجيعاً لأصحابهم، وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة"[(٢)].

الآية الثانية: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:١٢].

---

(١) أخرجه مسلم[٤/ ١٨١٥ كتاب الزهد والرقائق].

(٢) إرشاد العقل السليم(١/ ٢٤٩).

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة تعرض لعدد من الموضوعات المتعلقة بالجهاد في سبيل الله تعالى، تحقيقاً لمفهومه، وبياناً لأهدافه ومقاصده، وتوضيحاً لأسباب النصر والهزيمة، وذِكْراً لعدد من الأحكام والتشريعات المتعلقة بالجهاد: كالغنائم والأسرى، وكانت غزوة بدر هي المنطلق الذي عُرضت من خلاله كثير من تلك الموضوعات، إذ كانت أول مواجهة حقيقية بين المؤمنين والمشركين.

وتأتي الآية الكريمة هنا في سياق حديث السورة عن غزوة بدر، وما وعد الله تعالى به المؤمنين من النصر على عدوهم وتثبيتهم عند لقائهم، وكان من أعظم التثبيت وحي الله تعالى للمؤمنين إنه معهم، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، ومما يدل على ذلك: أن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن غزوة بدر، ومَدَدِ الله تعالى للمؤمنين بالملائكة، تقوية لهم ونصْراً على عدوهم، وهذا معنىً يناسبه النصر والتأييد.

ومن المفسرين من جعل قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ تفسيراً لهذه المعية، وبياناً لها[1]، والحق أنه لا يخرج عن المعنى الذي قرره المفسرون للمعية؛ لأن هذا الرعب من النصر الذي يلزم

(١) أشار إليه في الكشاف(٢/ ١١٨).

من معية الله تعالى للمؤمنين.

والمفسرون وإن ذهبوا إلى أن المعية هنا معية النصر والتأييد؛ فقد اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ حيث يحتمل أحد أمرين: الأول: أن يكون المخاطب الملائكة، الثاني: أن يكون الخطاب للمؤمنين، وقد اختار الرازي الوجه الثاني، وعلله بقوله:" وهذا الثاني أولى؛ لأن المقصود من هذا الكلام إزالة التخويف، والملائكة ما كانوا يخافون الكفار، وإنما الخائف هم المسلمون"[١].

وهذا التعليل وإن كان فيه وجاهة، إلا أن فيه تفكيكاً للكلام، فسياق الكلام قبل ذكر المعية وبعدها متجه إلى الملائكة، يقوي هذا دخول الفاء في قوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ لا يحسن إلا على هذا الوجه، قال ابن عاشور:" فكان قوله لهم:﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ مقدمة للتكليف بعمل شريف ولذلك يُذكْر ما تتعلق به المعية؛ لأنه سيُعلم من بقية الكلام، أي أني معكم في عملكم الذي أكفلكم به، ومن هنا ظهر موقع فَاء الترتيب في قوله: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من حيث ما دل عليه ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ من التهيئة لتلقي التكليف بعمل عظيم"[٢].

على أن ما تدل عليه الآية من معنى المعية وتقتضيه؛ ثابت للمؤمنين حتى على القول الأول؛ لأن من لازم معية الله تعالى للملائكة أن يعينهم

---

(١) مفاتيح الغيب(١٥/ ١٠٨).

(٢) التحرير والتنوير(٩/ ٢٨١).

على تثبيت المؤمنين ونصرتهم، ولهذا قال الزمخشري في بيان معنى ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ "والمعنى: أني معينكم على التثبيت فثبتوهم"[1] ويشهد لهذا وعد الله تعالى بإلقاء الرعب، حيث قال تعالى بعد ذكر المعية: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ ولا نصر أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الأعداء.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: الآية دالة على أهمية الثبات في ساحات الوغى، ونزال الأعداء، فهو من أعظم أسباب النصر، ذلك أن المقاتل إنما يهزم أول ما يهزم في قلبه، فإذا ضعف القلب ضعفت القوى، وخارت العزائم، ولهذا أيّد الله تعالى المؤمنين بمعيته لهم، بما توجبه من نزول السكينة على قلوبهم، وثباتها عند لقاء عدوهم، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وفي مقابل ثبات المؤمنين يلقي الله الرعب في قلوب أعدائهم، الذي يقودهم إلى الفشل والهزيمة، يقول تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وهذا كله من آثار معيته تعالى للمؤمنين.

وفي الآية الكريمة ملحظ آخر دقيق حيث ذكر تعالى تثبيت الأقدام

---

(١) الكشاف(٢/ ١١٨).

وتثبيت القلوب، فقرن بين التثبيت الحسي للأقدام والتثبيت المعنوي للقلوب، ليكون تثبيتاً تاماً للمؤمنين[١].

ثانياً: الآية الكريمة دالة على فضل الله تعالى على عباده، وعنايته بجنده وأوليائه، إذ لم يقف الأمر على مددهم بالملائكة - وقد كان كافيهم - ولكن أيدهم بمعيته عز وجل تثبيتاً لأفئدتهم، وربطاً على قلوبهم، وهذه غاية الكرامة للمؤمنين، وحُقَّ ذلك لهم فهم خرجوا جهاداً في سبيله، وإعلاءً لكلمته، فكانوا أحق عباده بمعيته تعالى.

الآية الثالثة: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

تقدم في الآية السابقة التعريف بالسورة الكريمة، وهذه الآية كالآية السابقة لها، وردت في نفس السياق الذي وردت فيه، حيث الكلام عن غزوة بدر، وكيف نصر الله عباده وأولياءه، وفي هذه السياق ترد الآية الكريمة لتَرُدّ على المشركين لما استفتحوا الله، بأن سألوه أن يقضي بينهم وبين المؤمنين، وينصر أولى الطائفتين وأحقها، فتنزل الآيات لتقرر أن الحقيق بمعية الله تعالى بما توجبه من نصر وتأييد؛ هم المؤمنون به حقاً دون سواهم.

(١) أشار إلى هذا الاقتران الألوسي في روح المعاني(٦/ ٢٥٦).

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرون إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وظاهر الآية يشهد لهذا، فإن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن غزوة بدر، وذِكْر ما حصل من المشركين لما استفتحوا الله بأن سألوه أن يَقضِيَ بينهم وبين المؤمنين، ويَنصُرَ أولى الطائفتين، فنزلت الآية الكريمة لتقرر الحقيق بنصر الله تعالى، فبينت أن الله تعالى مع المؤمنين، ومن كان الله معه فلا غالب له.

ومما يدل على هذا المعنى قراءة فتح الهمز[1] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما تدل عليه من معنى التعليل، قال الزمخشري في ذلك: " قُرئ بالفتح على: ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك"[2].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: إن انتصار المؤمنين حقيقة لا يكون بمجرد كثرة العدد والعتاد، بل لأن الله تعالى معهم يؤيدهم وينصرهم، ولهذا أخبر تعالى أن عدد المشركين لن يغني عنهم شيئاً وإن كثُر، لا لشيء سوى أن الله مع عباده المؤمنين، يقول تعالى مخاطباً المشركين: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم من رواية حفص: بفتح الهمز، والباقي بكسرها على الاستئناف. ينظر: الداني ص١١٦ والكشف عن وجوه القراءات(١/ ٤٩١).
(٢) الكشاف(٢/ ١٢٠).

ثانياً: إن إدراك المجاهد في سبيل الله حقيقة أن الله تعالى - القوي القاهر العظيم القادر - معه ينصره ويؤيده؛ أعظم زاد يقوي روحه، ويربط على قلبه في ساحات الوغى، ومقارعة الأعداء، فلا يُرهبه شيء وإن عظم.

ثالثاً: في الآية الكريمة دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والإيمان الحَقِّ بالله تعالى، فإن الله لما أخبر أن كثرة المشركين لن تغني عنهم شيئاً، علل ذلك بأنه تعالى مع المؤمنين.

وبقدر ما يكون في المؤمنين من كمال إيمان بالله تعالى؛ تكون معيته لهم، بما يلزم عليها من التأييد والنصر، قال ابن سعدي: " وهذه المعية التي أخبر اللهّ أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان"(١).

وأمر آخر وثيق الصلة بهذا المعنى: أن أسباب النصر في المعركة لا تقف عند النواحي الماديّة من العدد والعتاد، بل إن النواحي المعنوية من أعظم أسباب النصر والهزيمة، وأول ما تكون هزيمة المقاتل في نفسه وقلبه، قبل أن يُغْلب في ساحة المعركة.

الآية الرابعة: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص: ٣٥٠.

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

هذه الآية كالآية السابقة لها وردت في نفس السياق الذي وردت فيه، حيث الكلام عن غزوة بدر، وكيف نصر الله عباده وأولياءه، وأمكنهم من عدوهم فغنموا منهم الغنائم، وفي هذا السياق ترد الآية الكريمة في ضمن آيات أُخَر تعقيباً على غزوة بدر، بعد نصر الله المؤزر لهم، لتبين للمؤمنين أسباب النصر والهزيمة، فذكرت منها طاعة الله ورسوله، وترك التنازع الذي يؤدي للفشل وذهاب القوة، ثم نبهت على أهمية الصبر في هذه المواطن، مشيرة إلى معية الله تعالى للصابرين، وكفى بذلك دافعاً على الصبر والمصابرة.

- **موقف المفسرين من معنى المعية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وظاهر الآية يشهد لهذا، فإن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن أسباب النصر على الأعداء، فذكر جملة من الأسباب، ومنها الصبر عند لقاء العدو، وأخبر تعالى أن الصابرين في هذه المواطن ينالون معيته، بما توجبه من نصر وتأييد، ولهذا قال الرازي: " ولا شبهة أن المراد بهذه المعية النصرة والمعونة"[1].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: علق – تعالى – معيته بوصف خاص وهو الصبر، وهذا يدل

---

(١) مفاتيح الغيب(١٥/ ١٣٠).

على علو منزلة الصبر، ورِفْعَة أهله، بل إن الله تعالى أمر به في جملة أسباب أمر بها المؤمنين، ثم خص أهله بأنهم الفائزون بمعيته تعالى، وكفى بهذا شرفاً للصبر وعلواً لمنزلة أهله.

ثانياً: الآية الكريمة فيها دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والصبر؛ لأن النصر لا يتعلق فقط بالعدد والعدة، إذا لم يكن لأهلها ثبات وصبر، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في سياق ذكر أسباب النصر والهزيمة، حيث أمر تعالى بالصبر في جملة ما أمر به، بل وأخبر تعالى أن الصابرين يفوزون بمعيته، ومن فاز بها كيف يهزم !

ثالثاً: قرن الله – تعالى – الصبر بعدد من أسباب النصر على الأعداء، حيث ذكر تعالى جملة من الأسباب، ثم ختمها بالأمر بالصبر، وهذا يشير إلى العلاقة الوثيقة بين هذه الأسباب وبين خُلُق الصبر، فإن من تأمل هذه الأسباب علم أن شيئاً منها لا يدرك بغير الصبر، ولهذا كان من المناسب الأمرُ به في ختام الآية الكريمة، يؤكد هذا أن الله تعالى عَلّقَ معيته بوصف الصبر، دون غيره من الأوصاف المذكورة في الآية الكريمة، وما ذاك إلا أنها لا تنفك عنه ولا تكون بغيره، قال ابن القيم: " فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نُصرت وإن قلَّت وكثر عدوها: أحدها: الثبات، الثاني: كثرة ذكره سبحانه وتعالى، الثالث: طاعته وطاعة رسوله، الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن... الخامس مِلاك ذلك كله وقِوامه وأساسه: وهو الصبر، فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قُبّةُ النصر، ومتى زالت أو بعضها؛ زال من النصر

بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً، وصار لها أثر عظيم في النصر..."(١).

الآية الخامسة: في سورة الأنفال، عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٦].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

هذه الآية كالآيات السابقة لها من السورة، وردت في نفس السياق الذي وردت فيه، حيث موضوع الجهاد بمفهومه وأحكامه محور السورة الكريمة، وقد تضمنت الآيات الكريمة أمر المؤمنين بالثبات والصبر عند لقاء عدوهم، وألا يَفِروا حتى لو قابل الواحد من المؤمنين عشرة من الكافرين، ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتخفف عن المؤمنين، وتوجب عليهم ثبات الواحد مقابل اثنين من الكفار، لافتةً النظر إلى أثر الصبر في هذه المواطن، ويكفي في ذلك أن أهله يفوزون بمعية الله تعالى.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرون إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وظاهر الآية يشهد لهذا، فإن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة في سياق الكلام عن أمر المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو، حتى لو كانوا ضعف عددهم، ووعدهم بالنصر عليهم إن هم صبروا على ذلك، ثم

(١) الفروسية، ص:٥٠٥.

ختم الآية بخبره أنه مع الصابرين، والمعنى المناسب للمعية هنا هو النصر والتأييد الذي تكون معه الغلبة.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

فمع ما تقدم الإشارة إليه في الآية السابقة من الفوائد والدلالات المتعلقة بالصبر من حيث علاقته بالنصر، ودلالة قرْن المعية به؛ فإن مما تدل عليه هذه الآية – أيضاً – ما يأتي:

أولاً: في الآية دلالة على أن نصر المؤمنين ليس مرتبطاً بالعدد مطلقاً، بل هو في الحقيقة مرتبط بمعونة الله وتأييد لعباده، ولهذا أمر تعالى المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو وإن كانوا ضعف عددهم، بل كان أول الأمر الثبات حتى لو كان الواحد منهم يقابل عشرة من الكفار، ليدل على أن ميزان القوى لا يقتصر على الناحية المادية – وإن كان مأموراً بها – بل يتعدى ذلك إلى المدد الإلهي، والمعية الربانية لجنده حتى ينصروا على عدوهم.

ثانياً: الآية فيها دلالة بيِّنة على منزلة الصبر ومقامه من الدين، فهاهم الصحابة – وفيهم رسول الله ﷺ – يقاتلون عدو الله، جهاداً في سبيله ورفعاً لرايته، ومع هذا لا ينالون النصر إلا بالصبر، صبرهم على بلاء الله تعالى لهم، وصبرهم على الألم والأذى الذي يلاقونه من عدوهم؛ لأن سنة الله تعالى جرت أن يبتلي عباده، ويمتحن أولياءه.

الآية السادسة: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ**

مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة تعرض لكثير من الموضوعات التي تتعلق بقضيتين رئيستين، الأولى: المشركين والبراءة منهم، والثانية: النفاق وصفات المنافقين، والكشف عن مخططاتهم وكيدهم للإسلام والمسلمين، وقد أستغرق الكلام عن موضوع النفاق أكثر السورة الكريمة.

وسياق الآية الكريمة يأتي في ثنايا الكلام عن المشركين وضلالهم، حيث تضمنت الآية الكريمة إشارة إلى شهور العام، وكيف أن الله تعالى جعلها على صفة معينة منذ خلق الكون، وما خصه منها بالتحريم والتعظيم، لتكون هذه الآية تمهيداً ومقدمةً للكلام عن نسيء الجاهلية، وما تضمنه من تلاعب بالأشهر الحرم، وتحايلاً على دين الله وزيادة في كفرهم، ولهذا تضمنت الآية الإخبار عن معية الله تعالى للمتقين الذين يعظمون دينه ويقفون عند حدوده.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد للمتقين، ومما يدل على ذلك أن الله تعالى ذكر هذه المعية الخاصة بالمتقين بعد أمر المؤمنين بقتال المشركين كافة، والمؤمنون محتاجون لنصر الله وعونه على عدوهم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: علق تعالى معيته بوصف خاص وهو التقوى، وهذا يدل على علو منزلة التقوى، ورفعة أهلها، وللسلف - رحمهم الله - آثار متعددة في بيان حقيقتها، منها قول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفَر[١].

ومنها قول طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله[٢].

والتقوى بهذه الأوصاف التي وردت عن السلف، تدل على مرتبة عالية من مراقبة الله تعالى، ودوام استحضار اطلاعه على خلقه، مما يحمل المرء على امتثال أمر الله تعالى، وتعظيم نهيه.

والمتقون - على هذا - حقيقون بمعية الله تعالى لهم، هذه المعية التي تحيط بهم وترعاهم حيث كانوا وأنى توجهوا، فإن كانوا في الجهاد كانت سبباً لنصرهم على عدوهم، وإن كانوا في مجاهدة للنفس على القيام بأمر الله والبعد عما حرم، كانت سبباً لإعانتهم عليه، وتوفيقهم إليه.

ثانياً: في الآية الكريمة دلالة على العلاقة الوثيقة بين النصر والتقوى، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين بقتال المشركين أخبر أنه مع المتقين، وإظهار التقوى هنا له دلالة خاصة، إذ لم يقل: والله معكم، وإنما علق المعية

---

(١) جامع البيان(٣/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير(٢/ ١٨٩).

– بما تقتضيه – بالتقوى، قال أبو السعود:" أي معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرونه من القتال، وإنما وُضع المُظهرُ موضعَه مدحاً لهم بالتقوى، وحثاً للقاصرين عليه، وإيذاناً بأنه المدارُ في النصر"[1] وهذا يشير إلى أن تقوى الله تعالى بما تدل عليه من تعظيم أمر الله تعالى ونهيه، من أسباب النصر على العدو؛ لأنها توجب معية الله، ومن كان الله معه فلا غالب له من الناس.

رابعاً: أشار السعدي إلى معنى من معاني ذكر التقوى في سياق الأمر بقتال المشركين، قال: " فلتحرصوا على استعمال تقوى اللهّ في سركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين"[2].

الآية السابعة: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

قد أشرنا في الآية السابقة إلى أن السورة الكريمة تعرض لكثير من الموضوعات، التي تتعلق بقضيتين رئيستين، الأولى: عن المشركين والبراءة منهم وشركهم، ومن عهودهم مع المؤمنين، والثانية: عن النفاق وصفات المنافقين.

---

(١) إرشاد العقل السليم(٤/ ٦٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص:٣٧٣.

وسياق الآية الكريمة - هنا- يأتي في ثنايا آيات كثيرة تتكلم عن الجهاد في سبيل الله والحث عليه، والدعوة إليه، والحديث عن الجهاد وثيق الصلة بموضوع النفاق الذي أخذ قدراً كبيراً من السورة، إذ هو من أعظم ما يكشف عن المنافقين ويفضحهم؛ لأن الذي يحمل المنافق على النفاق وترك إعلان كفره؛ استبقاء نفسه وماله، فإذا دُعي للجهاد بالنفس أو المال، كان ذلك خلاف ما لأجله نافق، ولهذا لما أمر الله تعالى المؤمنين بالجهاد؛ لفت نظرهم إلى أثر تقوى الله تعالى، حيث ينال بها المجاهدون معيته، ومن كان الله معه فلا غالب له.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن معنى المعية في هذه الآية الكريمة؛ هي معية النصر والتأييد، وقد ذكر البيضاوي معنى آخر فقال: "مع المتقين بالحراسة والإعانة"[(١)].

وهذا المعنى من لازم النصر والتأييد، وسياق الآيات في الحديث عن الجهاد، والآية الكريمة تتضمن أمر المؤمنين بقتال الأقرب إليهم من الكفار والشدة عليهم، ثم تَخْتم الآية هذا الأمر بتذكير المؤمنين أن الله تعالى مع المتقين، ينصرهم ويؤيدهم على عدوهم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: إن ذكر التقوى في هذا المقام فيه إشارة إلى السبب الحقيق

(١) أنوار التنزيل(٢/ ٤٩٥).

الذي يُنصر به المؤمنون على عدوهم، وهو مدى ما يقوم بهم من تعظيم حدود الله أمراً ونهياً، فكلما عظم مقام الله في قلب المؤمن كان أتقى له، وأَبْلَغ تعظيماً لحدوده، وكان لهذا حقيقاً بنصر الله وتأييده، جاء في وصية عمر بن عبد العزيز لأحد عماله:" عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم.." (١).

ثانياً: أشار عدد من المفسرين إلى أن ذكر التقوى هنا، يشير إلى الباعث الذي يجب أن يحمل المؤمن على الجهاد وهو تقوى الله، قال أبو حيان" ثم قال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لينبه على أن يكون الحامل على القتال ووجود الغلظة إنما هو تقوى الله تعالى، ومن اتقى الله كان الله معه بالنصر والتأييد، ولا يقصد بقتاله الغنيمة، ولا الفخر، ولا إظهار البسالة"(٢).

ثالثاً: قال ابن عاشور: " وفي توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي؛ إيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك، وأن أجله

---

(١) حلية الأولياء(٥/ ٣٠٣).

(٢) البحر المحيط(٥/ ١١٨) وأشار إلى هذا المعنى في مفاتيح الغيب(١٦/ ١٨٣)، ونظم الدرر(٩/ ٥٠).

الشريف قد اقترب، ولعل في قوله: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام، وأن الله معهم، كقوله في الآية الأخرى ﴿ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾"(١).

الآية الثامنة: في سورة محمد، عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ [محمد:٣٥].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

وموضوع السورة يَلُوح من اسمها(٢) حيث تسمى سورة القتال(٣) فهي سورة تتحدث عن قتال أعداء الله من الكافرين، جهاداً في سبيله وإعلاءً لكلمته، وفي السورة بيان لكثير من الأحكام المتعلقة بالقتال في سبيل الله، وخصائصه وأحواله.

وقد جاءت هذه الآية ضمن سياق آيات تتحدث عن قتال أعداء الله من المشركين، والنهي عن الوَهَن المفضي إلى موادعتهم، وعللت الآية سبب النهي بمعية الله تعالى لأوليائه المؤمنين، ومن كان الله معه فهو المنصور على كل أحد لا محالة، فكيف يُعطي الدنية في دينه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب أكثر المفسرين إلى تفسير المعية الواردة في الآية الكريمة

---

(١) التحرير والتنوير(١١/ ٦٣).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن(٣٢٨٧).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(١٩/ ٢٣٩) والبرهان في علوم القرآن(١/ ٢٨١).

بمعنيين من معاني المعية الخاصة وهما النصر والعون، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم.

وَقَلَّ منهم من فسرها بغير ذلك، كما فعل ابن عاشور حيث قال: والمعية معية الرعاية والكلاءة، أي: والله حافظكم وراعيكم، فلا يجعل للكافرين عليكم سبيلاً"[1].

وأغرب المعاني التي وقفت عليها عند المفسرين في معنى المعية هنا ما ذكره الرازي حيث قال: " وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ هداية وإرشاد يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه، وذلك لأنه تعالى لما قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ كان ذلك سبب الافتخار، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله"[2].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: هذه الآية من أعظم الآيات التي تحمل المجاهد في سبيل الله تعالى على الصبر عند قتال العدو، وتحمل القَرْح الذين يناله، فلا يضعف ولا يعطي الدَنِيَة للعدو؛ لأن المرء إنما يفعل ذلك لما يظنه من غلبة عدوه عليه، ومثل هذا لا يليق بالمؤمن، فإنه يعلم أن الله معه ينصره ويؤيده، قال الألوسي: " وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ أي ناصركم، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم

(١) التحرير والتنوير(٢٦/ ١٣٢).

(٢) مفاتيح الغيب(٢٨/ ٦٢).

الذل والضراعة"[١].

ثانياً: الآية فيها دلالة على علو المؤمنين على الكافرين، وهذا العلو عام يشمل علوهم بالقوة والغلبة، وعلوهم بالحق الذي نزل عليهم، فدينهم هو الحق الظاهر على كل الأديان.

ولما كان هذا العلو – بهذا المعنى – لا يتخلف أبداً، جاء التعبير في الآية بصيغة الجملة الاسمية بما تدل عليه من الدوام والثبات، قال ابن عاشور: " وصيغ كل من جملتي: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ جملة اسمية للدلالة على ثبات الغلب لهم، وثبات عناية الله بهم"[٢].

(١) روح المعاني(١٤/ ١٢١).

(٢) التحرير والتنوير(٢٦/ ١٣٢).

المطلب الثاني: معية الإعانة والهداية.

في هذا المطلب نستعرض بالنظر والدراسة الآيات التي تدل على معنى الهداية والإعانة، وضابط هذا النوع من المعية: أنها تتعلق بكل أمر يحتاج إلى هداية إليه وإعانة عليه، فإذا ذُكرت معية الله تعالى في هذا السياق؛ فإن أول ما تُفسر به معنى: الإعانة والهداية.

وقد بلغت الآيات المندرجة تحت هذا المعنى خمس آيات كريمات، هي:

الآية الأولى: في سورة البقرة عند قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

قد تقدم في المطلب السابق التعريف بالسورة بإجمال، والآية الكريمة هنا وردت في ثنايا حادثة تحويل القبلة من استقبال بيت المقدس، إلى الكعبة المشرفة، وما حصل من اضطراب بسبب ذلك، واستغلال أهل الكتاب من اليهود خصوصاً لهذه الحادثة، للطعن في الدين وتشويه الحق الذي جاء به، فلما ذكر الله تعالى حكمة ذلك ورد على أهل الكتاب زعمهم، توجه للخطاب للمؤمنين مبتدئاً بنداء الإيمان آمراً لهم بأن يستعينون على أمورهم وما يعرض لهم – وهم يقومون بمهمة الخلافة في الأرض وعمارتها – من أذى أعدائهم كالذي حصل من اليهود والمشركين في شأن تحويل القبلة، أن يستعينون على ذلك بأمرين عظيمين: الصبر والصلاة، ثم بين أن

الله تعالى مع الصابرين يعينهم ويهديهم.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

أشار عدد من المفسرين إلى أن معنى المعية في الآية هي معية الإعانة والتوفيق، وممن أشار إليه: ابن عطية، وابن جزي، وأبو حيان، وابن سعدي(١)، وبعض المفسرين ذكر مع الإعانة النصر: كالبغوي، والثعلبي، والألوسي(٢).

والآية وإن احتملت معان أخرى غير الإعانة والهداية، فإن هذا المعنى أنسبها وأقربها لسياق الآية الكريمة، ذلك أنها جاءت بعد أمر تحويل القبلة، وما حصل من اليهود والمشركين بسبب ذلك، فأمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة في شؤونهم كلها - ومنها أمر تحويل القبلة - بالصبر والصلاة، وأخبر أنه مع الصابرين، والمعنى المناسب لهذه الحال هو الإعانة والهداية، حيث يهديهم إلى القيام بما أمرهم به ويعينهم عليه، ويمنع عنهم أذى الأعداء.

ومما يقوي هذا؛ أن الله أمر بالاستعانة بالصبر والصلاة في أول الآية، وعلل هذه الأمر بمعيته للصابرين، مما يقضي أن يكون لازم هذه المعية الإعانة والهداية.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز(١/ ١٦٥) والبحر المحيط (١/ ٦٢١) والتسهيل(١/ ٢٣٢) تيسير الكريم المنان ص٧١.

(٢) ينظر: معالم التنزيل(١/ ٢٠٩) والكشف والبيان(١/ ٢٩٨) روح البيان(١/ ٦٢١).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: علق تعالى معيته بوصف خاص وهو الصبر، وهذا يدل على علو منزلة الصبر، ورفعة أهله، ونصوص الكتاب والسنة الدالة على فضل الصبر ومنزلة أهله كثيرة، يكفي في ذلك أن الله تعالى قرنه بأعلى مراتب الدين، وأجل مقاماته، حيث قرنه تعالى بالصلاة، كهذه الآية، وقرنه بالتقوى فقال ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقرنه باليقين فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤] وقرنه تعالى بهذه المراتب العالية ليدل على فضله، وليشير – أيضاً – إلى أن تلك المنازل العالية لا تنال بغير الصبر الجميل، وهذا ما يجعل أهل الصبر بأعلى المنازل عند الله تعالى، ليستحقوا بها معيته تعالى لهم بما تتضمنه من توفيق وإعانة.

ثانياً: من آثار معية الله تعالى للصابرين، ما يورثه ذلك من ثباتهم عند حلول المصائب، ونزول المكاره، فيسهل عليهم كل عظيم، يقول السعدي في هذا:" وأخبر أنه ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً، وصفة وملكة، بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة"(١)، وقال الشوكاني:" وإن هذه المعية التي أوضحها الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧١.

ﭐلصَّٰبِرِينَ ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه، إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب، فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال"[١].

ثالثاً: أشار الطبري إلى معنى دقيق مهم لما دلت عليه الآية من معية الله تعالى للصابرين، حيث لفت النظر إلى أن من لازم هذه المعية؛ رضا الله تعالى عن صفة الصبر التي تعلقت معية الله تعالى بها، قال رحمه الله:" وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فإن تأويله: فإن الله ناصره وظهيرهُ وراضٍ بفعله، كقول القائل: افعل يا فلان كذا وأنا معك"[٢].

رابعاً: دلت الآية الكريمة دلالة ظاهرة على عظم منزلة الصبر، ومكانة أهله، فقد استفتحت الآية بنداء الإيمان، وما يشير إليه من أن ما تضمنته الآية هو من لوازم الإيمان ومقتضياته، ثم أمر تعالى بالاستعانة بالصبر أمراً مطلقاً، ليدل على أن المؤمن يستصحبه في كل شؤونه، ثم قرنه بأعظم شعائر الدين وهي الصلاة، ثم ختمت الآية بالإشارة إلى معية الله تعالى للصابرين، تلك المعية التي من لازمها التوفيق والإعانة، ولهذا قال ابن سعدي:" فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله؛ لكفى بها فضلاً وشرفاً"[٣].

خامساً: ذكر الله تعالى معيته للصابرين مطلقاً دون قيد لوصف

---

(١) فتح القدير(١/ ١٥٨).

(٢) جامع البيان(٢/ ٤١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص: ٧١.

الصبر المقتضي لهذه المعية؛ ليدل على أن المعية هنا مطلقةً لكل الصابرين، في أي شيء كان صبرهم، سواء كان صبراً على تكاليف الشريعة أمراً ونهياً، أو كان صبراً على أقدار الله وقضائه، وهذا المعنى تؤكده الآية ذاتها؛ إذ أمر الله تعالى في أولها بالصبر مطلقاً دون قيد، مما يدل على أنه يشمل كل ما يقتضي الصبر.

سادساً: تكلم بعض المفسرين عن وجه ذكر معية الله للصابرين وعدم ذكرها مع المصلين، وملخص كلامهم يدور على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنه إذا كان مع الصابرين، فهو مع المصلين من باب أولى، قال الألوسي:" ولم يقل مع المصلين؛ لأنه إذا كان مع الصابرين كان مع المصلين من باب أولى؛ لاشتمال الصلاة على الصبر"(١).

الوجه الثاني: أن الصلاة لما كانت أعلى المطالب وقرة العين؛ لم يحتج الأمر بها إلى تعليل، بخلاف الصبر، قال أبو السعود:" ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليل للأمر بالاستعانة بالصبر خاصة، لما أنه المحتاجُ إلى التعليل، وأما الصلاةُ فحيث كانت عند المؤمنين أجلَّ المطالب كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام: (**وجُعلت قُرةُ عيني في الصلاة**) لم يفتقر الأمرُ بالاستعانة بها إلى التعليل"(٢).

الوجه الثالث: أن ذلك على سبيل الحذف بقصد الإيجاز ليدل

(١) روح المعاني(٢/ ٢٩) وفي معناه ما أشار إليه البقاعي في نظم الدرر(٢/ ٢٤٧).
(٢) إرشاد العقل السليم(١/ ١٧٩).

المذكور على المحذوف، قال أطفيش:" ويجوز أن يكون تعليلاً للاستعانة بهما على الحذف، أي أن الله مع الصابرين والمصلين..."[(١)].

الآية الثانية: في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

قد تقدم في المطلب السابق التعريف بالسورة بإجمال، وأود الإشارة - هنا - إلى أن هذه الآية الكريمة جاءت في سياق عدد من الآيات المتعلقة بالمشركين، وبيان كيف يكون موقف المؤمنين منهم، وذلك جار على نسق تهيئة المؤمنين لعمارة الأرض والخلافة فيها، وقد بدأت هذه الآيات بذكر الجهاد في سبيل الله تعالى، وقتال المشركين المعتدين، فقررت حق المسلمين في الدفاع، ورد الاعتداء بمثله، والجزاء على السيئة، ولما أباح تعالى ذلك، أمر المؤمنين بتقواه حتى لا يتجاوزوا في الجزاء على السيئة بأكبر منها، وذَكَّرهم بمعية الله تعالى للمتقين بما تشير إليه من توفيقهم لفعل ما أمرهم به، وإعانتهم على ترك ما نهاهم عنه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى أن المراد بالمعية الإلهية هنا هي معية النصر والتأييد، وذلك لأن الآية وردت في سياق مشروعية القتال، ومجازات

(١) تيسير التفسير(١/ ٢٥٤).

المشركين على اعتدائهم، وهذه المعاني يناسبها تفسير المعية بالنصر والتأييد.

ويُحْتمل أن يكون المراد معية التوفيق والإعانة؛ وذلك لأن الآية وردت في الجزاء على اعتداء المشركين، حيث بين تعالى لعباده المؤمنين، أن حرمة الشهر الحرام لا تمنع من رد اعتداء المشركين، ومجازاتهم على بغيهم؛ إن اعتدوا في الشهر الحرام، فمن اعتدى علينا جاز لنا رد اعتدائه وإن كان في شهر حرام.

غير أن الله تعالى هو يأذن للمؤمنين في مجازات المشركين على اعتدائهم – وإن كان في شهر حرام – لم يُرخص لهم في أكثر من رد البغي والمجازات على الاعتداء، ولهذا ناسب أن يُذكروا بتقوى الله تعالى التي تحجز المؤمن عن مجاوزة حدوده تعالى؛ لأن المرء قد يزيد في استيفاء حقه، ومجازات المعتدي، عن القدر الذي أَذِنَ الله فيه، طلباً لشفاء النفس، وذهاب غيظها.

ومن تدبر الآية الكريمة عَلِمَ أنها لم تَرِد – ابتداءً – في قتال الكفار الذي يناسب معه ذكر معية النصر والتأييد، وإنما وردت في بيان جواز رد اعتدائهم حتى لو كان في شهر حرام، وهو ما يناسب الأمر بالتقوى، التي تمنع المرء من تجاوز القدر الذي أذن له فيه الشرع، ثم لما أمر تعالى بتقواه ناسب أن يختم الآية بالإعلام بأنه تعالى مع عباده المتقين، يعينهم على لزوم التقوى وعدم مجاوزة ما حد لهم، ويهديهم إليه.

ولا يشكل على هذا ما أشرنا إليه من أن عامة المفسرين ذهبوا إلى أن المراد بالمعية هنا معية النصر والتأييد؛ لأنه قد سبق الإشارة – في الفصل

الأول - إلى تسامح المفسرين في التعبير عن معاني المعية الإلهية الخاصة؛ لقرب دلالات تلك المعاني فيما بينها.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: تضمن خبر الله تعالى عن معيته للمتقين؛ حَمْلَ المتقين على أمرين: أولهما: ترك الاعتداء أصلاً في الشهر الحرام، وثانيهما: المماثلة عند الجزاء على الاعتداء، ومنع المجاوزة، قال أبو السعود: "﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في شأن الانتصار، واحذروا أن تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم"(١).

ثانياً: هذه الآية الكريمة أصل في رد الظلم والجزاء على السيئة، ذلك أن الله تعالى قد أذن للمؤمنين في رد ظلم المشركين، ومجازاتهم على اعتدائهم، حتى وإن كان ذلك في شهر حرام، بل وأكد هذا بإعلامهم أنه معهم معية خاصة بهم، وهذا أظهر دليل على هذا الأصل؛ لأن الله تعالى لا يكون معهم إلا وقد رضي عن فعلهم وأعانهم عليه.

ثالثاً: وهذه الآية الكريمة تدل أيضاً - بناء على ما تقدم - أن تقوى الله التي توجب معيته تعالى، لا تمنع المتقي من رد الظلم إن وقع عليه، ولا من مجازات المعتدي بمثل اعتدائه؛ لأن هذا من العدل الذي دل عليه الشرع، ويقتضيه العقل - ولا سيما - إن وقع هذا الاعتداء من المشركين أعداء الله، فإن تقوى الله حقيقة تكون في رد اعتدائهم، حتى لا يُظن بالمسلمين ضعف يُغري بهم عدوهم.

---

(١) إرشاد العقل السليم (١/ ٢٠٥)

الآية الثالثة: في سورة المائدة، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:١٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها**

السورة تعرض لعدد كبير من الموضوعات التي تتعلق بالتشريعات التفصيلية لكثير من الأحكام العملية المتعلقة بالمجتمع المسلم وتنظيم شؤونه، وخصوصاً تنظيم علاقته مع غيره من أهل الكتاب والمشركين، مع تقرير القاعدة الأساس لتلك التشريعات والنظم وهي: أن حق التشريع والحكم لله تعالى وحده دون سواه[(١)].

وسياق الآية الكريمة ورد في ثنايا ذكر خبر الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل، وأمرهم بالوفاء به إيماناً برسله ونصرة لهم وبذلاً في سبيله، فما كان منهم إلا نقض ميثاق الله، وتغيير ما أنزل، وتحريف الكلم عن مواضعه.

ويأتي ذكر ميثاق الله تعالى هذا، بعد ذكر الميثاق الذي أخذه الله تعالى على المؤمنين من هذه الأمة بالالتزام بدينه، والعمل بشريعته، ليحذرهم من

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن(٧/ ٢٤٣) والتحرير والتنوير(٦/ ٧٢).

أن يكون مثل أولئك القوم.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

هذه الآية الكريمة مشكلة في تعيين نوع المعية فيها، وبيان معناها، ولهذا فلا بد من تحرير المعنى فيها، وذلك بدراسة مسألتين:

الأولى: تعيين نوع المعية فيها أهي خاصة أم عامة.

الثانية: بيان معنى المعية.

المسألة الأولى: تعيين نوع المعية في الآية.

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية من ضمن آيات المعية الخاصة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعية فيها عامة، وأَولُ من وجدته ذكر ذلك الرازي وتبعه ابن عادل، قال:" والمعنى: إني معكم بالعلم والقدرة، فأسمع كلامكم، وأرى أفعالكم، وأعلم ضمائركم، وأقدر على إيصال الجزاء إليكم"(١) ورجحه الألوسي بعد أن حكى الخلاف فيها، وعلل ذلك: بأن التعميم أولى(٢).

ويقوي هذا أن الله أخبر بنقضهم للميثاق، ومن كان الله معه لم ينقض ميثاقاً، ولم يخلف عهداً(٣).

وقد يجاب عن هذا بأن يقال: إن الآية في النقباء وهم قد حفظوا

---

(١) مفاتيح الغيب(١١/ ١٤٦).

(٢) ينظر: روح المعاني(٤/ ١٢٩).

(٣) وهذا المعنى أشار إليه مكي بن أبي طالب وهو يرجح أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ للنقباء وليس لبني إسرائيل، ويأتي قريباً ذكره بنصه.

الميثاق، وإنما الذي نقضه بنوا إسرائيل.

وهذا الجواب يقودونا إلى الإشارة إلى الخلاف في تعيين المخاطب بقوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنه خطاب عام لبني إسرائيل، ورجحه ابن جرير حيث قال بعد ذكر قول الربيع بن أنس: أنها خاصة بالنقباء: "وليس الذي قاله الربيع في ذلك ببعيد من الصواب؛ غيرَ أن من قضاءِ الله في جميع خلقه، أنه ناصرٌ من أطاعه، ووليّ من اتّبع أمره، وتجنّب معصيتَه، وتحامَى ذنوبه، فإذا كان ذلك كذلك، وكان من طاعته إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وسائر ما ندب القوم إليه؛ كان معلوماً أن تكفير السيئات بذلك وإدخال الجنات به، لم يخصص به النقباء دون سائر بني إسرائيل غيرهم"(١).

وذهب قوم إلى أنه خاص بالنقباء، وقد سلك مكي بن أبي طالب قولاً انفرد به في توجيه الآية الكريمة، وجعل المعية فيها خاصة بالنقباء، قال: "قوله:﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ﴾ إلى قوله: ﴿مَعَكُمْ ﴾ اعتراض بين الميثاق وتفسيره، غير داخل في الميثاق الذي نقضه بنو إسرائيل دون النقباء؛ لأن الله تعالى قال للنقباء: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ ومن كان الله معه لم ينقض ميثاقه"، فجعل قوله تعالى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ جملة معترضة في سياق الكلام، لتكون المعية خاصة بالنقباء غير داخله في معنى الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل.

(١) جامع البيان(٤/ ٤٩٢).

وهـذا المعنـى - الـذي أشـار إليـه مكـي بـن أبي طالـب - وإن كـان حسناً؛ فإن تخصيص الآيـة بالنقبـاء خـلاف ظاهرهـا، ويأبـاه السـياق الـذي وردت فيه، إذ هو دال على أنها في بني إسرائيل، ولا قرينة تصرفه عن ذلك.

هـذا مختـصر القـول في تحريـر معنـى المعيـة في الآيـة الكريمـة، وقـد جعلت الآية الكريمة من ضمن آيات المعية الخاصة مع مـا أشرت إليـه مـن خلاف موافقة لقول عامة المفسرين، ومتابعة لهم، والله أعلم.

المسألة الثانية: بيان معنى المعية.

وبناء على ما تقدم من كون الآية في المعية الخاصة فإن عامة المفسرين - وإن ذهبـوا إلى أن المعيـة فيهـا خاصـة - قـد اختلفـوا في المـراد بهـا، فجمهورهم على أن المراد بها معية النصر والإعانة، وممن قال به: الزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير.

كما ذهب عدد آخـر مـن المفسرين إلى أن معناهـا النـصرة، ولم يـذكر معه معنى غيره، وممـن ذكـر ذلـك: الطـبري، والبغـوي، والبيـضاوي، وأبـو السعود.

وتعيين معنى المعية هنا عائد إلى تعيين المراد بالميثاق الذي أخذه الله، وشرطه عليهم، وهو ما اختلف فيه المفسرون على قولين(١):

الأول: أن الميثـاق يتعلـق بـالإيمان بـالله وحـده، وتـصديق رسـوله،

(١) ينظـر: جـامع البيـان(٤/ ٤٩١) والمحـرر الـوجيز(٣/ ١٢٥) وزاد المـسير ص٣٦٥، والجامع لأحكام القرآن(٧/ ٢٦٧).

والعمل بالتوراة، وأقرب ما تفسر عليه المعية على هذا؛ الإعانة والهداية، إذ لا تعلق للنصرة هنا بمضمون الميثاق.

الثاني: أن الميثاق يتعلق بقتال الجبارين ودخول الأرض المقدسة بالشام، وأقرب ما تفسر عليه المعية على هذا، النصر والتأييد.

والذي يظهر أن أقرب القولين إلى الآية الكريمة القول الأول، وذلك لثلاثة أمور:

أولها: أنه عام يدخل فيه معنى القول الثاني؛ لأن من الطاعات امتثال أمره بالقتال.

ثانيها: أنه لا دليل في ظاهر الآية ولا سياقها يشير إلى القول الثاني، إلا الروايات والآثار التي تُعيِّن هذا المعنى، مع ما تضمنته تلك الروايات من مبالغات في صفة خلق الجبارين، وصفة زرع أرضهم وثمارها؛ تردها السنن الجارية في الخلق.

وثالثها: قوله تعالى في الآية بعدها: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣] حيث ذكر تعالى ما عوقبوا به جراء نقضهم ميثاقهم، وهي عقوبات مناسبة للقول الأول، إذ لو كان النقض متعلقاً بقتال الجبارين؛ لكانت العقوبة المناسبة لهذا المعنى ما يشير إلى الهزيمة والفشل، ونحو ذلك، والله أعلم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: ذكر تعالى عدداً من الأوصاف التي تتحقق بها معية الله تعالى، وهي خمسة أمور:

- إقامة الصلاة، بأن تؤدى على نحو ما شرع، مستوفية أركانها وشروطها وواجباتها.
- إيتاء الزكاة على نحو ما شرع تعالى.
- الإيمان بالرسل وتصديق ما جاؤوا به.
- نصرة الرسل والقيام معهم حتى يبلغوا رسالات الله.
- الصدقة والإحسان رجاء ثواب الله تعالى وطمعاً في فضله.

وهذه الأوصاف هي أشرف الأوصاف التي يستوجب بها المرء معية الله تعالى بما تتضمنه من الإعانة والهداية والنصر، وهي لا تخص بني إسرائيل – وإن كانت واردة فيهم – ووجه ذلك كما يقول الطبري: " أن من قضاءِ الله في جميع خلقه، أنه ناصرٌ من أطاعه، ووليّ من اتّبع أمره، وتجنّب معصيتَه، وتحامَى ذنوبه، فإذا كان ذلك كذلك، وكان من طاعته إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، وسائر ما ندب القوم إليه"[(١)].

ثانياً: دلت الآيات الكريمات على أن أولئك القوم نقضوا ميثاق الله تعالى، ولم يوفوا بما شرط الله عليهم، حيث قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا

(١) جامع البيان(٤/ ٤٩٢).

حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة:١٣] وهم بهذا النقض – على القول بأن المعية تتعلق ببني إسرائيل – لم يستحقوا معية الله تعالى لهم بالإعانة والتوفيق، وهذه الآية على هذا فريدةٌ من بين سائر آيات المعية الخاصة، إذ كل آيات المعية الخاصة لا تخلو ممن يحقق شرطها فيستحق معية الله تعالى له.

الآية الرابعة: في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

السورة الكريمة يرد فيها كثير من الموضوعات المتعلقة بإثبات ألوهية الله تعالى، ولهذا فقد تضمنت السورة حشداً كبيراً من الأدلة المتنوعة على الوحدانية، متضمنةً إشاراتٍ كثيرة على مظاهر إنعام الله على خلقه، وفيها حديث مستفيض عن المشركين وأوهامهم، وضلالهم في شركهم بالله تعالى.

وفي هذا السياق تأتي الآية الكريمة التي تُـخْتم بها السورة في جملة آيات تدعو النبي ﷺ، وأمته من ورائه، إلى سلوك الحكمة وهو يدعو الناس إلى ألوهية الله تعالى، لافتةً النظر إلى الأذى الذي قد يعرض له، موجهةً له بالصبر، وترك الأسى وضيق النفس من أحوال أولئك المشركين، معلِلة ذلك بمعية الله للمتقين والمحسنين، لتكون هذه المعية الربانية أعظم العزاء.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

تنوعت عبارات المفسرين في بيان معنى المعية، ومدار عامة أقوالهم على معنى النصر والإعانة، وبعضهم نص على ذلك كالبغوي وابن الجوزي وأبي حيان وابن كثير.

بل ذكر بعض المفسرين معانٍ لم يذكرها في غير هذا الموضوع، انفرد بها عن سائر المفسرين، كما فعل الرازي حيث قال: " ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ معيته: بالرحمة والفضل والتربية"[1] وقريب منه ما ذكره الخازن، حيث قال: "وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة"[2]، وهذه المعاني – في حقيقة الأمر – تدخل ضمن معاني الحفظ والهداية، وتلزم عليها.

وسبب ذلك أن الآية الكريمة تحتمل هذا التنوع، وسياقها يساعد عليه، فكُل من ذَكَر معنىً لها يجد في سياق الآيات ما يساعده.

على أن أقرب المعاني لسياق الآية – والله أعلم – معنى الحفظ والحماية، وذلك أن الله أمر نبيه بالدعوة إلى سبيله بالحكمة، وأمر المؤمنين بتحري المماثلة في معاقبة من يتعدى عليهم، مع حثه على التخلق بالصبر وترك المعاقبة، ثم أكد ذلك بأمر نبيه عليه السلام على سبيل العزيمة عليه بالصبر، ونهاه عن الحزن وضيق النفس بسبب مكرهم، وعلل ذلك بذكر معيته للمتقين والمحسنين، فلا تحزن ولا يضق صدرك من كيدهم؛ لأن الله معك يحفظك ويرعاك، والله أعلم.

---

(١) مفاتيح الغيب(٢٠/ ١١٤).

(٢) تفسير الخازن(٣/ ١٠٨).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: عَلَّق الله تعالى معيته هنا بوصفين: وصف التقوى ووصف الإحسان، وقد تقدم لنا بيان معنى التقوى، وأنها تدور حول معنى الوقاية من عذاب الله تعالى بفعل ما أمر وترك ما نهى، وأما الإحسان فإن أفضل ما ورد في تعريفه ما ثبت عن النبي صلى الله عليه سلم في حديث جبريل – وفيه – قال: ((**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكون تراه فإنه يراك**))[1].

وتعليق المعية بهذين الوصفين له دلالة على علو منزلة أهل هذين الوصفين، وقد مَرَّ بنا عدد من المواضع عُلّقت المعية فيها بوصف التقوى والإحسان منفردين.

ومما يدل على علو منزلة هذين الوصفين، أن الله لما أمر المؤمنين بالعدل عند معاقبة المعتدي بأن لا يتجاوزوا حدّ المماثلة، أرشدهم إلى الأخذ بخُلُق العفو والصبر على ترك المعاقبة، وحثهم عليه، ثم ترقى بهم درجة أعلى، بأن التفت إلى خطاب النبي بعد خطاب المؤمنين، فأمره بالصبر، ونهاه عن حزن القلب وضيق الصدر، معللاً ذلك بمعيته تعالى للمتقين والمحسنين.

ومما يدل – أيضاً – على علو شأن هذين الوصفين، أنهما جمعا ما وردت به الشريعة بأقصر لفظ، حيث التقوى تتعلق بترك المنهي،

---

(١) أخرجه مسلم[١/ ١٠٢كتاب الإيمان] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والإحسان يكون بإتقان القيام بالفرائض، ولهذا قال الشوكاني عن الآية الكريمة التي ختمت بها السورة بأنها:" جامعة لجميع المأمورات والمنهيات"[(١)].

ثانياً: قد يرد سؤال هنا، وهو: هل المعية ثابِتةٌ باعتبار الوصفين معاً، أو أنها لأهل الوصفين وإن كانا منفردين، والجواب عن هذا فيه تفصيل يرجع إلى معنى التقوى والإحسان في الآية؛ فإن حملنا الوصفين على أعلى معانيهما وأكمل منازلهما؛ فإن التقوى والإحسان لا يختلفان، لأن المؤمن لا يبلغ كمال التقوى حتى يكون محسناً، ولن يكون محسناً إلا إذا كان من أهل التقوى، وعليه فذِكرُ أحدِ الوصفين كاشفٌ لمعنى الوصف الآخر مُؤكدٌ له، وقد سبق أن معية الله تعالى قد ثبتت للموصوفين بالتقوى أو الإحسان استقلالاً، ولعل هذا ما يفهم من طريقة أبي السعود في تفسيره، حيث قرر أن وصف التقوى والإحسان في الآية الكريمة في أعلى مراتبهما، ثم قال بعد ذلك: "وتكريرُ الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه، من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى"[(٢)].

وإن حَمَلنا الوصفين على أظهر ما يَخْتصُ به كلٌ منهما، كان لا بد من الجمع بين الوصفين حتى تتحقق معية الله تعالى لأهلها، وهذا ما جرى عليه أكثر المفسرين، حيث عمدوا إلى حمل كلٍ من وصف التقوى والإحسان على معنى مناسب له، وتنوعت عباراتهم في ذلك: فمنهم من حمل التقوى على

---

(١) فتح القدير(٣/ ٤٠٢).

(٢) التحرير والتنوير(١٤/ ٣٣٨).

ترك المحرمات، والإحسان على فعل الواجبات، وهي طريقة عدد من المفسرين، ومن أوضح عباراتهم قول الشوكاني:" ثم ختم هذه السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ أي: اتقوا المعاصي على اختلاف أنواعها﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ بتأدية الطاعات والقيام بما أمروا بها منها"[(١)].

ومنهم من حمل التقوى على أداء الفرائض والواجبات، والإحسان على ما زاد على ذلك من أنواع القربات والفضل، كما فعل ابن عاشور حيث قال: "لأن التقوى آيلة إلى أداء الواجب، وهو حق على المكلف، ولذلك أمر فيها بالاقتصار على قدر الذنب، وأُتي في جانب الإحسان بالجملة الاسمية، للإشارة إلى كون الإحسان ثابتاً لهم دائماً معهم، لأن الإحسان فضيلة، فبصاحبه حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكنه"[(٢)].

ثالثاً: نلحظ أن ذكر التقوى جاء بصيغة الجملة الفعلية، والإحسان بصيغة الجملة الاسمية، وفي تعليل ذلك يقول أبو السعود: "وإيرادُ الأولى فعليةٌ للدِلالة على الحدوث، كما أن إيراد الثانية اسميةٌ؛ لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم"[(٣)].

رابعاً: في الآية الكريمة قُدم وصف التقوى على الإحسان، ووجه ذلك كما يقول أبو السعود: "تقديمُ التقوى على الإحسان؛ لِمَا أن التخلية

(١) فتح القدير(٣/ ٤٠٢).

(٢) التحرير والتنوير(١٤/ ٣٣٨).

(٣) إرشاد العقل السليم(٥/ ١٥٣).

متقدمة على التحلية"[١].

الآية الخامسة: في سورة العنكبوت، عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها**

السورة الكريمة تعرض لعدد من الموضوعات المتعلقة بحقيقة الإيمان والتكاليف التي تلزم منه، وأثره في القلوب[٢].

وهذه الآية التي خُتمت بها السورة الكريمة تأتي منسجمة مع محور السورة، حيث تضمنت تثبيتاً للمجاهدين في سبيل الله، وتبشيراً لهم، في أيّ ميدان كان جهادهم، بأنهم على سبيل الحق والهدى، وأن الله تعالى مع المحسنين يهديهم سبيله، ويوفقهم إليه، ويعينهم على سلوكه والالتزام به، لا أحد أعظم إحساناً ممن جاهد في سبيله.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى تفسير المعية هنا بمعنيين من معاني المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، حيث جمعوا بين المعنيين، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم، وقليلٌ منهم من أشار مع هذا إلى معنى الإعانة كابن الجوزي[٣] أو إلى معنى الهداية كالسعدي[٤].

(١) الإحالة السابقة.

(٢) ينظر: ظلال القرآن(٥/ ٢٧١٨).

(٣) ينظر: زاد المسير ص١٠٨٨.

(٤) ينظر: تيسير الكريم المنان ص٧٤٧.

والذين ذكروا معنى النصر والحفظ هنا لحظوا ذكر الجهاد في الآية الكريمة، ومعلوم أن لفظ الجهاد عند إطلاقه ينصرف إلى جهاد الأعداء، ولهذا فسروا المعية هنا بمعية النصر والحفظ.

غير أن الآية وإن كانت تحتمل معنى النصر والحفظ، فإن معنى الإعانة والهداية– والله أعلم – أقرب المعاني لسياق الآية الكريمة، وذلك لأمرين:

الأول: أن لفظ الجهاد في الآية عام لا يخص جهاد الأعداء؛ لأن الله تعالى لم يقيده، وإنما قال: ﴿جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ ليدل على كل أنواع المجاهدة فيه، كمجاهدة النفس على فعل الطاعات وترك المحرمات، وكالصبر عند البلاء، وغير ذلك من منازل المجاهدة، يؤكد ذلك العاقبة التي ذكرها الله تعالى على المجاهدة وهي الهداية، ولو كان المراد خصوص قتال الأعداء لقال: "لننصرنهم" ونحو ذلك من المعاني المناسبة للقتال.

ومما يؤكد هذا ما أشار إليه ابن عطية حيث قال عن الآية الكريمة:" هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عامّ في دين الله وطلب مرضاته"(١) وهذا المعنى الذي ذكره ابن عطية حمل بعض المفسرين على جعل المجاهدة عامة، وهذا ما قرر أبو حيان حيث يقول: " أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمتعلق، ليتناول المجاهدة في النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين ، وما ورد من أقوال العلماء ، فالمقصود بها

(١) المحرر والوجيز(٦/ ٦٦٠).

المثال"[(١)].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: إن الله تعالى جعل عاقبة الجهاد فيه والجزاء عليه الهداية إلى السُبل الموصل إليه، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فوعد المجاهدين بالهداية وأكد ذلك بمعيته للمحسنين، ولا أحد أعظم إحساناً من المجاهدين فيه، بل إن المجاهدة فيه هي عَينُ الإحسان؛ لأن حقيقة الإحسان تحقيق الإخلاص لله تعالى، فلا يَرى العبدُ غير الله تعالى في نيته وعمله، فإذا كان المقصود بالمحسنين المجاهدين فيه تعالى، فهم بحاجة إلى معية خاصة منه تعالى، يكون من آثارها هدايتهم وتوفيقهم وإعانتهم، والله أعلم.

ثانياً: دلت الآية الكريمة على أن المجاهدين في الله تعالى بشتى صور جهادهم من المحسنين؛ لأن الله تعالى لما ذكر عاقبة الجهاد وهي الهداية لسبيله؛ أكد ذلك بالإشارة إلى معيته تعالى للمحسنين، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكون للتنبيه على معيته تعالى للمحسنين معنى في السياق.

ثالثاً: دلت الآية على فضل المجاهدة في سبيل الله تعالى ومنزلتها، حيث وعد تعالى أهلها بالهداية إلى سبيله، وأخبر أنه معهم يهديهم ويوفقهم، ومن جميل ما يؤثر في هذا المعنى قول سفيان بن عيينة: " إذا اختلف الناس

(١) البحر المحيط(٧/ ١٥٥).

فانظروا ما عليه أهل الثغور، فإن الله قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾"(١) ويشهد لقوله – رحمه الله – قوله تعالى في قراءة الجمهور(٢): ﴿وَٱلَّذِينَ قَٰتَلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ [محمد: ٤-٥] حيث وعد المقاتلين في سبيله بالهداية وصلاح الحال.

(١) معالم التنزيل(٢/ ٢٥٦).

(٢) قرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم بضم القاف وكسر التاء مع حذف الألف بينهما: (قُتِلوا)، وقرأ الجمهور بفتح القاف والتاء مع إثبات ألف بينهما: (قَاتَلوا) ينظر: الداني لأبي عمرو، ص:٢٠٠.

المطلب الثالث: معية الحفظ والحماية.

في هذا المطلب نستعرض بالنظر والدراسة الآيات التي تدل على معنى الحفظ والحماية، وضابط هذا النوع من المعية: أنها تتعلق بكل أمر يحتاج فيه إلى حفظ وحماية من الأذى ونحوه، فإذا ذُكرت معية الله تعالى في هذا السياق؛ فإن أول ما تُفسر به معنى: الحفظ والحماية.

وقد بلغت الآيات المندرجة تحت هذا المعنى أربع آيات كريمات، هي:

الآية الأولى: في سورة التوبة، عند قوله تعالى: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٤٠].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

تقدم في المطلب الأول التعريف بالسورة والإشارة إلى موضوعاتها الرئيسة، حيث ذكرنا أن من أبرز موضوعاتها بيان الموقف من أهل الشرك وعهودهم، والعلاقة التي يجب أن تكون معهم، وفي هذا السياق وردت الآية الكريمة – هنا – لتنبه المؤمنين أن الله مع رسوله، فهو ناصرُه لا محالة، ومُظْهرُ أمره حتى لو تركوا نصره – وحاشاهم ذلك – وتُذكِّرُ الآية

الكريمة بنصر الله لرسوله يوم أخرجه المشركون من مكة إلى المدينة.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

تنوعت عبارات المفسرين في بيان معنى المعية الإلهية في هذه الآية، بين معنى النصر والتأييد، وبين معنى الحفظ والكلأ، وذلك على اعتبار ما بين هذه المعاني من تقارب.

على أن المعنى الدقيق للمعية هنا يتعلق بالحفظ والحماية، ووجه ذلك: أنه المناسب لسياق الآية الكريمة، وهو ما يحتاج إليه الصاحبان، فالمشركون في إثْرِهما قد جَدُّوا في طلبهم، والنبي ﷺ وصاحبه قد جَدُّوا في النجاة منهم، وهذه الحال يناسبها معنى الحفظ والحماية، فلا يصل إليهم من سعى وراءهم يطلبهم، والله أعلم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: هذه المعية الواردة في الآية الكريمة مع أنها من ضمن المعية الخاصة، إلا أنها من أخص أنواع المعية، حيث تتعلق بذات معينة مسماة، وهي النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وهذا خلافاً لغالب آيات المعية الخاصة حيث علقت بأوصاف معينة.

ثانياً: في الآية دلالةٌ بَيّنةٌ على آثار معية الله تعالى لأوليائه، حيث الحماية تحوطهم، والحفظ يحميهم، وهذا رسول الله ﷺ هو وصاحبه، اثنان فقط أمام جمع المشركين وحشدهم، يخرجان من مكة، وقريش كلها برجالها، ومن جَيَّشته من القبائل وطُلاب الجوائز من ورائها، يسعون في إثرهما، فلا تزال رعاية الله تحوطهما، وحفظه يحرسهما، حتى لا يلحق بهما أقل أذى، بل

حتى الأذى النفسي وحزن القلب لا يصيبهما ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فتنزل السكينة على القلب، ويأتي التأييد من الرب، حتى بَلَغا المدينة سالمين غانمين، ثم يظهر الله دينه، وينصر رسوله، ويعلي كلمته، ليعود بعد نحو عشر سنين إلى البلد التي أخرج منها، ليحطم الأصنام، ويقول للناس من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن[١]، قال الشنقيطي: "وهذا الموقف آية من آيات الله، اثنان أعزلان يتحديان قريشاً بكاملها، بعددها وعُددها، فيخرجان تحت ظلال السيوف، ويدخلان الغار في سُدْفَة الليل، ويأتي الطلَبَ على فَمِ الغار بقلوب حانقة، وسيوف مُصْلَتَةٍ، وآذان مُرْهَفَة، حتى يقول الصديق رضي الله عنه: والله يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت نعليه لأبصرنا، فيقول ﷺ وهو في غاية الطمأنينة، ومنتهى السكينة: (**ما بالك باثنين الله ثالثهما**) "[٢].

ثالثاً: هذه الآية دالة على المنزلة العظيمة لمن اخْتُصا بهذه المعية الإلهية، فأما رسول الله فهو أكرم الخلق على الله، حَقِيقٌ أن ينال هذا المنزلة وجدير بها، ولكن أن يبلغها صاحبه؛ فذلك شأو عظيم للصديق، فإن هذه المعية - بهذا المعنى - لم تثبت لأحد من الخلق إلا لثلاثة رُسُلٍ: نبينا محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام، وأبو بكر الصديق معهم.

(١) أخرج مسلم[٣/ ١١٢٣ كتاب الجهاد والسير] وغيره من حديث أبي هريرة - وفيه - فقال رسول الله ﷺ لما دخل مكة عام الفتح: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)).

(٢) تتمة أضواء البيان لعطية سالم(٨/ ٢٦).

وسِرُّ أدراك أبي بكر لهذا المنزلة لن يشق علينا معرفته، فقد أبانت الآية الكريمة عنه، وَجَلَّتْه بأسهل عبارة، وأقرب لفظ، فالشأن كله في الصحبة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ هو صاحب رسول الله، هو صاحبه في عسره ويسره، في منشطه ومَكْرهه، في كل أحواله قد صحبه، فكان له فيها نِعْم الصاحب الملازم، ولهذا حكى الإجماع غير واحد من المفسرين: بأن من أنكر صحبة أبي بكر؛ فقد كفر، لتكذيبه خبر الله في كتابه، وليست هذه الميزة لأحد من الصحابة بعد الصديق رضي الله عنه، وعن صحابة رسول الله أجمعين[1].

خامساً: في الآية الكريمة إشارة إلى أثر كريم من آثار معية الله تعالى لأوليائه، إنه الشعور بالرضا، الشعور بالطمأنينة، الشعور بالسكينة، فلا يضطرب القلب، ولا ينزعج الفؤاد، ولا تحزن النفس، وكيف لها الحزن والله مع عبده يحفظه من كل سوء، ويرعاه من كل شر، ويفتح له مغاليق كل عسير.

وتلك منزلة من راحة النفس، وطمأنينة الفؤاد، لا يبلغها إلا المتقون

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب(١٦/ ٥٢) والبحر المحيط(٥/ ٤٥).

ومن طريف ما يُذْكر القصة التي أوردها الرازي في تفسير (١٦/ ٥٢) قال: " اعلم أن الروافض في الدين كانوا إذا حلفوا قالوا: وحق خمسة سادسهم جبريل، وأرادوا به أن الرسول ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين، كانوا قد احتجبوا تحت عباءة يوم المباهلة، فجاء جبريل وجعل نفسه سادساً لهم، فذكروا للشيخ الإمام الوالد – رحمه الله تعالى – أن القوم هكذا يقولون، فقال – رحمه الله –: لكم ما هو خير منه بقوله:((ما ظنك باثنين الله ثالثهما)) ومن المعلوم بالضرورة أن هذا أفضل وأكمل".

الأبرار، الموصولون بمدد إلهي، فمهما كانت الكروب، واشتدت الخطوب، فلا يصدر عنهم إلا الرضا والتسليم، ولِـمَ كل ذلك؛ لأن الله معهم.

الآية الثانية: في سورة طه، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[طه: ٤٦].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

الحديث في السورة الكريمة يتعلق بتسلية الرسول ﷺ، وبيان المهمة الموكلة إليه، وتحديد وظيفته[١]، وقد بدأت السورة بهذا الأمر من أولها، وأكدت عليه في آخرها، وعرضت في ثنايا السورة الكريمة إلى قصتين؛ قصة موسى - واستغرقت جلَّ السورة- وقصة آدم عليهما السلام، وفي القصتين تسلية لرسول الله ﷺ، وتثبيتاً لفؤاده، ولا سيما أن في القصتين مَلْحَظ العناية الربانية بأوليائه ظاهر، لا تخطئه العين.

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق ذكر خبر تكليف الله تعالى لموسى بالذهاب إلى فرعون، وخوف موسى عليه السلام من طغيان فرعون عليه، وعدم إمهاله حتى يبلغ رسالة الله، فيأتيه الجواب من الله تعالى بأن الله معه يحفظه ويرعاه، فلا يناله أذى فرعون، ليكون ذكر معية الله تعالى لموسى، تسلية لرسولنا عليه الصلاة والسلام، وربطاً على قلبه، وهو يعلم أن الله لم يزل مع أوليائه يحفظهم ويرعاهم.

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٤/ ٢٣٢٦).

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى تفسير معنى المعية هنا بمعنيين من معاني المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، حيث جمعوا بين المعنيين، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم.

ودلالة الآية على هذين المعنيين بينة، فضلاً عما بين المعنيين من تقارب، غير أن معنى الحفظ والحماية ألصق بسياق الآيات، وأدل في المعنى؛ وذلك أن الله تعالى لما كلف موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، خَشي موسى من بطشه وطغيانه فلا يُمْهله حتى يُتم بلاغ رسالة الله، وهذه حال يحتاج فيها موسى عليه السلام – قبل أيّ شيء – إلى حِفظٍ من فرعون وبطشه، ورعايةٍ حتى يُتِم البلاغ، ويؤدي الرسالة، ولهذا أخبره تعالى جواباً عن تخوف موسى بأنه عز وجل معه، يحفظه من عدوه.

مما يؤكد هذا المعنى التصريح بصفتي السمع والبصر، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وهذا بمعنى الحفظ والحماية ألصق منه بمعنى النصر، إذ المناسب للنصر صفة القوة والقدرة ونحو ذلك، ولهذا قال البيضاوي: "والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تم الحفظ"[1].

- **دلالات الآية وفوائدها.**

أولاً: هذه المعية الواردة في الآية الكريمة مع أنها من ضمن المعية

(١) تفسير البيضاوي(٢/ ٤٨).

الخاصة، إلا أنها من أخص أنواع المعية، حيث تتعلق بذات معينة مسماة، وهي موسى وهارون عليهما السلام.

ثانياً: في الآية دلالةٌ بَيّنةٌ على آثار معية الله تعالى لأوليائه، حيث الرعاية تحوطهم، والحفظ يحميهم، فهذا نبي الله موسى وهارون عليهما السلام، يذهبان إلى أعظم أهل الأرض طغياناً وتكبراً حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] يذهبان إليه وقد علما غضبه على موسى بسبب قتله للرجل من ملئه، يذهبان إليه لا يريدان الاعتذار ولا الصفح، وإنما ليخبراه بضلاله، وضلال من تبعه من قومه، وليطلبا منه الكف عن استعباد بني إسرائيل وظلمهم، فأيّ خطر أعظم من هذا وأيّ مهمة أشد منها، ومع هذا فيذهبان إليه ويصدعان بكلمة الحق، ويجادلانه هو والملأ من قومه، في ملكه وعُقْر داره، بالحجة والبرهان، بثبات قلب وعزيمة نفس، على نحو ترى فيه جلياً آثار معية الله لهما، يكفي دلالة على ذلك موقف السحرة لما استرهبوا الناس بعظم سحرهم، حتى موسى عليه السلام أحس بالخوف من عظم السحر، وعندئذ تتنزل السكينة من الله على قلبه، ليقول له الرب جل وعلا: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[طه: ٦٨] قال في روح البيان: "ثم اعلم أن موسى وهارون عليهما السلام التجآ إلى حضرة الربوبية بكمال العبودية، فتداركهما الله بالحفظ والعون"(١).

(١) روح البيان لإسماعيل حقي(٨/ ١٢٥).

الآية الثالثة: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى:﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

الحديث في السورة الكريمة يتعلق ببيان موقف الأمم من رسل الله، المتضمن التكذيب والإعراض، مهما كانت الآيات واضحات، ولهذا افتتحت السورة بتسلية رسول ﷺ، عما يلاقيه من قومه من تكذيب وإعراض، وأنه لم يكن بدعاً من الرسل، ثم تمضي الآيات تذكر قصصاً متعدداً لرسل مضوا قبله، واجهوا التكذيب من أممهم مع عظم الآيات التي جاؤوا بها، كاشفةً حقيقة أولئك المكذبين لرسل الله ودوافعهم، ثم تعود السورة بعد ذلك كله لتُخْتَم بما بدأت به، من الحديث عن موقف المشركين من النبي ﷺ، والمهمة التي كُلِّف بها.

وفي هذا السياق تأتي الآية الكريمة هنا، ضمن آيات تتحدث عن خبر إرسال موسى وأخاه عليهما السلام إلى فرعون وملئه، مشيرةً إلى خوف موسى من بطش فرعون، وعدم إمهاله حتى يُبلغ عن الله رسالته، فيأتي الجواب من العلي الكبير مؤكداً معية الله له ولأخيه، معيةً تحفظهما من أذى فرعون وملئه، وترعاهما في مهمتهما، ليكون في ذلك أعظم التسلية لرسولنا عليه الصلاة والسلام وهو يعلم أن الله تعالى لم يزل مع أوليائه يحفظهم ويرعاهم.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

ذهب عامة المفسرين إلى تفسير معنى المعية هنا بمعنيين من معاني

المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، حيث جمعوا بين المعنيين، وإن كان معنى النصر أكثر وروداً عنهم.

وقد سبق لنا في الآية قبل هذه الإشارة إلى أقرب المعاني التي تفسر بها معية الله تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام، غير أن بعض المفسرين أشار إلى احتمال آخر في الآية الكريمة، لأنها – وخلافاً للآية قبلها – وردت بصيغة الجمع: "معكم" والخطاب لموسى وهارون عليهما السلام، وهذا ما جعل الآية تحتمل أكثر من وجه، وللمفسرين في بيان المعنى ثلاثة طرق:

– **الأولى**: جمهور أهل المفسرين، حيث فسروا الآية على نحو ما تقدم، وأثبتوا دلالاتها على المعية الخاصة، ووجهوا صيغة الجمع بأن ذلك من باب التعظيم، كما يقول الملك ونحوه: أمرنا بكذا، مع أنه واحد فرد، قال أبو حيان: "﴿مَعَكُم﴾ قيل: من وضع الجمع موضع المثنى، أي معكما... وعلى أنه أريد بالجمع التثنية، حمله سيبويه رحمه الله، وكأنهما لشرفهما عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع، إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته"[١].

ويشكل عليه ما أشار إليه الألوسي[٢]، من أن ما بعد قوله: ﴿مَعَكُم﴾ جاء بصيغة المثنى، فلو كانا هما المرادان فقط؛ لأجري لفظ "مع"

(١) البحر المحيط(٧/ ١١).

(٢) ينظر: روح المعاني(١١/ ٩٩).

على التثنية موافقة لما بعده.

– **الثانية**: ذهب بعض المفسرين إلى أن الجمع على ظاهره، واختلفوا في تعيين من يكون معهما عليهما السلام:

فقال بعضهم: موسى وهارون وقومهما، أشار إلى هذه الطريقة البغوي، حيث قال: "وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون"(١).

ويَرِدُ على هذا: أن خَبَرَ الله عن معيته لموسى وأخيه تعلق بوقت ذهابهما إلى فرعون ولقائه، ولم يثبت أن قوم موسى شهدوا ذلك المجلس.

وقال آخرون: المراد موسى وهارون عليهما السلام وفرعون وقومه، ومن قال بهذا فسر المعية بحسب من تعلقت به، ولهذا قال النسفي: "قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ أي معكما بالعون والنصرة، ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة"(٢).

وقريباً منه ما جاء في روح البيان: "﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة، والمراد موسى وهارون وفرعون، فمع موسى وهارون بالعون والنصر، مع فرعون بالقهر والكسر"(٣).

(١) معالم التنزيل(٦/ ١٠٨) وأشار إليها الألوسي في روح المعاني(١١/ ٩٩).

(٢) مدار التنزيل(٢/ ٤٦٣).

(٣) روح البيان لإسماعيل حقي(٩/ ٣١٠).

ويشكل على هذا التوجيه أن فيه تفكيكاً لمعنى المعية بحملها على أكثر من معنى، وقد جاءت في سياق واحد، وبلفظ واحد.

وقد تفرد به ابن عاشور بمعنى لم أجده لغيره حيث جعل المعية هنا معية عامة، ففسرها بالعلم، وهذا هو معنى المعية العامة، قال: " فضمير معكم عائد إلى موسى وهارون وقوم فرعون، والمعية معية علم، كالتي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾"(١) ولعل الذي حمله على ذلك أنه لم يرتضِ تفكيك معنى المعية، وقد جاءت في سياق واحد، وبلفظ واحد.

ويشكل عليه أن هذه معية عامة، لا تختص بأحد، فلا مزية لذكرها جواباً على تخوف موسى عليه السلام، إذ كان بحاجة إلى نوع خاص من التثبيت لا يكون لغيره.

- **الثالثة**: أشار الألوسي إلى وجه آخر وضعفه، قال: "وزعم بعضهم أن المعية والاستماع على حقيقتهما ولا تمثيل، والمراد أن ملائكتنا معكم مستمعون، وهو مما لا ينبغي أن يُسْتَمَع، ولا بد في الكلام على هذا التقدير من إرادة الإعانة والنصرة، وإلا فبمجرد معية الملائكة عليهم السلام واستماعهم؛ لا يَطِيبُ قلب موسى عليه السلام"(٢).

والراجح - والله أعلم - قول الجمهور؛ لأن الآية - وإن كانت مُحْتمِلة - فإن ما تقدم في الموضع السابق في سورة طه، يرجح أن يكون

(١) التحرير والتنوير(١٨/ ١٠٩).

(٢) روح المعاني(١١/ ١٠٠).

المراد به معية الله تعالى – خصوصاً – لموسى وأخيه هارون عليهما السلام ، بما تدل عليه من الحفظ والحماية، حيث وردت هناك بلفظ التثنية، وهذا ما أشار إليه ابن كثير حين قال: " أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك... ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي"(١).

- **دلالات الآية وفوائدها.**

موضوع هذه الآية الكريمة كالآية السابقة لها، ولهذا فسنكتفي بما أوردناه هناك من الدلالات المشتركة بين الآيتين الكريمة، ونشير هنا إلى أن الآية الكريمة فيها مظهر كريم من مظاهر معية الله تعالى لأوليائه ورسله، فالله عز وجل يخبر موسى وأخاه هارون بمعيته لهما بكل ما في ذلك من ظلال كريمه للحفظ والحماية، بل وأكثر من هذا يرد النص على سماع الله تعالى لكلامهما، وجواب فرعون عليه، وهذا مظهر كريم شريف من العناية الإلهية بأوليائه.

الآية الرابعة: في سورة الشعراء، عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء: ٦٢].

- **تعريف بالسورة وسياق الآية فيها.**

تقدم في الآية السابقة التعريف بسورة الشعراء، وسياق الآية هنا في

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/ ٥٣١).

ضمن آيات تتحدث عن خبر موسى وقومه، لما خرجوا من مصر فراراً من فرعون وبطشه، فتبعهم حتى بلغوا ماء البحر، فأيقن قوم موسى بأنهم مدركون لا محالة، إذ لا سبيل لهم إلى النجاة، فالبحر أمامهم والعدو من ورائهم، فيصيح فيهم موسى عليه السلام ليقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ تنطق بها روحه قبل لسانه، فما أتمها حتى يأتيه الأمر من ربه بضرب البحر بالعصا، لينشق ماؤه، ويرتفع كالجبال الشامخة، ويكشف عن قعره كأشد ما تكون الأرض يبساً، فيسير موسى بقومه معه ربه عز وجل يحفظه ويرعاه.

- **موقف المفسرين من معنى المعية في الآية.**

كثير من المفسرين لم يتكلموا عن معنى المعية هنا، ومن تكلم منهم فيها ذهب إلى تفسيرها بمعنيين من معاني المعية الإلهية، وهما: النصر والحفظ، كما فعل الرازي، والبيضاوي، الألوسي(١).

على أن بعضاً منهم فسرها - أيضاً - بمعنى النصرة والهداية، كأبي السعود، والشوكاني، وإسماعيل حقي(٢)، وتفسيرها على هذا الوجه، اعتبر فيه قائلوه لفظ الهداية الوارد في الآية، حيث قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فذكر أن الله تعالى سيهديه.

والحقيقة إن دلالة الآية على هذه المعاني بَـيّنة، فضلاً عما بين تلك المعاني من تقارب، غير أن معنى الحفظ والحماية ألصقُ بسياق الآيات، وأدلُ

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب(٢٤/ ١١٩) وتفسير البيضاوي(٤/ ٤١٨) وروح المعاني (١١/ ١٢٦).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم(٦/ ٢٤٥) وفتح القدير(٤/ ١١١) وروح المعاني(٥/ ١٣٤).

في المعنى؛ فموسى خرج بقومه فراراً من فرعون وملئه، فتبعوهم حتى بلغوا البحر، وأيقن قوم موسى بالهلاك لما رأوا فرعون بجيشه، وهذه حال يحتاجوا معها قبل أيّ شيء إلى حِفظٍ من فرعون وجيشه، فهم لن يقاتلوا جيش فرعون، حتى ينزل عليهم النصر، ولم يَضِلُوا الطريق حتى تأتيهم الهداية، وإنما هم بحاجة إلى حفظ ورعاية من فرعون وجيشه فلا ينالهم الأذى، والله أعلم.

- **دلالات الآية وفوائدها.**

موضوع هذه الآية كالآيتين السابقتين لها، ولهذا فسنكتفي بما أوردناه هناك من الدلالات المشتركة بين الآيات الكريمة، مقتصرين على ما تنفرد به هذه الآية من دلالات ومعان، ومنها:

أولاً: نلحظ في الآية الكريمة هنا أن لفظ المعية قُدم في الذكر قبل لفظ اسم الرب، فقال: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أما في خبر نبينا عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر فقد قدم لفظ الجلالة على المعية فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠] وقد حاول المفسرون تلمس الحكمة في ذلك، فذكروا توجيهات منها[١]:

- أن تقديم لفظ المعية لأجل مراعاة معنى حصر المعية في موسى عليه السلام بالنسبة لفرعون وملئه، أي: معي ربي وليس معهم.

(١) ينظر: مفاتيح الغيب(٢٤/ ١٢٠) وروح المعاني(١١/ ١٢٧) والتحرير والتنوير(١٨/ ١٣٥).

- قال الألوسي: "قيل: قدم المعية هنا وأخرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ لأن المخاطب هنا بنو إسرائيل وهم أغبياء يعرفون الله عز وجل بعد النظر والسماع من موسى عليه السلام، والمخاطب هناك الصديق رضي الله تعالى عنه، وهو ممن يرى الله تعالى قبل كل شيء، ولاختلاف المقام نَظَمَ نبينا ﷺ صاحبه معه في المعية، ولم يقدم له ردعاً وزجراً، وخاطبه على نحو مخاطبة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام عند تسليته بما صورته النهي عن الحزن... ولم يكن كلام موسى عليه السلام ومخاطبته لقومه على هذا الطَرْزِ، وسبحان من فضل بعض العالمين على بعض"[(١)].

- إن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة.

ثانياً: نلحظ أن موسى عليه السلام لما ذكر معية الله تعالى قصرها على نفسه ولم يُشْرِك قومه من بني إسرائيل فيها، وقد ذكر المفسرون توجيهات لذلك، منها:

- إن موسى عليه السلام لم يذكرهم لأنهم تَبَعٌ له، فإذا ثبتت المعية له ثبتت لهم، قال الألوسي: "وقيل: لما كان عليه السلام هو الأصل وغيره تبع له، محفوظون منصورون بواسطته وشرفه وكرامته، قال: ﴿مَعِىَ﴾ دون معنا، وكذا قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ دون سيهدينا"[(٢)]، ويشهد لهذا قوله تعالى:

---

(١) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

(٢) روح المعاني(١١/ ١٢٧) وبمعناه ما أشار إليه في التحرير والتنوير(١٨/ ١٣٥).

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ فصرح بنجاة موسى ابتداءً، وجعل نجاة من معه تبعاً له، معلقاً نجاتهم بتبعتهم لموسى عليه السلام.

– أن ذلك من باب العقوبة لهم على قولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] قال الألوسي: "وقيل: قال ذلك جزاءً لهم على غفلتهم عن قوله تعالى له عليه السلام: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ حتى خافوا فقالوا ما قالوا، فإن الظاهر أنهم سمعوا ذلك من موسى عليه السلام في مدة بقائهم معه في مصر، أو غفلتهم عن عناية الله تعالى بهم حين كانوا مع القِبْطِ في مصر، حيث لم يصبهم ما أصابهم من الدم ونحوه من الآيات، المقتضية – بواسطة حسن الظن – إنجاءهم منهم حين أمروا بالخروج فلحقوهم، وكان تأديبه لهم على ذلك بمجرد عدم إشراكهم فيما ذكر، لا أنه نفاه عنهم كما يتوهم من تقديم الخبر، فإن تقديمه لأجل الاهتمام بأمر المعية التي هي مدار النجاة المطلوبة"(١).

– قال الألوسي في توجيه آخر: "ولم يشركهم عليه السلام في المعية والهداية، إخراجاً للكلام على حسب ما أشاروا إليه في قولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ من طلب التدبير منه عليه السلام"(٢).

– قال الألوسي: "زعم بعضهم أن في الكلام حذفاً والتقدير: إن معي وعد ربي، ولذلك قال: ﴿مَعِيَ ﴾ دون معنا، وفيه ما فيه"(٣).

---

(١) روح المعاني(١١/ ١٢٧).

(٢) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

(٣) ينظر: روح المعاني(١١/ ١٢٧).

ثالثاً: هذه المعية الواردة في الآية الكريمة مع أنها من ضمن المعية الخاصة، إلا أنها أخص أنواع المعية بإطلاق، حيث تتعلق بذات معينة واحدة مسماة هي موسى عليه السلام، وهذه منقبة عظيمة، ومنزلة رفيعة له عليه السلام.

ولا يشكل على هذا ما تقدم في الفقرة السابقة من توجيه سبب عدم إشراك قوم موسى معه في المعية، فإن ما تقدم ذكره إنما هو من باب تلمس حكمة ذلك، مع التسليم بعدم النص عليهم، وأصالة موسى عليه السلام على أقل تقدير، وأن قومه تبع له في ذلك على أحسن تقدير.

رابعاً: في الآية دلالةٌ بَيّنةٌ على آثار هذه المعية الربانية الكريمة لأولياء الله تعالى، حيث الحماية تحوطهم، والحفظ يحميهم، هذا نبي الله موسى عليه السلام، هو وقومه يخرجون فراراً بدينهم من فرعون وملئه، فيطلبهم بجمع عظيم حشره من شتى المدائن، ويسير في أثرهم، حتى يدركهم وقد قطع البحر طريقهم، أدركهم وهم في أشد أحوالهم ضعفاً وهلعاً، وهو في أشد أحواله زهواً وغروراً، وقد نسي أن معية الله ترعى أولياءه، وتحوط أصفياءه، فما هو إلا أن ينشق البحر اللجي ليكون طريقاً يبساً، كأن لم تقع عليه قطرة ماء دهره كله، وإذ المياه المتلاطمة تقف شامخة كجبال شاهقات كأن لم تتلاطم يوماً من الدهر، فيالله من هذا المنظر الذي يروع الفوائد، ويأخذ الألباب، وذلك كله أثر من آثار معية الله تعالى لأوليائه وحزبه.

خامساً: إن في قول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ معان عظيمة من الثقة بالله تعالى، وملء القلب منه، والطمأنينة

لتدبيره، حتى يصرح في قومه زاجراً لهم عن سوء الظن به تعالى، رادعاً لهم عن غلبة اليأس على قلوبهم، يقول ذلك في موقف هو أشد المواقف وأصعبها، عدوهم الغاشم الظالم الحانق أمام أعينهم، يتراءى لهم، والبحر اللجي يقطع طريقهم، فأين النجاة، وكيف السبيل! فلا يزيد نبي الله تعالى أن يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ في أتمّ صور الثقة وأوفاها، وأكملها وأعلاها، هو على ثقة أن الله سيهديه، وإن كان لا يدري كيف يكون ذلك، ولا متى يكون، وعندئذ يأتيه الأمر من ربه، ممن وعده بأن يكون معه وأن يحفظه من عدوه ويرعاه، ليقول له: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ .

المطلب الرابع: آثار المعية الخاصة ووسائل تحقيقها.

من أهم ما يتعلق بهذا البحث الكشف عن آثار المعية الإلهية، وبيان الوسائل التي تعين على تحقيقها، ولهذا سيكون الحديث في هذا المطلب في فقرتين:

الفقرة الأولى: آثار المعية الإلهية.

الفقرة الثانية: الوسائل التي تعين على تحقيقها.

الفقرة الأولى: آثار المعية الإلهية الخاصة.

كشفت الآيات التي سبق دراستها عن آثار كريمة متنوعة للمعية الإلهية، ويمكن إجمال تلك الآثار في النقاط التالية:

أولاً: أعظم آثار المعية الإلهية، هي تحقق ما يلزم عليها من المعاني المناسبة، وقد تبين لنا أنه يلزم على معية الله تعالى لأوليائه أحد ثلاثة أمور، بحسب حال من تعلقت به، وهي:

الأول: النصر والتأييد.

الثاني: الإعانة والهداية.

الثالث: الحفظ والحماية.

وهذه اللوازم العظيمة لمعية الله تعالى، ظهرت جلية بَيّنة في الآيات الكريمة التي سبق دراستها، حيث وجدنا معية الله تعالى لا تبارح أولياءه وعباده، فإن كانوا بحاجة إلى نصر نصرهم، أو حفظ حفظهم، أو هداية

هداهم، أو إعانة أعانهم.

هذا موسى عليه السلام يخرج بقومه فراراً من فرعون وملئه، حتى إذا قطع البحر طريقهم، ظن قومه أنهم مدركون لا محالة، فيهتف فيهم موسى المطمئن إلى أن الله معه، ليقول لهم : ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] فما أتم كلماته حتى ينزل عليه الوحي بضرب البحر بالعصا، لينشق طريقاً يبساً، فيحفظ الله عباده وينجيهم، ويذل أعداءه ويهلكم.

وفي صورة أخرى تكشف عن آثار معية الله تعالى في نصر جنده وأوليائه، في خبر أهل اليقين والإيمان من جيش طالوت، لما برزوا لجالوت وجنوده، وقد فاقوهم عددا وعتاداً، فما كان منهم إلا أن توجهوا بقلوبٍ عمرها الإيمان بالله والثقة به، مثبتين لإخوانهم مُصَبِّرين لهم، يقول تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩] وصدق ظنهم بالله تعالى، فهو مع أوليائه ينصرهم ويؤيدهم، فنصرهم مع قلة عددهم، وأذل عدوهم مع كثرة عددهم وعتادهم.

ثانياً: إن كل الصفات الواردة في المعية الخاصة مع ما تدل عليه من لوازم خاصة بحسب سياقها – على ما بيناه – فهي تدل أيضاً على أثرٍ عام لا يبارح أهل تلك الصفات التي تعلقت بها معية الله الخاصة، وهي رضا الله تعالى عنهم، هذا الرضا الذي لزم منه أن يكون معهم يهديهم ويعينهم وينصرهم ويحفظهم.

ثالثاً: ومن ذلك ما تورثه المعية الإلهية من شعور بسكينة القلب، وطمأنينة النفس، وأبلغ مثال على ذلك خبر إمام المرسلين عليه الصلاة والسلام، وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيما وقع لهما في حادثة الهجرة، لما آواهما الغار في إثرهما المشركون بخيلهم ورجلهم، فعظم الأمر على أبي بكر خوف أن يلحق بالنبي ﷺ أذى، حتى دمعت عيناه، وعندئذ ينظر إليه نبي الله ليسكن روعه ويطمئن نفسه يقول له: (**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**) [(١)].

رابعاً: من أبرز آثار معية الله تعالى الخاصة، هذا الإحساس الكريم الذي يشعر به المؤمن، مما لا يمكن وصفه ولا شرحه، وهو يعلم أن الله القاهر القادر، العلي الأعلى، معه هو العبد الضعيف العاجز، معه ينصره، ويحفظه ويعينه، وهذا الإحساس الكريم يدفع المؤمن إلى بذل الجهد سعياً لتحصيل هذه المنزلة الرفيعة، والفوز بهذه المعية الكريمة.

الفقرة الثانية: الوسائل التي تعين على تحقيق المعية.

معية الله تعالى دَرَجة عالية، ومنزلة رفيعة، ولهذا لا ينالها إلا الكُمَّلُ من عباده، الذين بلغوا أعلى مراتب العبودية له تعالى، وهناك وسائل تعين المرء ليبلغ هذه المنزلة، فينال شرف معيته لله تعالى، ويمكن تَبيّن تلك الوسائل بطريقين:

---

(١) أخرجه البخاري[٧٤٨ كتاب: فضائل أصحاب النبي، باب: مناقب المهاجرين] ومسلم[٤/ ١٤٧٨ كتاب فضائل الصحابة].

الأول: عن طريق النظر في الأوصاف التي وردت قرينةَ معية الله تعالى.

الثاني: النظر في أخلاق الأشخاص الذين خصهم الله تعالى بمعيته وصفاتهم.

فأما الأول: فإن الله تعالى قد ذكر عدداً من الأوصاف التي استحق أهلها أن ينالوا شرف معيته تعالى لهم، وهي أربعة أوصاف:

الأول: الصبر.

الثاني: التقوى.

الثالث: الإيمان.

الرابع: الإحسان.

وقد مر بنا في المطلب السابق بيان معاني هذه الأوصاف ودلالاتها، فمن أراد الظفر بمعية الله تعالى؛ فعليه أن يجتهد في تحقيق هذه الصفات الأربعة.

ومما يجدر لفت النظر إليه إن هذه الصفات الأربع، هي أعلى مراتب الدين، وأجل مقامات العبودية لله تعالى، ولهذا فأهلها حقيقون بمعية الله لهم بكل ما تقتضيه، ويلزم عنها.

وهذه الأوصاف مع ما بينها من تلازم وتداخل، فإن في كل واحدة منها من المعاني الخاصة التي لا توجد في غيرها، ولهذا فقد يغلب على المرء أحدها، كأن يعرف بالتقوى، أو يعرف بالصبر، ونحو ذلك .

أما الثاني: فهو النظر في صفات الأشخاص الذين ثَبُتت لهم المعية

الخاصة، والتأمل في الأحوال التي كانوا عليها واحتفت بهم، لما أخبر تعالى بمعيته لهم.

لقد خص الله تعالى أربعة من الخلق بمعيته، فعينهم بأسمائهم دون سائر الخلق، وهم: النبي محمد وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، فمن نظر في ما يميزهم من صفاتهم وأخلاق، واجتهد في الاقتداء بهم، والتحلي بأخلاقهم؛ كان حقيقاً أن ينال معية الله تعالى كما نالوها، ولن يشق علينا معرفة صفاتهم وأخلاقهم؛ فقد كانوا في أعلى مقامات الطاعة، وأكرم منازل العبودية.

كما إن التأمل في الحال التي كانوا عليها حينما أخبر تعالى بأنه معهم، يكشف لنا شيئاً من الصفات التي تعين على نيل هذه المنزلة.

وإذا تأملنا حالهم ظهر لنا بشكل جلي أن الحال التي كانوا عليها تضمنت: **كمال العبودية والطاعة لله، مع كمال الخضوع له والتعلق به، في أشد الأحوال ضرورة وخطورة**، وهذه الحال هي أكمل الأحوال التي يستصحب بها العبد معية الله، ويستنزل بها معونته عز وجل.

هذا موسى وأخوه يذهبان إلى أشد الطغاة، وأعتى الظالمين، برسالة فيها زوال ملكه، وتحرير العباد من رِقّه وأسره، يذهبان له بلا معين أو نصير، ولا مؤيد أو ظهير، فكان تعلقهما بالله خالصاً لا شائبة فيه، وتفويضهما تام لا دَخَل فيه، فكان حقيقاً بهما أن ينالا شرف معية الله لهما، فتكلؤهما رعاية الله وحفظه، فلا يصل إليهما أذى فرعون وملئه.

ونبي الله محمد عليه الصلاة والسلام مع صاحبه رضي الله عنه، في

حال لم تكن بعيدة عن حال أخويهما موسى وهارون، فقد خرجا وأهل مكة ومن معهم قد أجلبوا بخيلهم ورَجْلِهم، في أثرهما لا يألون جهداً في طلبها والظفر بهما، يخرجان وهما في أشد حالهما ضعفاً، فلا معين ولا ظهير، وإنما التعلق بالله، والثقة بحسن بلائه بأوليائه، فكان حقيقاً بهما أن ينالا شرف معية الله لهما، فيحفظهما الله ويصرف عنهما كل أذى.

وبعد فإذا كان العبد قد قام لله تعالى، وهو في غاية الضعف، وقلة الناصر والمعين ، فتلك أكرم حال يستوجب بها المرء معية الله، فيحفظه ويهديه وينصره.

خاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تولاه، وبعد:

فقد خَلُصت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج، هي على النحو التالي:

أولاً: أن مذاهب الناس والطوائف المنتسبة إلى الإسلام قد اختلفت في بيان معنى حقيقة معية الله تعالى لخلقه.

ثانياً: أن المعية تنقسم إلى أقسام متنوعة، بحسب الاعتبارات التي يُنظر من خلالها إليها.

ثالثاً: بلغ عدد آيات المعية العامة ثلاث آيات، وآيات المعية الخاصة سبع عشرة آية.

رابعاً: أجمع المفسرون – وإن اختلفت مذاهبهم العقدية – على تفسير المعية الإلهية العامة بالعلم والقدرة، ونحو ذلك من المعاني الدالة على كمال القدرة والإحاطة بالخلق، كما فسروا المعية الخاصة بما تقتضيه من المعاني الخاصة كالنصرة والحفظ والإعانة، وقد حكى الإجماع على ذلك عدد منهم – كما تقدم –

ولا يؤثر على هذا ما ذكرناه من مذاهب غلاة الجهمية والمتصوفة ونحوهم، فإنهم وإن خالفوا عامة الفرق الإسلامية في هذا الباب؛ فليس لهم تفاسير مستقلة متداولة.

على أن المفسرين وأن اتفقت أقوالهم في معنى المعية الإلهية، فإن

هناك فروقاً بين طريقة أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان، وبين من خالفهم من سائر الفرق المنتسبة إلى الإسلام، في أمرين أساسين:

الأول: أن كل من خالف السلف يعتقدون أن معية الله تعالى لخلقه من باب المجاز وليست حقيقة، ويرون أن تفسيرها بالعلم من باب الصرف لها عن ظاهر لفظها.

أما أهل السنة فيرون أن معيته تعالى حق على الحقيقة، ويرون أن تفسيرها بالعلم والإحاطة ونحو ذلك من المعاني المناسبة التي يقتضيها السياق، هو الظاهر الذي تدل عليه، وأنها لا تدل على أكثر من هذه المعاني حتى يقال: بأنه قد عُدل بها عن ظاهر لفظها.

الثاني: ويظهر – أيضاً – الفرق بين مذهب السلف ومن خالفهم، أن السلف يثبتون مع معية الله تعالى لخلقه، علوه على خلقه ذاتاً وصفة، واستواءه على عرشه، ولا يرون بين هذه الصفات تعارضاً، وأما من خالفهم فقد أنكروا علو الذات والاستواء.

خامساً: جعل بعض المفسرين المخالفين لطريقة السلف آيات المعية العامة أصلاً في باب التأويل لحقائق صفات الله تعالى، لاعتقادهم أن تفسيرها بالعلم عدول عن ظاهرها وسلوك لطريق التأويل، وقد ظهر من خلال البحث خطؤهم في فهم حقيقة مذهب السلف.

سادساً: سلك غالب المفسرين الاختصار في الكلام عن المعية الإلهية، فلم يتوسعوا في التقرير والمناقشة فيها، وأبرز سبب لذلك أن المسألة

متقررة لا تحتاج إلى بسط وتوسع، ويستثنى من ذلك بعض تفاسير الصوفية فقد توسعوا فيها، وسبب ذلك ما للمعية عندهم من معان روحية خاصة.

سابعاً: تضمنت جميع آيات المعية العامة ما يدل على كمال علم الله وقدرته وإحاطته، وهذا مناسب لمضمونها ومعناها.

وأما آيات المعية الخاصة فقد أفادت قدراً زائداً على ذلك؛ وهو رعاية الله تعالى لأوليائه، وعنايته بهم، فإن كانوا بحاجة إلى نصر نصرهم، أو حفظ حفظهم، أو إعانة أعانهم ، أو هداية هداهم.

ثامناً: كل آيات المعية متعلقة بالمكلفين من عباد الله مؤمنهم وكافرهم، إلا في موضع واحد وقع فيه خلاف، وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢] حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المعية فيها متعلقة بالملائكة.

تاسعاً: غالب الآيات الواردة في المعية هي من السور المدنية، حيث بلغت ثلاثة عشر موضعاً، وأما في السور المكية ففي أربعة مواضع.

وأكثر سورة وردت فيها المعية سورة الأنفال، حيث وردت في أربعة مواضع، ثم سورة البقرة والتوبة في ثلاثة مواضع في كل منهما.

عاشراً: يغلب على جانب المعية العامة معنى التخويف والتحذير؛ لما فيها من دلالة على اطلاع الله تعالى على خلقه، وإحاطته بهم، يؤكد هذا السياق الذي وردت فيه، حيث يغلب عليه معنى الترهيب.

أما المعية الخاصة فيغلب عليها جانب الترغيب والإطماع، ولهذا فقد اقتضت معاني النصر والحفظ والتوفيق.

الحادي عشر: تبين من خلال البحث أن المعية الخاصة لا تكون إلا لعباد الله المؤمنين، بخلاف المعية العامة فهي لكل الخلق.

الثاني عشر: إن أبرز أثرٍ لمعية الله تعالى العامة على العباد، هو شعور المرء بأن الله معه، عالم به مطلع عليه، محيط به سمعاً وبصراً، وقدرة وتدبيراً، ومن علم ذلك حقاً، وأيقن به صدقاً؛ أورثه دوام المراقبة لله تعالى، والحذر منه، فلا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره.

الثالث عشر: أجمع المفسرون على أن المعية الخاصة تفيد قدراً زائداً على معنى المعية العامة، تُفسر بحسب السياق الذي وردت فيه، وبعد النظر في كلامهم تبين أن المعاني التي ذكروها لا تخرج عن ثلاثة معاني، وربما عبروا بألفاظ مختلفة، غير أنها قريبة المعنى من هذه الألفاظ، وهي:

الأول: النصر والتأييد. الثاني: الإعانة والهداية. الثالث: الحفظ والحماية.

على أن من المفسرين من لم يعتن بتحرير هذه المعاني، حيث نجد منهم من يذكر أكثر من معنى في الآية الواحدة، بل ربما يجمع بينها فيذكر المعاني الثلاث جميعاً، ويظهر أن سبب ذلك يرجع إلى أن تلك المعاني الثلاثة متقاربة المعنى والدلالة، وفضلاً عن هذا فربما كانت الآية تحتمل أكثر من معنى.

الرابع عشر: من أقسام المعية الخاصة ما تعلق بذات معينة، وهي أخص أنواع المعية الإلهية؛ لأنها تقتصر على ذوات معينة فقط، وقد بلغت أربعة مواضع، تشير إلى أربعة أعيان، هم ثلاثة أنبياء وصديق، أما الأنبياء

فمحمد وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام، وأما الصديق فأبو بكر رضي الله عنه، ودلالة ذلك على شرفهم وعلو منزلتهم ظاهر.

وأخص أنواع المعية بإطلاق ما ورد في شأن موسى عليه السلام، في موضع واحد، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].

الخامس عشر: من أقسام المعية الخاصة ما تعلق منها بوصف، وأكثر آيات المعية الخاصة جاءت على هذا النوع، وقد بلغت عشرة مواضع، واقترن بها أربعة أوصاف، هي:

١. وصف الصبر، ورد في أربعة مواضع.

٢. وصف التقوى، ورد في أربعة مواضع.

٣. وصف الإحسان، في موضعين.

٤. وصف الإيمان، في موضع واحد.

ومجيء غالب آيات المعية معلقة بأوصاف دون أعيان؛ دلالة على علو شأنها، وفيه دعوة إلى السعي لنيل شرف معية الله تعالى، وذلك بالتخلق بتلك الأوصاف.

السادس عشر: المعية الخاصة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معية الأوصاف، ولها معنيان:

الأول: معية النصر والتأييد. الثاني: معية الإعانة والتوفيق.

القسم الثاني: معية الأعيان، ولم ترد إلا على معنى واحد هو: الحفظ والحماية، ولعل اختصاص الأعيان بهذا النوع من المعية لأن المرء في حال

الشدة والخوف أول ما يحتاج إليه ويشغل فكره أمر حفظ نفسه وحمايتها.

السابع عشر: هناك آيات وردت في المعية الخاصة ولم تقيد المعية فيها بوصف خاص أو ذات معينة، غير أنه يفهم من السياق الذي وردت فيه ما يدل على معنى الإيمان وعمل الصالحات، والجهاد في سبيل الله، وهي ثلاثة مواضع: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [المائدة:١٩] وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

الثامن عشر: أن معية الله تعالى الخاصة بكل ما تتضمنه من الشرف والمكانة لأهلها تنال بطريقين:

الأول: تحقيق واحد من هذه الأوصاف التي جاءت المعية مقترنة بها.

الثاني: النظر في صفات وأخلاق الأشخاص الخاصّين، الذين ثَبُتت لهم المعية الخاصة.

التاسع عشر: غالب معاني المعية الخاصة يتعلق بالنصر والتأييد، حيث وردت في ثمانية مواضع، كلها تتعلق بالجهاد في سبيل الله، وذلك لأن المرء في حال قتال تسفك فيها الدماء، وتذهب فيه الأرواح، وهو بأمس الحاجة إلى تثبيت القلب وتسكين الفؤاد، ولهذا ورد التأكيد في أكثر من

موضع في القرآن الكريم على معية الله تعالى للمجاهدين في سبيله.

العشرون: للمعية الخاصة عدد من الآثار من أبرزها: إنها تدل على رضا الله تعالى عن كل من ثبتت لهم المعية من الأعيان أو الأوصاف.

ومن آثارها أيضا الإحساس الكريم الذي يشعر به المؤمن، وهو يعلم أن الله معه، ينصره، ويحفظه ويوفقه، وهذا يدفعه إلى بذل الجهد سعياً لتحصيل هذه المنزلة الرفيعة والمعية الكريمة.

الحادي والعشرون: إن المؤمن أقرب ما يكون تحقيقاً لمعية الله تعالى وظفراً بها حين يكون في غاية الضعف وقلة الناصر، مع قيامه لله تعالى، فإنه والحال هذه يستوجب معية الله تعالى له، فيحفظه ويعينه وينصره.

وأخيراً.. فالباحث يوصي بدراسة الآيات التي تتعلق بجوانب الاعتقاد دراسة تفسيرية تنطلق من آيات القرآن الكريم، تكشف عن معانيها ودلالاتها، وتجليها للناس، فإن ذلك أَسَدُّ الطرق لبيان العقيدة، وأنهج السبل لتعميقها في النفوس، وربط الناس بكتاب ربهم.

هذا والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

- الإبانة، لابن بطة العكبري، تحقيق رضا نعسان، دار الراية/ الرياض، ط٢، ت١٤١٥هـ .
- الآثار المروية في صفة المعية، محمد التميمي، دار أضواء السلف/ الرياض، ط١، ت:١٤٢٢ه ـ.
- اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط، ت: ١٤٠٤ هـ .
- الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:٢٠٠١م
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤١٧هـ
- الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق سليم الهلالي، دار ابن عفان/ الخبر، ط١، ت:١٤١٢هـ
- أقاويل الثقات، مرعي الكرمي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١، ت:١٤٠٦هـ
- أنوار التنزيل، أبو سعيد البيضاوي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤٠٨هـ
- إيثار الحق على الخلق، ابن الوزير محمد بن نصر، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط٢، ١٩٨٧م .

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق المرعشلي وآخرون، دار المعرفة/ بيروت/ ط١، ت:١٤١٠هـ
- تاج العروس، المرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية/ بيروت ط١.
- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق سليم الهلالي، دار ابن عفان/ الخبر، ط٢.
- التدمرية، أحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد السعوي، ط١ ت:١٤٠٥هـ
- التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ، تحقيق محمد سالم، دار الكتب العلمية/ بيروت
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء ابن كثير، دار الفكر/ بيروت، ط١، ت:١٤١٢هـ
- التمهيد، أبو عمر بن عبد البر، تحقيق العلوي وآخرون، وزارة الأوقاف/ المغرب، ط١، ت١٣٨٧هـ
- تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن سعدي، دار ابن الجوزي/ الرياض، ط١، ت:١٤٢٥هـ
- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو الداني، تحقيق أوتو يرتزل، دار الكتاب العربي/ بيروت،ط٣، ت:١٤٠٦هـ
- جامع البيان، ابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤١٢هـ
- الجامع الصحيح المسند، محمد بن إسماعيل البخاري، دار

السلام/ الرياض، ط١، ت:١٤١٧هـ

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة/ بيروتط١: ت١٤٢٧هـ
- حلية الأولياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط٤، ت: ١٤٠٥هـ
- الرد على الجهمية والزنادقة، ابن مندة، المكتبة الأثرية/ باكستان، ط١
- روح المعاني، محمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، ط١، ت:١٣١٧هـ
- زاد المسير، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ت١٤٢٣هـ
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة، أبو القاسم اللالكائي، تحقيق الغامدي، دار طيبة/ الرياض، ط٤، ١٤١٦هـ
- شرح العقيدة الطحاوية، علي بن أبي العز، تحقيق التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط٢، ت:١٤١٣هـ
- شرح العقيدة الواسطية، محمد بن عثيمين، دار ابن الجوزي/ الرياض، ط٢، ت:١٤١٥هـ
- الشريعة، أبو بكر الآجري، تحقيق الدميجي، دار الوطن/ الرياض، ط٢، ت:١٤٢٠هـ
- صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، دار ابن حزم/ بيروت، ط١، ت:١٤١٦هـ
- عرائس البيان في حقائق القرآن، البقلي، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب

العلمية، ط١

- فتح القدير، محمد الشوكاني، دار الفكر/ بيروت، ط١، ت:١٤٠٣هـ
- الفروسية، ابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور بن حس دار الأندلس/ حائل، ط١، ت:١٤١٤هـ
- الفصل في الملل، علي بن حزم، تحقيق محمد بن نصر وآخرون، دار الجيل/ بيروت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق/ القاهرة، ط١٣، ت١٤٠٧هـ
- القواعد المثلى، محمد بن عثيمين، دار الوطن/ الرياض، ط١، ١٤١٢هـ
- الكشف عن وجوه القراءات، مكي بن أبي طالب، تحقيق محيي الدين، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٤، ت:١٤٠٧هـ
- اللباب، أبو حفص بن عادل، تحقيق عادل الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ت:١٤١٩هـ
- لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء الثرات العربي، بيروت ط٢، ت:١٤١٨هـ
- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، دار العلوم/ بيروت ط١
- المحكم، ابن سيده، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية/ بيروت/ ت٢٠٠٧م
- معالم التنزيل، أبو محمد البغوي، تحقيق النمر وآخرون، دار طيبة/ الرياض، ت١٤٠٩هـ.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١،

ت:١٤١١هـ

- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر/ بيروت.
- مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ط٣.
- الملل والنحل، أبو الفتح الشهرستاني، تحقيق عبد الأمير وآخرون، دار المعرفة/ بيروت، ط٣،ت: ١٤١٤هـ
- الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، تعليق دراز وآخرون، دار الكتب العلمية/ بيروت.
- النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، تحقيق السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العليمة/ بيروت.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، جامعة الشارقة، ط١ ١٤٢٩هـ
- هميان الزاد إلى دار المعاد، محمد بن يوسف أطفيش،
- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د. محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير/ القاهرة، ط٢ ١٤٢٤هـ

القراءة المدرجة – مفهومها وأثرها –

د. ناصر بن سعود القثامي

د. ناصر بن سعود القثامي

- رئيس قسم القراءات بجامعة الطائف.
- حصل على درجة الماجستير من قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى: بأطروحته تحقيق ودراسة جزء من كتاب: "العقد النضيد في شرح القصيد" – من شروح الشاطبية في القراءات السبع – لأحمد بن يوسف السمين الحلبي، (ت٧٥٦هـ).
- حصل على درجة الدكتوراه من قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى: بأطروحته تحقيق ودراسة كتاب: "لوامع الغرر شرح فرائد الدرر"، من كتب القراءات الثلاث المكملة للعشر وتوجيهها، لأحمد بن إسماعيل الكوراني، (ت٨٩٣هـ)
- عضو مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه ورئيس فرع الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بمنطقة مكة المكرمة.

المقدمة

الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير، الواحد في الحكم والتقدير، الملك الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، المتقدّس في كمَال وصْفِه عن الشبيه والنظير.

وأشهد أن لا إله إلا الله قيوم السموات والأراضين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عِزّ إلا في التذلل لعظمته، ولا غِنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا حياة إلا في رضاه، ولا أنس إلا في قربه.

وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، ومن سار على نهجهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب الله هو خيرُ ما عمّرت به الأوقات، وأفضل ما صُرِفت في تعلّمه وتعلِيمه الهِمَم العوالي، والمُهَج الغوالي.

فهو الحبل المتين، والصراط المستقيم، فيه حياة القلوب، وسعادة النفوس، وتهذيب الأخلاق، فهو كتاب الهداية والصلاح، والتوفيق والفلاح، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١).

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

وإنّ مِن المعلوم أن العلوم ليعلو شأنها، ويسمو قدرها، كلما كانت من كتاب الله أقرب، وبالصلة به أعلق، ومن تلك العلوم التي نالت شرف التعلّق بكتاب الله علم القراءات.

فعلم القراءات مِن العلوم العظيمة والأصيلة، فهو من أجل العلوم قدرا، وأعلاها منزلة، ولا يكاد يوجد علم من العلوم الشرعية ولا العربية إلا ويعتبر هذا العلم رافداً من روافده، وينبوعاً من ينابيعه.

وإن من العلوم المتصلة بهذا العلم علم القراءات الشاذة أنواعه وأثره في المعاني التفسيرية، ومما يتعلق به ما زاد على رسم المصحف العثماني مما قرئ به، ثم نسخ في العرضة الأخيرة أو ترك بعد الإجماع على المصحف العثماني، أو زيد في مصاحف الصحابة رضي الله عنهم لبيان المعنى.

وقد وجد مثل هذا في كتب القراءات والتفسير، وبني عليه معان تفسيرية وأحكام فقهية، وقد اختلفت نسبته وتسميته ما بين القول بأنه زيادة تفسيرية زيدت بأقلام الصحابة لبيان المعنى، وبين القول بأنه كان من الأحرف السبعة التي كان مأذوناً في القراءة بها فيقال: قراءة تفسيرية، أو قراءة مدرجة، مع ظهور أهمية تلك المدرجات في الآراء التفسيرية والاستدلال بها على الأحكام.

فأحببت أن أشارك بهذا البحث بعنوان:

القراءة المدرجة مفهومها وأثرها.

ويتناول البحث مفهوم القراءة المدرجة، وعلاقتها بالقراءات الشاذة وأثرها في المعنى التفسيري.

أهمية البحث

١- أنه متعلق بكتاب الله دستور الأمة وسبيل هدايتها وسفينة نجاتها.

٢- أنه متعلق بعلم القراءات أجل العلوم قدرا وأرفعها منزلة.

٣- قلة الكتب المؤلفة في أنواع الشواذ وندرتها.

٤- لم أر أحداً ممن كتب في القراءات أفرد هذا الموضوع ببحث مستقل.

هدف البحث:

١- تحرير ضابط القراءة المدرجة، وبيان مفهومها، وسبب تسميتها.

٢- الكشف عن نشأة القراءة المدرجة، وسبب إدراجها.

٣- إيضاح علاقة القراءة المدرجة بالتفسير، وأثرها في المعنى.

٤- إيضاح علاقة القراءة المدرجة بالقراءات الشاذة.

وسوف تكون خطة البحث على النحو التالي:

- المقدمة:

وتشتمل على أهمية البحث، وأهدافه، وخطته.

- التمهيد: القراءات الشاذة التعريف والأنواع.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **تعريف القراءات الشاذة لغة واصطلاحاً.**

المبحث الثاني: **أنواع القراءات الشاذة.**

- الفصل الأول: القراءة المدرجة المفهوم والضابط.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **تعريف القراءة المدرجة لغة واصطلاحاً، وأول من أطلق لفظ الإدراج.**

المبحث الثاني: **الكشف عن المدرج هل هو تفسير أم قراءة.**

- الفصل الثاني: علاقة القراءة المدرجة بالتفسير والقراءات **الشاذة.**

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **علاقة القراءة المدرجة بالتفسير وأثرها في المعنى.**

المبحث الثاني: **علاقتها بالقراءات الشاذة.**

الخاتمة **وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.**

ثم الفهارس والمراجع.

الدراسات السابقة

من خلال البحث والتتبع لم أر أحداً خص القراءات المدرجة ببحث مستقلٍ أو القراءات التفسيرية إلا ما يلي:

١- القراءات الشاذة بين الرواية والتفسير.

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية في عام ١٤٢٠هـ، للباحث سامي محمد عبد الشكور.

وكان محور الرسالة يدور حول دخول التفسير في القراءات الشاذة ومن ثم إطلاق عموم الشذوذ عليه.

وقد حاول الباحث استقصاء جميع القراءات والأقوال التفسيرية الواردة في القرآن الكريم والتي شملها لفظ الشذوذ والحكم عليها.

- جزم الباحث بأن كل ما ورد من قراءات تفسيريه فنسبته للقراءات نسبة خاطئة، وهذا محل نظر.

٢- القراءات التفسيرية، مفهومها وأنواعها. د. خالد بن علي الغامدي، بحث مقدم للترقية، منشور في مجلة مركز تطوير التعليم جامعة عين شمس العدد: ١٦ عام ١٤٢٩هـ.

يدور البحث حول مجيء كثير من القراءات المقبول منها والمردود على جهة التفسير للمعنى، وهي ما تسمى بالقراءات التفسيرية حسب رؤية الباحث، ولذلك أظهر البحث عدداً من القراءات المتواترة على أنها قراءات تفسيرية، ولذلك لم يشر البحث للقراءة المدرجة البتة بل حتى في ذكر أنواع القراءات التفسيرية فقد بنى تنوعها بحسب أثرها في السياق أو الحكم، بينما القراءة المدرجة هي التفسيرية عند الإطلاق كما سيأتي بإذن الله.

وأ خيراً فهذا البحث جهد المقل فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأسأل الله أن ينفع به قارئه، وأن يجعله خالصاً لوجهه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد:

القراءات الشاذة التعريف والأنواع:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف القراءات الشاذة لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: أنواع القراءات الشاذة.

المبحث الأول

تعريف القراءات الشاذة لغة واصطلاحاً:

لغة:

القراءات: جمع: قِرَاءة، وهو مصدر: "قَرَأ"، أي: تلا، وينتظمها معنى: الجمع والضم، تقول: "قرَأتُ الماءَ في الحوضِ، أي: جمعتُه فيه، ومعنى: "القرآن" معنى الجمع، لأنه يجمع الآيات والسور. [1].

الشُّذوذ: مصدر شذَّ يشُذُّ ويشِذُّ شَذاً وشُذوذاً[2]، أي: انفرد وندر عن الجمهور فهو: شاذّ، ويقول ابن فارس: "الشين والذال يدلُّ على الانفراد والمفارقة، شذَّ الشيء يشِذّ شذوذاً"[3]

يقال: "شذَّ الرجلُ إذا انفرَدَ عن أصحابِه، وكلُّ شيء مُنفَرِدٍ فهو شاذّ. [4].

وشذَّ الشيء: ندر عن الجمهور وخرج عنهم"[5].

فالشُّذوذ يدل على: الانفراد والندرة والمفارقة والخروج عن القاعدة والأصل[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة: ٥/ ٧٩، واللسان، مادة: قرأ.

(٢) انظر: مقاييس اللغة: ٣/ ١٨٠.

(٣) انظر: لسان العرب: مادة: "شذذ" ٨/ ٤٣.

(٤) انظر: لسان العرب: مادة: "شذذ" ٨/ ٤٣.

(٥) انظر: تاج العروس للزبيدي: مادة: "شذذ".

(٦) انظر: لسان العرب: مادة: "شذذ" ٨/ ٤٣.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: "ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار"، أي: انفرد عن الجماعة[١].

اصطلاحاً:

عرَّف العلماء القراءات الشَّاذة بعدة تعاريف، وسأذكر التعاريف الجامعة لأكثر أنواعها وهي كما يلي:

ذهب كثير من علماء القراءات إلى أن القراءة الشاذة هي: كل قراءة فقدت ركناً أو أكثر من أركان قبول القراءة، وهي: التواتر، –عند الجمهور– أو الشهرة أو الاستفاضة –عند ابن الجزري ومن معه– ورسم المصحف العثماني ولو احتمالاً، وموافقة وجه من وجوه العربية.

فكل قراءة فقدت ركناً أو أكثر من أركان القراءة المقبولة فهي شاذَّة[٢].

يقول ابن الجزري: "كلُّ قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمّن هو أكبر منهم"[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي: باب ما جاء في لزوم الجماعة، وانظر شرحه: تحفة الأحوذي: ٥/ ٤٥٧.

(٢) انظر: المرشد الوجيز لأبي شامة: ص ١٧٢، وغيث النفع للصفاقسي ص ٦، ٧، والقراءات القرآنية لقابه: ص ٢٠٢.

(٣) انظر: النشر ١/ ٩.

ويقول الإمام شهاب الدين أبو شامة: "كل قراءة ساعدها خط المصحف مع صحة النقل فيها، ومجيئها على الفصيح من لغة العرب، فهي قراءة صحيحة معتبرة، فإن اختلت هذه الأركان الثلاثة أطلق على تلك القراءة أنها شاذة أو ضعيفة"(١).

وعرّفها مكي وابن الجزري في المنجد: بما خالف رسم المصحف.

يقول مكي: مبيناً المردود من القراءات "ما صح نقله عن الآحاد وصح وجهه في العربية وخالف لفظه خط المصحف"(٢).

ويقول **ابن الجزري** في منجد المقرئين: "ما صحَّ سندُه، ووافق العربية، وخالف رسم المصحف ... فهذه القراءات تسمى اليوم شاذَّة"(٣).

- وعرفها **أبو عمرو بن الصلاح** بأنها: "ما نُقِل قرآناً من غير تواتر واستفاضة، متلقاة بالقبول من الأمة"(٤).

- **وعرفها أبو القاسم النويري**: بأن الشَّاذ ما نقل آحاداً، سواء كان بنقل ثقة عن ثقة أم لا، حصل مع الثقة شهرة واستفاضة أم لا".(٥)

- **وعرفها الإمام الصفاقسي** بأن الشَّاذ ما ليس بمتواتر(٦).

---

(١) انظر: المرشد الوجيز: ص ١٧٢.

(٢) انظر: الإبانة: ص ٥٨.

(٣) انظر منجد المقرئين: ص ٨٢، ولطائف الإشارات للصفاقسي: ص٧٢ .

(٤) انظر: منجد المقرئين: ص ٨٥.

(٥) انظر: القول الجاذ لمن قرأ بالشاذ للنويري: ص ٥٧، والقراءات الشاذة وضوابطها لعبد العلي المسؤول: ص ٤٤.

(٦) انظر: غيث النفع للصفاقسي: ص ١٤.

وتبعه عبد الفتاح القاضي حيث قال: "الشَّاذ عند الجمهور مالم يثبت بطريق التواتر"[١].

ومن خلال التأمل في تعاريف القراءة الشاذة السابقة ممكن القول بأن ضابط القراءة الشاذة هو: **فقدان التواتر، أو عدم الاستفاضة والقبول**.

وقد أجمع العلماء على أن ما وراء العشر يعتبر شاذاً، نقل ذلك النويري في شرح الطيبة، وقرره ابن الجزري في المنجد، والبنَّا في إتحاف فضلاء البشر[٢].

يقول ابن الجزري: "والذي وصل إلينا اليوم متواتراً وصحيحاً مقطوعاً به قراءات الأئمة العشرة، ورواتهم المشهورين ... ".[٣].

(١) انظر: القراءات الشاذة: ص ٧.

(٢) انظر: منجد المقرئين: ص ٨١، وشرح طيبة النشر: ١/ ١٣١، وإتحاف فضلاء البشر: ١/ ٧١.

(٣) – انظر: منجد المقرئين: ص ٩٩.

المبحث الثاني: أنواع القراءات الشاذة.

ومما سبق يتبين لنا أن القراءات الشاذة على أربعة أنواع:

١- القراءة التي صح سندها ووافقت العربية وخالفت الرسم العثماني.

قال ابن الجزري ممثلاً لهذا النوع: "قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء: "والذَّكَرِ والأنثَى"، وقراءة ابن عباس: "وكان أمامهم مَلِك يأخُذُ كلَّ سفينةٍ صَالحةٍ غَصْباً وأما الغُلامُ فكان كَافِراً" بإبدال: "ورَائِهِم" بإمَامِهم"، ونحو ذلك مما ثبت برواية الثقات"[١].

وقال ابن الجزري في منجده: "فهذه القراءة تسمى شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه، وإن كان إسنادها صحيحاً فلا تجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا في غيرها"[٢]

وقال مكي: "وما روي من قراءة ابن مسعود وغيره ليس لأحد أن يقرأ به اليوم – يعني مما خالف خط المصحف من ذلك".[٣].

وقد اعتمد بعض العلماء هذا النوع تعريفاً للقراءة الشاذة عموماً

(١) انظر: النشر:١/ ١٤.

(٢) انظر: منجد المقرئين: ص ٨٢.

(٣) انظر: الإبانة: ص ٦٢

كابن تيمية[١]، وابن الجزري في المنجد[٢]، ومكي بن أبي طالب[٣].

يقول ابن تيمية: "وأما القراءة الشَّاذة الخارجة عن رسم المصحف العثماني ... مثل قراءة عبد الله: "فصيامُ ثلاثةِ أَيام مُتَتَابعاتٍ" وكقراءته: "إن كانت إلا زَقْيَة واحدةً"، ونحو ذلك"[٤].

٢- القراءة التي صح سندها، ووافقت الرسم وخالفت العربية.

قال ابن الجزري: "ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السَّهو والغلط وعدم الضبط، ويعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون، وهو قليل جداً بل لا يكاد يوجد"[٥].

ويقول مكِّي في هذا النوع: "فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف"[٦].

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾[٧]، قرأ أبو عمرو "سَاحِرانِ تظَّاهرا" بتشديد الظاء[٨].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٩٣.

(٢) انظر: منجد المقرئين: ص ٨٢.

(٣) انظر: الإبانة: ص ١٠ - ١٠٣.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/٣٩٣/٣٩٤.

(٥) النشر ١/١٦.

(٦) الإبانة: ٥٩.

(٧) سورة القصص، الآية: ٤٨.

(٨) انظر: النشر ١/ ٢٠.

٣- القـراءة التـي لم يـصح سـندها وإن وافقـت العربيـة والرسـم العثماني.

وهي التي لم يصح نقلها بشكل يفيد القطع كأن نَقَلَها غير ثقة.

مثل قراءة ابن السَّمَيْفَع[(١)]، وأبي السَّمَّال[(٢)] وغيرهما في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [(٣)] بالحاء المهملة (نُنحِّيك)، وبفتح اللام في (خَلَفك)[(٤)].

٤ - القراءة التي وافقت الرسم والعربية ولم تنقل البتة.

يقـول ابـن الجـزري عـن هـذا النـوع: "فهـذا رده أحـقّ ومنعـه أشـدّ ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر، وقد ذُكِر جواز ذلك عن أبي بكر محمد بن الحسن بن مِقْسَم البغدادي[(٥)] .. وقد عقد له بسبب ذلـك مجلـس ببغـداد حضره الفقهاء والقراء وأجمعوا على منعـه، وأوقـف للـضرب فتـاب ورجـع وكتب عليه بذلك محضر"[(٦)].

(١) هو: محمد بن عبد الرحمن بن السميفع، أبو عبد الله اليماني، له اختيار في القراءة ينسب إليه شذَّ فيه قرأ على نافع وغيره، وقرأ عليه إسماعيل بن مسلم. طبقات القراء: ٢/ ١٦١.

(٢) هو: قعنب بن أبي قعنب، أبو السمال العدوي البصري، له اختيار في القراءة شذَّ فيه. غاية النهاية: ٢/ ٧٢.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٤) انظر: النشر ١/ ٢٠.

(٥) هو: محمد بن الحسن بن مقسم، أبو بكر البغدادي العطار الإمام المقرئ النحوي، مشهور بالضبط والإتقان، وله اختيار في القراءة. ت: ٣٥٤هـ. غاية النهاية: ٢/ ١٢٣.

(٦) انظر: النشر ١/ ٢٠.

وهناك من العلماء من جعل من أنواع القراءات الشَّاذة: القراءة الآحادية، ويقصدون بها: ما جاء بطريق الآحاد وصح سنده وخالف الرسم، وما جاء بطريق الآحاد ولم يصح سنده[١].

ومنهم من جعل القراءة الآحادية في مقابل الشَّاذة، وعرف الآحادية بأنها: "ما صح نقله عن الآحاد، وصح وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف"، وأن الشَّاذة مالم يصح سنده[٢].

ومما لا يدخل في أنواع القراءات الشاذة ما يلي:

-**القراءة الموضوعة**: وهي ما ينسب إلى قائله من غير نقل أصلاً، أو المكذوبة المختلقة المصنوعة المنسوبة إلى قائلها افتراء، وذلك مثل القراءة المنسوبة للإمام أبي حنيفة -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٣] برفع: "هاء" لفظ الجلالة، ونصب: "العلماء"، فهذه كما قال ابن الجزري: "فإنها لا أصل لها"[٤].

-**القراءة بالمعنى**: وهي استبدال بعض ألفاظ القرآن بألفاظ أخرى مرادفة لها في المعنى من لغة العرب.

قال ابن الصلاح: "وأمّا القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآنا فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلاً، والمجترئ على ذلك مجترئ على عظيم،

(١) انظر: الإبانة: ص ٦٢، والنشر: ١/ ١٤.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٢٠٨.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٤) انظر: النشر: ١/ ١٦.

وضال ضلالاً بعيداً"[(١)].

وأما القراءة المدرجة:

وهي ما زيد من القراءات على وجه التفسير، مثل قراءة ابن مسعود في قوله تعالى: "فَصِيامُ ثلاثةِ أيامٍ متتابعات" [(٢)] بزيادة: "متتابعات" عليها[(٣)].

فهي محلُّ بحثي وسأفصِّلها بإذنه تعالى.

(١) انظر: منجد المقرئين: ص ٨٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩. من قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٤٧، والبحر المحيط: ٤/ ١٢، ومنسوبة لأبي بن كعب في كتاب المصاحف: ١/ ١٨٢.

الفصل الأول:

القراءة المدرجة المفهوم والضابط

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف القراءة المدرجة لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: الكشف عن المدرج هل هو تفسير أم قراءة؟

المبحث الأول: تعريف القراءة المدرجة لغة واصطلاحاً.

لغة: الإدراج: لفظ مشتق من: "دَرَجَ"، وهو يعني الدخول والتضمين، ومنه قولهم: "أَدْرَجْتُ الشيء في الشيء أي أدخلته فيه، وضمَّنته إياه"[(١)].

ودَرَجَ الشيء في الشيء يُدْرِجُه دَرْجاً وأدْرجَه أي: طَوَاه وأَدْخَلَه [(٢)].

اصطلاحاً:

القراءة المدرجة: زيادة بين الكلمات القرءانية خولف بها خط المصحف جاءت على وجه التفسير[(٣)].

وسوف أسوق أقوال العلماء ممن صرَّح بلفظ الإدراج أو أشار إليه ضمناً:

صرَّح الإمام السيوطي بالقراءة المدرجة عند حديثه عن أنواع القراءات الشاذة: فقال رحمه الله " وظهر لي سادس يشبهه من أنواع الحديث المدرج هو: "ما زيد في القراءة على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص "وله أَخٌ أو أُختٌ مِن أم"، وقراءة ابن عباس: "لَيسَ علَيكُم جُناحٌ أن تبتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكم في مَواسِم الحج"، وقراءة ابن الزبير: "ولْتَكُنْ مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيرِ ويَأمُرونَ بالمعروفِ وينْهَونَ عَن المنكَرِ

(١) انظر: الصحاح للجوهري: ١/ ٤٦٤، ولسان العرب: ٥/ ٢٣٨.

(٢) انظر: لسان العرب: ٥/ ٢٣٨.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٢٠٨، والإدراج في علم مصطلح الحديث: "إدخال الراوي في سياق الحديث كلاماً من عنده، وهذا ما يسمى بالإدراج في المتن يرويه موصولاً بالحديث غير فاصل بينهما بذكر قائله .." انظر علوم الحديث لابن الصلاح: ص ٩٥.

ويَستَعِينُونَ بالله عَلى مَا أَصَابهم". [١].

وتبعه في هذا التعريف جملة من المعاصرين[٢].

وتُعَرَّف بالزيادة المفسِّرة أو التفسيرية، أو القراءة التفسيرية، أو قراءة تفسير، بل القراءة التفسيرية عند الإطلاق هي المدرجة، وهذا التعريف أطلقه الإمام أبو حيان في تفسيره، فكان كثيراً ما يتعقب القراءات المدرجة بقوله: "وهي قراءة تفسير لا قرآن، لمخالفتها السَّواد" [٣].

وأشار إلى هذا التعريف كذلك أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن حيث عقد باباً سماه: "باب الزوائد من الحروف التي خولف بها خط القرآن" وذكر جملة من القراءات المدرجة فقال: "وذلك كقراءة حفصة وعائشة: "حفظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر"، ومثل قراءة أبي بن كعب: "للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فيهن"، وكقراءة جابر فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم"، فهذه الحروف وأشباه لها كثير قد صارت مفسِّرة للقرآن، وقد كان يروى مثل هذا عن بعض التابعين في التفسير فيستحسن ذلك فكيف إذا روي عن لباب أصحاب محمد ﷺ، ثم صار في نفس القراءة، فهو الآن أكثر من

---

(١) الإتقان: ١/ ٢٠٨.

(٢) منهم الزرقاني في مناهل العرفان: ١/ ٤٢٩، ومناع القطان في مباحث في علوم القرآن: ص ١٧٩، وصبحي الصالح في مباحث في علوم القرآن: ص ٢٥٧، وأحمد البيلي في الاختلاف بين القراءات ص ١١١.

(٣) انظر: البحر المحيط: ٦/ ٣٩١، وروح المعاني للألوسي: ٧/ ٥٢.

التفسير وأقوى"[1].

والمحققون من علماء القراءات لم يصرِّحوا بتعريف المدرج مستقلاً بل مثَّلوا له ضمناً في أمثلة القراءات الشَّاذة فيما خالف خط المصحف.

فعند تقسيم ابن الجزري لأنواع القراءات الشاذة ذكر القراءة التي صح سندها، ووافقت العربية وخالفت الرسم، ومثَّل لها بقراءة مدرجة حيث قال: "ومثالها قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء: "والذكر والأنثى"، وقراءة ابن عباس: "وكان أَمَامَهم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ صَالحةٍ غَصْبا، وأما الغُلامُ فكان كَافِراً"، ونحو ذلك مما ثبت بنقل الثقات ... ".[2].

وقال في منجد المقرئين: "القسم الثاني من القراءة الصحيحة: ما وافق العربية وصح سنده وخالف الرسم كما ورد في الصحيح من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى، ونحو ذلك مما جاء عن أبي الدرداء، وعمر، وابن مسعود، وغيرهم، فهذه القراءات تسمَّى اليوم شاذّة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه".[3]

وقولنا: "المدرجة" قيد مخصوص يخرجها من عموم القراءات التي خالفت رسم المصحف بالتغيير والإبدال، وهي من قبيل التفسير، كالتي ذكرها ابن الجزري بقوله: "ومنها ما يكون لإيضاح حكم يقتضي الظاهر خلافه كقراءة: "فامضوا إلى ذكر الله"، فإن قراءة "فاسعوا" يقتضي ظاهرها

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد: ص ١٩٥ .

(٢) انظر: النشر:١/ ١٤.

(٣) منجد المقرئين: ص ٨٢.

المشي السريع، وليس كذلك فكانت القراءة الأخرى موضحة لذلك ورافعة لما يتوهم منه، ومنها ما يكون مفسِّراً لنا لما لعَلَّه لا يعرف مثل قراءة: "كالصُّوفِ المنْفُوش"[١].

فمثل هذه القراءات وإن كانت مخالفة لخط المصحف فهي مخالفة بالإبدال والتغيير، وليس بالزيادة والإدراج كما هو الحاصل في القراءة المدرجة، والإدراج هو الغالب في القراءة المفسِّرة.

والزيادة في القراءة المدرجة إما أن تكون حرفاً، أو كلمة، أو جملة.

فمثال المدرج الحرفي: ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ (عنه) إِذَا عَاهَدُوا ﴾[٢]. قرأ ابن مسعود بزيادة (عنه)[٣].

ومثال المدرج الكلمي: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً (في آخِرِهِم) مِنْهُمْ يَتْلُو ﴾[٤]، قرأ أبي بن كعب بزيادة (في آخِرِهم). [٥].

ومثال المدرج جملة: ﴿ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى (صَلاةِ العَصْر)﴾[٦]، قرأت عائشة رضي الله عنها بزيادة: (صلاة العصر) [٧].

---

(١) النشر: ١/ ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٣) انظر: مختصر شواذ القرآن: ص ١٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ٢/ ١٣١، والبحر المحيط: ١/ ٣٩٢.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٧) انظر: مختصر الشواذ: ص ٢٢.

أول من أطلق عليها مصطلح الإدراج:

أول من أطلق مصطلح الإدراج على القراءات المفسِّرة الزائدة على رسم المصحف هو الإمام السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن أثناء حديثه عن أنواع القراءات في باب عنون له بقوله: "النوع الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والعشرون: معرفة المتواتر والمشهور والآحاد والشاذ والموضوع والمدرج"، ثم قال:

" حيث قال: وظهر لي سادس يشبهه من أنواع الحديث المدرج وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص : "وله أخ أو أخت من أم""[1].

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٢٠٨.

المبحث الثاني:
هل المدرج تفسير أم قراءة شاذَّة؟.

لما أذن النبي ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم بكتابة القرآن ونهاهم عن كتابة شيء غيره اتخذوا رضي الله عنهم مصاحف خاصة كتبوا فيها القرآن فنسبت هذه المصاحف لهم، فيقال مصحف ابن مسعود، ومصحف عائشة، ومصحف أبي وهكذا.

وكان بين هذه المصاحف اختلافات سواء في ترتيب السور، أو التباين بالزيادة والنقص، أو تبديل كلمة بأخرى؛ لأنه قد عُلِم من شأنهم رضي الله عنهم أنهم كانوا يزيدون في خط هذه المصاحف زيادات مفسِّرة للمعنى لأمنهم من اللبس بالقراءة.

يقول ابن الجزري: "نعم كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه".[1].

وبعض هذه الزيادات المخالفة لخط المصحف كانت قراءة يقرءون بها بل تمسكوا بها لأنهم سمعوها من النبي صلى الله عليه وسلم، مع شذوذها بعد الجمع العثماني، يقول مكي: "وسقط العمل بالقراءات التي تخالف الخط فكأنها منسوخة بالإجماع على خط المصحف .. وتمادى بعض الناس

(١) النشر: ١/ ٣٢.

في القراءة بما يخالف خط المصحف مما ثبت نقله "[١].

ويقول أيضاً: "وما خالف خط المصحف هو أيضاً من السبعة إذا صحت روايته ووجهه في العربية، ولم يضاد معنى الخط"[٢].

ويقول ابن الجزري: "ونحن نقطع بأن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرءون بما خالف رسم المصحف العثماني قبل الإجماع عليه من زيادة كلمة أو أكثر، وإبدال أخرى بأخرى .." [٣].

فإذن ثبت لدينا أن مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم الخاصة تميزت بوجود بعض القراءات الزائدة المخالفة لمصحف عثمان رضي الله عنه، وتلك الزيادات انطرحت القراءة بها بعد إجماع الأمة على المصحف الإمام في عهد عثمان رضي الله عنه.

فإن الأمة أجمعت على القراءة بما وافق خط المصحف وترك ما سواه مما خالف خطه، كما نُقِل ذلك عنهم إذ يقول مكي: "إن هذه القراءات .. لا يخرج شيء منها عن خط المصاحف التي نسخها عثمان، وجمع المسلمين عليها، وساعده على ذلك زهاء اثني عشر ألفاً من الصحابة والتابعين.. – ثم قال – وسقط العمل بما يخالف المصحف من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن بالإجماع على خط المصحف"[٤].

---

(١) الإبانة: ص ٤٥.

(٢) الإبانة ص ٦٣ .

(٣) تقريب النشر لابن الجزري: ١/ ٢٩.

(٤) الإبانة – باختصار–: ص ٣٦.

ويقول ابن الجزري: "وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف – مصاحف عثمان رضي الله عنه – وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم، ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن ... وكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما صرح به غير واحد من أئمة السلف كمحمد بن سيرين، وعبيده السلماني، وعامر الشعبي"[١].

وثبت أن عثمان رضي الله عنه أحرق جميع مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم المكتوبة بزياداتها ونقصها جمعاً للأمة ودرءاً للفتنة، يقول ابن كثير نقلاً عن مصعب بن سعد قوله: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، ولم ينكر ذلك منهم أحد"[٢].

وجاء في كتاب المصاحف لابن أبي داود عن حذيفة رضي الله عنه قال: " وأرسل عثمان إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به، فذاك زمان حرقت المصاحف بالعراق بالنار"[٣].

وما روي عن ابن مسعود من رفضه لحرق مصحفه بقوله: "فكيف تأمروني أن أقرأ قراءة زيد ولقد قرأت من فيّ رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) النشر: ١/ ٧.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير: ص ٤٠.

(٣) كتاب المصاحف لابن أبي داود: ١/ ٧٢.

بضعاً وسبعين سورة ولزيد ذؤابتان يلعب بين الصبيان"(1)، فإنما كان ذلك شيء نتيجة غضب زال بزواله، يقول القرطبي: " قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشيء نتيجة الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان"(2).

وروى ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه أنه قال: "لو لم يصنعه عثمان لصنعته"،(3) وقال رضي الله عنه: "لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأ منا"(4).

فبعد هذا الإجماع نتساءل عن حال المدرج هل كان قراءة يقرأ بها ثم نسخت وانطرحت بعد العرضة الأخيرة، والجمع العثماني، أم كانت زيادة أدخلت للتأويل فظن من جاء بعدهم أنها قراءة.

الجواب: تعددت الأقوال في ذلك على نحو ما يأتي:

الرأي الأول:

ذهب أكثر المفسرين وبعض القراء إلى أن المدرج الزائد كان من التأويل الذي قُرِنَ بالقراءة، وأن جميع ما روي من القراءات الخارجة عن المصاحف محمول على التفسير، وحصل فيه عند بعض النقلة وهْمٌ فنقلوه

(1) كتاب المصاحف: ص ٢٢.

(2) تفسير القرطبي: ١/ ٥٣.

(3)كتاب المصاحف: ص ١٢.

(4)كتاب المصاحف: ص ٣٠.

على أنه قراءة وهو ليس كذلك.

يقول السيوطي: "وقراءة ابن الزبير: " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ - ويستعينون بالله على ما أصابهم -"، قال عمر: فما أدري: أكانت قراءته أم فسَّر ؟ أخرجه سعيد بن منصور، وأخرجه ابن الأنباري: وجزم أنه تفسير" [(١)].

يقول الشوكاني: "قال أبو بكر بن الأنباري: "وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلامٌ من كلامه غَلط فيه بعض الناقلين، فألحقه بألفاظ القرآن.

وقد رُوي أن عثمان قرأها كذلك، ولكن لم يكتبها في مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن"[(٢)].

ثم قال السيوطي: "وأُخْرِج عن الحسَن أنه كان يقرأ: "وإِن مِنكُم إلا وَارِدُها - الورود الدخول -"، قال ابن الأنباري: قوله: "الورُود الدخول" تفسير مِن الحسَن لمعنى: "الورود"، وغَلِط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن"[(٣)].

قال ابن حجر: "قال أبو العباس بن عمار: فأما ما خالفه – أي رسم المصحف – مثل: "أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج" فهي من

(١) الإتقان في علون القرآن للسيوطي: ١/ ٢٠٩، والأثر: أخرجه سعيد بن منصور في سننه، باب تفسير سورة آل عمران: ٣/ ١٠٨٤.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٢/ ٨.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٢٠٩، والأثر: أخرجه: الطبري في تفسيره: ١٥/ ٥٩١، والسيوطي في الدر المنثور: ٨/ ١٣٤.

القراءات التي صح السند بها، ولا يكفي صحة السند في إثبات كونها قرآناً، ولاسيما أن الكثير منها مما يحتمل أن يكون من التأويل الذي قُرِن إلى التنزيل فصار يظن أنه منه".[(١)] .

وقال كذلك ابن حجر: "وقراءة بن عباس: "في مواسم الحج" معدودة من الشاذ الذي صح إسناده وهو حجة وليس بقرآن"[(٢)].

قال ابن عطية في المحرر: "واستمر الناس على هذا المصحف المتخير وترك ما خرج عنه مما كان كُتب سداً للذريعة وتغليباً لمصلحة الألفة، وهي المصاحف التي أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن تحرق أو تخرق، فأما ابن مسعود فأبى أن يزال مصحفه فترك، ولكن أبى العلماء قراءته سداً للذريعة، ولأنه روي أنه كتب فيه أشياء على وجهة التفسير فظنها قوم من التلاوة فتخلط الأمر فيه ولم يسقط فيما ترك معنى من معاني القرآن لأن المعنى جزء من الشريعة، وإنما تركت ألفاظ معانيها موجودة في الذي أثبت"[(٣)].

ويقول القرطبي: "وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا – بعد ذكره لقراءات مدرجة – إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يتلى"[(٤)].

ويقول النووي: "وأما ابن مسعود فرويت عنه روايات كثيرة منها ما

(١) فتح الباري: ٩/ ٣٠.

(٢) فتح الباري: ٤/ ٢٩٠.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ٣٢.

(٤) تفسير القرطبي: ١/ ٨٦.

ليس بثابت عند أهل النقل، وما ثبت منها مخالفًا لما قلناه فهو محمول على أنه كان يكتب في مصحفه بعض الأَحكام والتفاسير مما يعتقد أنه ليس بقرآن، وكان لا يعتقد تحريم ذلك، وكان يراه كصحيفة يثبت فيها ما يشاء"(١).

ويقول الرازي: "كان يُقرأ: "والعصر - ونوائب الدهر - " إلا أنا نقول: هذا مفسد للصلاة، فلا نقول: إنه قرأه قرآنا بل تفسيراً"(٢).

وكان أبو حيان كثيراً ما يتعقَّب المدرج الزائد بقوله: "وهذه القراءة مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه، فينبغي أن يجعل تفسيراً، وكذلك ما ورد عن ابن مسعود وعن غيره مما يخاف سواد المصحف"(٣).

يقول أبو حيان عند قوله تعالى: "أن بُورِكَ مَن في النَّار ومَن حولها" في قراءة: "ومن حولها - من الملائكة -"، قال: " وفُسِّر بالملائكة، ويدل عليه قراءة أبي فيما نَقَل أبو عمرو الداني وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: "ومن حولها من الملائكة"، وتحمل هذه القراءة على التفسير، لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه"(٤).

وقال: "وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وابن الزبير: "فضلا من ربكم في مواسم الحج"، والأولى جعل هذا تفسيراً، لأنه مخالف لسواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة"(٥).

---

(١) شرح النووي على مسلم: ٣/ ١٨١.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي: ٣٢/ ٢٧٧.

(٣) البحر المحيط: ١/ ٢٦٠.

(٤) البحر المحيط: ٨/ ٢١٢.

(٥) البحر المحيط: ٢/ ٢٩٣.

وقال ابن عطية: "وقوله تعالى: "ما على المحسنين من سبيل".. الآية، في لائمة تناط بهم أو تذنيب أو عقوبة، ثم أكَّد الرجاء بقوله: "والله غفور رحيم"، وقرأ ابن عباس «والله - لأهل الإساءة - غفور رحيم»، قال القاضي أبو محمد: وهذا على جهة التفسير أشبه منه على جهة التلاوة لخلافه المصحف"(١).

وقال أبو حيان: "وقراءة ابن عباس: "واللهّ - لأهل الإساءة - غفور رحيم" على سبيل التفسير، لا على أنه قرآن لمخالفته سواد المصحف"(٢).

ويقول عبد الصبور شاهين: "وقد ورد في القراءات الشاذة من هذا النوع – يقصد المدرج وأمثاله – روايات كثيرة جداً فيها اختلاف بالزيادة والنقصان، ولا ريب لدينا أنها لا تعد قرآناً بل هي قراءات تفسيرية ... وهي لا تثبت قرآناً بل هو من المدرج الذي أقحم في النص تفسيراً وبياناً"(٣).

الرأي الثاني:

وذهب بعض المحققين من علماء القراءات أنها من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وهي من القراءات التي كان مأذوناً في قراءتها توسعة في أول الأمر، ثم نسخ منها ما نسخ في العرضة الأخيرة، وانطرح ما بقي بعد الإجماع على المصحف العثماني.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية: ٣/ ٢٩٢.

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٤٨٣.

(٣) تاريخ القرآن الكريم لعبد الصبور شاهين: ص ١٢٢.

يظهر ذلك من خلال التأمل في أمرين:

-**الأول**: في كلام المحققين من علماء القراءات كمكي بن أبي طالب، وأبي شامة المقدسي، وابن الجزري رحمهم الله وغيرهم، فنجد أنهم لا ينفون كونها قراءةً كان يقرأ بها، بل لم يشيروا أنها كانت من قبيل التفسير وليس القراءة.

-**الثاني**: من **خلال** النظر في بعض الكتب المسندة التي نقلت قراءاتٍ مدرجة نجدها قد أسندتها بلفظ: (قرأ).

١ - عند التأمل في كلام ابن الجزري نجده مثَّل بالقراءة المدرجة في النوع الثاني من أنواع القراءات الشاذة، فذكر القراءة التي صح سندها، ووافقت العربية وخالفت الرسم، ومثَّل لها بقوله قال: "ومثالها قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء: "والذكر والأنثى"، وقراءة ابن عباس: "وكان أَمَامَهم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ صَالحةٍ غَصْبا، وأما الغُلامُ فكان كَافِراً"، ونحو ذلك مما ثبت بنقل الثقات ... ".[1].

ثم هو يقول بعد ذلك "ولاشك أن القرآن نسخ منه وغير فيه في العرضة الأخيرة، فقد صح النص بذلك عن غير واحد من الصحابة ... وإذا ثبت ذلك فلا إشكال أن الصحابة كتبوا في هذه المصاحف ما تحققوا أنه قرآن، وما علموه استقر في العرضة الأخيرة، وما تحققوا صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم مما لم ينسخ، وإن لم تكن داخلة في العرضة

(١) انظر: النشر: ١/ ١٤.

الأخيرة، ولذلك اختلفت المصاحف بعض اختلاف".[1].

ويقول: "وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم، ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن ..."[2].

ويقول في المنجد: "فثبت من ذلك أن القراءة الشاذة ولو كانت صحيحة في نفس الأمر، فإنها مما كان أُذِن في قراءته ولم يتحقق إنزاله، وأن الناس كانوا مخيرين فيها في الصدر الأول، ثم أجمعت الأمة على تركها للمصلحة، وليس ذلك خطر ولا إشكال لأن الأمة معصومة من أن تجتمع على خطأ".[3]

ويقول: "نصَّ كثير من العلماء على أن الحروف التي وردت عن أبي، وابن مسعود وغيرهما مما يخالف هذه المصاحف منسوخةٌ، ... وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه، .. نعم كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً لأنهم محققون لما تلقوه ... لكن ابن مسعود رضي الله عنه كان يكره ذلك ويمنع منه، فروى مسروق عنه أنه كان يكره التعشير في القرآن، وروي عنه: "جردوا القرآن ولا تلبسوه به ما ليس منه"[4].

---

(١) النشر: ١/ ٣٢.

(٢) النشر: ١/ ٧.

(٣) انظر: منجد المقرئين: ص ٩٩.

(٤) النشر: ١/ ٣٢. وروى هذا الأثر عن ابن مسعود عبد الرزاق في مصنفه ومن طريقه رواه =

وقال في المنجد مصرحاً بكونها تسمى قراءة شاذة: " ما ورد في الصحيح من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى ونحو ذلك مما جاء عن أبي الدرداء، وعمر، وابن مسعود وغيرهم فهذه القراءات تسمى اليوم شاذّة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه".(١).

ويقول في تقريب النشر: "ونحن نقطع بأن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرءون بما خالف رسم المصحف العثماني قبل الإجماع عليه من زيادة كلمة، أو أكثر وإبدال أخرى بأخرى .." (٢).

وكذلك مثل ابن الجزري بالقراءة المدرجة عند حديثه في غاية النهاية عن ابن شنبوذ لما كان يقرأ بالقراءة الشاذة التي صح سندها وخالفت خط المصحف، فأورد بعض الآيات التي كان يقرأ بها فذكر منها قراءات مدرجة: "كل سفينة صالحة غصبا"، "تبت يدا أبي لهب وقد تب"، "فلما خرَّ تبينت الإنس أنَّ الجنَّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين"، "وينهون عن المنكر ويستغيثون الله على ما أصابهم وأولئك هم المفلحون"(٣).

وقد عدَّ ابن الجزري القراءة المدرجة من أمثلة ما يتوجه إليه اختلاف

= الطبراني في معجمه ومن طريق ابن أبي شيبة رواه إبراهيم الحربي في كتابه غريب الحديث وقال قوله: "جردوا" يحتمل فيه أمران: أحدهما: أي: جردوه في التلاوة، ولا تخلطوا به غيره، والثاني: أي: جردوه في الخط من النقط والتعشير. انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤٧٩.

(١) منجد المقرئين: ص ٨٢.

(٢) تقريب النشر لابن الجزري: ١/ ٢٩.

(٣) انظر: غاية النهاية لابن الجزري: ٢/ ٥٥.

الأحرف السبعة فقال: "وأما على أي شيء يتوجه اختلاف هذه السبعة فإنه يتوجه على أنحاء ووجوه، مع السلامة من التضاد والتناقض ... فمنها ما يكون لبيان حكم مجمع عليه، كقراءة سعد بن أبي وقاص وغيره: "وله أخٌ أو أختٌ من أمّ "[(١)].

وقال في بيان معنى الأحرف السبعة: "والسابع أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو: "وهذا أخي له تسع وتسعون نعجة أنثى"[(٢)].

وقال ابن قتيبة: "وقرأ بعض السلف: إِنَّ هذا أَخي له تسعٌ وتِسْعُون نَعْجَةً أنثى، "إِنَّ الساعةَ آتيةٌ أَكادُ أُخفيها من نفسي فكيف أظهِرُكم عليها.

فكل هذه الحروف كلام اللهّ تعالى نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن فيحدث اللهّ إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء، وييسّر على عباده ما يشاء." [(٣)].

وقال مكي في حديثه عن القراءات التي خالفت خط المصحف: "إن القراءات التي وافقت خط المصحف هي من السبعة الأحرف .. وما خالف خط المصحف أيضاً هو من السبعة إذا صحَّت روايته ووجهه في العربية، ولم يضاد معنى خط المصحف"[(٤)].

---

(١) النشر: ١/ ٢٨.

(٢) النشر: ١/ ٢٨.

(٣) انظر: تأويل مشكل القرآن: ١/ ٣٢، والنشر: ١/ ٢٨.

(٤) انظر: الإبانة: ص ٦٣.

ويقول أبو شامة: "قلت: وقال قوم: السبعة الأحرف منها ستة مختلفة الرسم، كانت الصحابة تقرأ بها إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، نحو الزيادة، والألفاظ المرادفة، والتقديم والتأخير نحو: "إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي"، يأخذ كل سفينة صالحةٍ غصباً"، "والعصر ونوائب الدهر"، "وله أخ أو أخت من أم"، "وما أصابك من سيئة فمن نفسك إنا كتبناها عليك""(١).

ويقول أبو بكر السرخسي: "وقد كانت هذه قراءة مشهورة إلى زمن أبي حنيفة- يعني: قراءة ابن مسعود: فصيام ثلاثة أيام متتابعات" - ولكن لم يوجد فيها النقل المتواتر الذي يثبت بمثله القرآن، وابن مسعود لا يشك في عدالته وإتقانه، فلا وجه لذلك إلا أن نقول كان ذلك مما يتلى في القرآن كما حفظه ابن مسعود رضي الله عنه ثم نسخت تلاوته في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بصرف الله القلوب عن حفظها إلا قلب ابن مسعود؛ ليكون الحكم باقياً بنقله"(٢).

٢- من خلال النظر في بعض الكتب المسندة والتي نقلت قراءاتٍ مدرجة نجدها أسندتها بلفظ: (قرأ).

ففي عدد من المصادر المسندة من كتب القراءات والتفسير والحديث وغيرها وردت قراءات مدرجة منسوبة لبعض الصحابة والتابعين ومعزوة

---

(١) انظر: المرشد الوجيز: ص ١١١.

(٢) انظر: أصول السرخسي: ٢/ ٨١.

بلفظ الإقراء، فعلى سبيل المثال:

في قراءة: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"(١)، بزيادة: "متتابعات"، وردة مسندةً منسوبةً لأبي بن كعب رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: "قرأ" في كتاب المصاحف لأبي داود، وفضائل القرآن لأبي عبيد، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير الطبري، والسنن الكبرى للبيهقي، والمستدرك للحاكم، وقال عنها: "وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أنه كان يقرأها: "فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام – متتابعات –" وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ومصنف بن أبي شيبة، ومصنف عبد الرزاق وغيرهم(٢).

الرأي الثالث:

هو: التوقف في الحكم العام على القراءات المدرجة بأن كانت قرآناً يُقرأ به، ثم شذت إما بنسخها في العرضة الأخيرة، أو بإجماع الصحابة على مرسوم خط مصحف عثمان رضي الله عنه، أو كانت تفسيراً أدخل لبيان المعنى.

فلا يجزم بقرآنيتها ولا بعدم قرآنيتها.

ويظهر ذلك من خلال التأمل في أقوال بعض الأئمة ومن ذلك ما يلي:

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٨٩.

(٢) تفسير عبد الرزاق الصنعاني: ٢/ ٢٤، ومصنف ابن أبي شيبة: ٣/ ٤٢٩، ومصنف عبد الرزاق: ٨/ ٥١٣، والمصاحف لأبي داود: ١/ ١٦٣، وفضائل القرآن لأبي عبيد: ١/ ٢٩٨، وتفسير الطبري: ٨/ ٦٥٢، والسنن الكبرى للبيهقي: ١٠/ ٥٩، والمستدرك للحاكم: ٢/ ٣٠٣.

- نقل مكي عن ابن جرير الطبري توقفه في الحكم على القراءات المخالفة لخط المصحف فقال: "قال ابن جرير في كتاب القراءات: "كل ما صح عندنا من القراءات أنه علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته من الأحرف السبعة التي أذن الله له، ولهم أن يقرءوا بها القرآن، فليس لنا أن نخطئ من قرأ به إذا كان ذلك موافقاً لخط المصحف، فإن كان مخالفاً لخط المصحف لم نقرأ به، ووقفنا عنه وعن الكلام فيه"(١).

ومما يُفهم مِن كلامه التوقف كذلك ابن عبد البر حيث قال: "وأجمع العلماء أن ما في مصحف عثمان بن عفان – وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا – هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحلُّ الصلاة لمسلم إلاَّ بما فيه، وأن كل ما روي من القراءات في الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن أبيّ أو عمر بن الخطاب أو عائشة أو ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهم من الصحابة مِمَّا يخالف مصحف عثمان المذكور لا يقطع بشيء من ذلك على الله عز وجل"(٢) .

قلت: ومن الممكن أن نخلص إلى ملاحظة أمرين:

---

(١) انظر: الإبانة: ص ٦٠.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبد البر: ٤/ ٢٧٩، وممن نقل التوقف وأيده من المعاصرين د. محمد بازمول في كتابه القراءات وأثرها في التفسير: ١/ ١٥٧، بينما يقول في شرحه لأصول التفسير لابن تيميه ما يخالف ما ذهب إليه إذ يقول: "وكتاب: (المصاحف) لأبي داود فيه ذكر مصاحف الصحابة، ويتضمن كثيراً من الآيات التي كانت في مصاحفهم وتخالف الرسم العثماني، وذلك عند العلماء محمول على أنها – في غلبة الظن – من الأحرف السبعة". شرح المقدمة باختصار ص ٢٣٠.

الأول: أن ما ورد من هذه الزيادات المدرجة مثبتاً في الكتب المسندة والمعنية بذكر الشواذ بلفظ: "قرأ"، أو ما اشتق منها فهو مما كان منزلاً ومأذوناً في قراءته ثم نُسِخ في العرضة الأخيرة، أو تُرِك بعد الإجماع على المصحف العثماني، ثم تركه الصحابة في مصاحفهم على جهة التفسير والبيان للمعنى، فهذا يطلق عليه: "قراءة شاذة"، وحكمه حكم التفسير.

ثانياً: وما ورد منسوباً إلى مصحف من مصاحف الصحابة، أو التابعين ولم يكن مقروناً بلفظ: "قرأ" فالأولى حمله على التفسير، وخاصة إن كان السياق يوحي بذلك[1].

(١) انظر: القراءات الشاذة دراسة صوتية دلالية: ٢/ ٧٥٥، القراءات الشاذة د. الصغير: ص ٣٥.

الفصل الثاني:

علاقة القراءة المدرجة بالتفسير والقراءات الشاذة:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: علاقة القراءة المدرجة بالتفسير، وأثرها في المعنى.

المبحث الثاني: علاقتها بالقراءة الشاذة.

المبحث الأول:
علاقة القراءة المدرجة بالتفسير وأثرها في المعنى.

هذه الزيادات المدرجة المقروء بها في غالبها تعد زياداتٍ مفسِّرة وموضحة للمعنى، بل هي من عيون التفسير، لأن أقل شأنها أنها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لثبوت سماعها منه، لأن الناقل جازم بذلك.

يقول الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام: "والقصد من هذه القراءات إنما أراد أهل العلم منها أن يستشهدوا بها على تأويل ما بين اللوحين، وتكون دليلاً على معرفة معانية وعلم وجوهه، وذلك كقراءة حفصة وعائشة: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر"، ومثل قراءة أبي بن كعب: "للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فيهن "، وكقراءة جابر فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم"، فهذه الحروف وأشباه لها كثير قد صارت مفسِّرة للقرآن.

وقد كان يروى مثل هذا عن التابعين في التفسير فيستحسن، فكيف إذا روي عن كبار الصحابة ثم صار في نفس القراءة فهو أكثر من التفسير وأقوى فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف معرفة التأويل".[1].

فالقراءة المدرجة وإن لم يكن مقطوعاً بقرآنيتها فتعدُّ خبر آحادٍ منقولاً عنه صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن، فهي إن لم تكن من باب تفسير القرآن بالقرآن فهي فحينئذ تعد من باب تفسير القرآن بالسنة إذا صرَّح

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد: ١/ ١٩٥.

الصحابي برفعها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإن لم يصرح برفعها فعلى أقل أحوالها تكون من باب تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم[١].

فأخذ المفسِّر بها أولى من أخذه عمن دون الصحابة من المفسرين، يقول مجاهد: "لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت"[٢].

ويقول الإمام القرطبي : "أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقران، ولا يعمل بها على أنها منه، وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه، كقراءة ابن مسعود: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"، فأما لو صرَّح الراوي بسماعها من رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاختلف العلماء في العمل بذلك على قولين: النفي والإثبات، وجه النفي أن الراوي لم يروه في معرض الخبر بل في معرض القرآن، وما لم يثبت فلا يثبت.

والوجه الثاني: أنه وإن لم يثبت كونه قرآناً فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد"[٣].

ويقول ابن قدامة: "ولنا في قراءة أبي وعبدالله بن مسعود: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات" .. وهذا إن كان قرآناً فهو حجة لأن كلام الله الذي لا

(١) انظر: القراءات وأثرها في التفسير: ١/ ٣٧٦.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٥٤، وضوابط استعانة المفسر بالقراءات: ص ٢١.

(٣) انظر تفسير القرطبي: ١/ ٤٧.

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن لم يكن قرآناً فهو رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم إذ يحتمل أن يكونا سمعاه من النبي صلى الله عليه وسلم تفسيراً فظناه قرآناً فثبتت له رتبة الخبر، ولا ينتقص عن درجة تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للآية وعلى كلا التقديرين فهو حجة يصار إليه"[1].

ويقول ابن حجر: "فهي – يقصد قراءة ابن عباس: في مواسم الحج – على هذا من الشاذ الذي صح إسناده، وحكمها عند الأئمة حكم التفسير"[2].

وقد أخذ جمهور المفسرين بالقراءة المدرجة في تقوية المعنى، أو في إضافة معنى جميلٍ، أو في ترجيح رأي، كابن جرير الطبري، وابن عطية، والإمام القرطبي، وأبي حيان، وذلك لكونها تتيح للمفسر فهم الآية بشكل أدق، بل قد توضح ما قد يكون غامضاً قبل معرفتها، بل بنوا عليها معانٍ تفسيرية، واختلافات فقهية في تفاسيرهم كمثل قراءة سعد بن أبي وقاص" وله أخ أو أخت: من أم" وقراءة ابن عباس: "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج" وقراءة ابن مسعود: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"[3].

---

(١) المغني لا بن قدامة: ٨/ ٧٥٢.

(٢) فتح الباري: ٣/ ٣٩٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير الطبري: ٣/ ٥٠٤، وتفسير القرطبي: ٢/ ٤١٣، والبحر المحيط: ٢/ ٢٩٣.

وإليك بعض الآثار للقراءة المدرجة في تفسير المعنى .

١ – بيانها لحكم مجمع عليه كما في قراءة سعد بن أبي وقاص: "وله أخ أو أخت من أم"[١] التي دلت على أن المقصود بالإخوة هنا للأم فقط، وعليه إجماع العلماء.

يقول ابن قدامة: ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾ المراد بهذه الآية: الأخ والأخت من الأم بإجماع أهل العلم، وفي قراءة سعد بن أبي وقاص وله أخ أو أخت من أم"[٢].

ويقول ابن عبد البر: "فقد أجمع العلماء أن الإخوة في هذه الآية عنى بهم الإخوة للأم، ... وقد روي عن بعض الصحابة أنه كان يقرأ" "وله أخ أو أخت من أم" فدل هذا مع ما ذكرنا من إجماعهم على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم خاصة"[٣].

يقول ابن الجزري: " فإن هذه القراءة تبين أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، وهذا أمر مجمع عليه، ولذلك اختلف العلماء في المسألة المشركة وهي: زوج وأم، أو جدة واثنان من إخوة الأم، وواحد أو أكثر من إخوة الأب والأم، فقال: الأكثرون من الصحابة وغيرهم بالتشريك بين

(١) سورة النساء، الآية: ١٢، من قوله تعالى:﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ﴾.

(٢) انظر المغني لابن قدامة: ٧/ ٥..

(٣) انظر التمهيد لابن عبد البر: ٥/ ١٩٩.

الإخوة لأنهم من أم واحدة، وهو مذهب الشافعي ومالك وغيرهم.

وقال جماعة من الصحابة وغيرهم بجعل الثلث لإخوة الأم ولا شيء لإخوة الأبوين لظاهر القراءة الصحيحة، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه الثلاثة، وأحمد..". [1].

٢ – بيانها لحكم اختُلِف فيه وترجيحها له كما في قراءة:"أو تحرير رقبة مؤمنة"[2] بزيادة: (مؤمنة) التي دلت على ترجيح اشتراط الإيمان في الرّقبة في كفارة اليمين، كما ذهب إليه الشافعية والمالكية وغيره، ولم يشترطه أبو حنيفة، أما القراءة المتواترة فليس فيها ما يرجح هذا الشرط". [3].

٣ – تقييدها للمطلق، كما في قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"[4]، فقد ذهب مالك والشافعي إلى جواز صيام الثلاثة الأيام متفرقة أو متتابعة[5].

وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى اشتراط التتابع،واستدلا بقراءة ابن مسعود[6].

(١) النشر: ١/ ٢٨، وانظر المسألة في: الحاوي للماوردي: ٨/ ٩١، والمجموع للنووي: ١٦/ ٨٢، وتفسير القرطبي: ٥/ ٧٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩، من قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

(٣) انظر: المسألة في: المغني: ١١/ ٢٦٣، والحاوي للماوردي: ١٥/ ٣٢٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٥) انظر: بداية المجتهد: ١/ ٤١٨، ونهاية المحتاج: ٨/ ١٣٨.

(٦) انظر: الهداية مع فتح القدير: ٥/ ٨١، والمغني: ٨/ ٧٥٢.

يقول ابن قدامة: "ولنا في قراءة أبي وعبدالله بن مسعود: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات" .. وهذا إن كان قرآناً فهو حجة لأن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإن لم يكن قرآناً فهو رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم"[١].

٤ – دفعها لما يتوهم من إشكال في الآية.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾[٢].

هذه الآية دائرة بين احتمالين لا مرجح لأحدهما على الآخر، فقيل: إن المقصود أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله وحده، أما الراسخون في العلم فإنهم يؤمنون به ويسلّمون بأنه من عند الله، فجملة: "والراسخون في العلم" جملة مستأنفة.

وقيل: إن المقصود أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه قائلين آمنا به.

ورجح بعض المفسرين القول الثاني: ومنهم الربيع، وابن قتيبة، وأبو سليمان الدمشقي[٣].

في حين أن جمهور المفسرين اختاروا القول الأوّل، وهو أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، وممن قال بذلك ابن مسعود، وابن

---

(١) المغني لا بن قدامة: ٨/ ٧٥٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري: ٥/ ٢٢١، وزادا لمسير: ١/ ٣٥٤.

عباس، وأبيّ بن كعب، وعروة، وقتادة وغيرهم[١].

ومن أبرز ما رجح به المفسّرون قول الجمهور ودفعوا به الإشكال في معنى الآية: القراءة المدرجة لابن عباس وهي: (ومَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إلا اللهَ (ويقول) الرَّاسِخُونَ في العِلم آمنا به" [٢].

والقراءة المدرجة لابن مسعود: "وإنَّ حقيقةَ تَأوِيلِه إلا عندَ اللهِ والرَّاسِخُونَ في العِلم يقُولُونَ آمنا به"[٣].

يقول السيوطي: "قلت: ويدل لصحة مذهب الأكثرين ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، والحاكم في مستدركه، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: "وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به"، فهذا يدل على أن الواو للاستئناف؛ لأن هذه الرواية وإن لم تثبت بها القراءة فأقل درجاتها أن تكون خبراً بإسناد صحيح إلى ترجمان القرآن فيقدم كلامه في ذلك على من دونه.

ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوّضوا العلم إلى الله، وسلّموا إليه كما مدح الله المؤمنين بالغيب"[٤]..

(١) جامع البيان للطبري (٣/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) انظر: جامع البيان: ٥/ ٢٢١، والبحر المحيط: ٣/ ٢٩.

(٣) انظر:كتاب المصاحف لابن أبي داود ص ٦٧، والمحرر الوجيز: ١/ ٣٨٢، وضوابط استعانة المفسر بالقراءات: ص ٧٣.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن:٢/ ٨، والأثر أخرجه عبد الرزاق في مصنفه:١/ ١٩٦، والحاكم في مستدركه:٢/ ٣١٧.

المبحث الثاني:
علاقة القراءة المدرجة بالقراءات الشاذة.

إذا سلّمنا بأن القراءة المدرجة كانت قرآناً قُرئ به في الصدر الأول ثم نسخت فعلى هذا تكون قراءة شاذة مما خالف رسم المصحف، يجري عليها ما قيل في حكم القراءات الشاذة المخالفة لخط المصحف.

ومن خلال استعراض كتب القراءات نجد أنهم يعاملون القراءة المدرجة معاملة القراءات الشاذة عموماً في الاحتجاج بها في الأحكام والتفسير، وفي حكم الصلاة بها، بل يمثلون بها في الاستدلال على ذلك، وإليك أقوالهم في ذلك:

حكم الاحتجاج بالقراءة المدرجة في الأحكام.

لابد أن يعلم أولاً أن أكثر العلماء من الفقهاء والأصوليين مجمعون على أن ما خرج عن نص المصحف مما نقل آحاداً لا يسمى قرآناً، لأن ما يقطع بكونه قرآناً هو المتواتر.

يقول ابن قدامة: "فلنعلم أن المكتوب في المصحف هو القرآن، وما خرج عنه فليس منه، إذ يستحيل في العرف والعادة مع توافر الداعي على حفظ القرآن أن يهمل بعضه فلا ينقل أو يخلط به ما ليس منه"(١).

ويقول ابن عبد البر: "إن كل ما روي من القراءات في الآثار عن النبي ﷺ، أو عن أبيّ أو عمر ابن الخطاب أو عائشة أو ابن مسعود أو ابن عباس

(١) انظر: روضة الناظر: ١/ ٦٣.

أو غيرهم من الصحابة مِمَّا يخالف مصحف عثمان المذكور لا يقطع بشيء من ذلك على الله عز وجل"(١).

ويقول برهان الدين الجويني: "إن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعوا في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما بين الدفتين، واطرحوا ما عداه، وكان ذلك عن اتفاق منهم،.. وكل زيادة لا تحويها الأم ولا تشمل عليها الدفتان فهي غير معدودة في القران"(٢).

فإذا تقرر ذلك فنتساءل عن المدرج الزائد المخالف لخط المصحف هل يحتج به في الأحكام الشرعية أم لا؟.

هذه المسألة اختلف فيها الفقهاء على قولين:

القول الأول: أنها حجة يجوز العمل بها.

وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وطائفة من أصحاب الشافعي، ومذهب الحنابلة، وهو اختيار ابن تيمية، والسبكي، والزركشي، وابن الجزري(٣).

القول الثاني: أنها ليست بحجة ولا يجوز العمل بها.

وهو مذهب جمهور المالكية، وطائفة من الشافعية، وحُكي رواية عن الإمام أحمد(٤).

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر: ٤/ ٢٧٩.

(٢) انظر: البرهان في أصول الفقه: ١/ ٤٢٨ .

(٣) انظر أقوال العلماء في ذلك: أصول السرخسي: ١/ ٢٨١، وروضة الناظر: ١/ ١٨١، وشرح الكوكب المنير: ٢/ ١٣٨، وإرشاد الفحول: ص ٢٧.

(٤) انظر: روضة الناظر: ١/ ١٨١، وشرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٥، ومجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٩٤، =

فالمذهب الأول حجتهم: أنها تنزل منزلة خبر الآحاد، لأنها وإن لم تكن قرآناً، إلا أن الناقل لها عدل، ولو نقلها خبراً لوجب قبول خبره، ولا يلزم من انتفاء خصوص قرآنيته انتفاء عموم خبريته(١).

يقول الطوفي: "المنقول آحاداً، نحو: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"، حجة عندنا، وعند أبي حنيفة، خلافاً للباقين، فهو قرآن، أو خبر، وكلاهما يوجب العمل"(٢).

ويقول ابن اللحام: "قراءة بن مسعود في كفارة اليمين: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات" هل هي حجة أم لا؟، فمذهبنا ومذهب أبى حنيفة أنها حجة يحتج بها وذكره ابن عبد البر إجماعاً"(٣).

واشترط الحنابلة للاحتجاج بها صحة السند، قالوا: إن الناقل جازم بالسماع من النبي صلى الله عليه وسلم فصدروه عنه إما على جهة تبليغ الوحي فيكون قرآناً، أو على جهة تفسيره فيكون خبراً، وكليهما يوجب العمل(٤).

ولذلك احتجوا بما نقل عن مصحف ابن مسعود: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"، باشتراط التتابع في كفارة اليمين، وقالوا: لأنه إما قرآن أو خبر

= والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٣٣٧، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨.

(١) انظر: روضة الناظر: ١/ ١٧٠، وشرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٥، والقراءات القرءانية لعبد الحليم قابة: ص ٢١٢.

(٢) انظر: شرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٥.

(٣) انظر: القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام الحنبلي: ١/ ٢١٤.

(٤) انظر: شرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٥.

وكلاهما موجب للعمل، وهو مذهب الحنفية وقول للشافعية، وهو الصحيح من مذهب الحنابلة(١).

بل انبروا للرد على القائلين بعدم صحة الاحتجاج بها في قولهم: إنه لا يصح الاحتجاج بالنص القرآني إلا بما ثبت على وجه التواتر؛ لأنه إذا لم يكن متواتراً لم يكن قرآناً، وإذا لم يصح كونه قرآناً لم يصح التعلق به.

فقالوا: وإن لم يصح كونها قرآناً إلا أنها تجري مجرى خبر الواحد في وجوب الاحتجاج بها، لا سيما الناقل لها مقطوع العدالة(٢).

وقد حمل الحنفية قراءة ابن مسعود على أنها كانت قرآناً يتلى ثم نسخت، وما لم يكن قرآناً لا يجوز نسخه، وبالنسخ لم تبق متواترة.

ويقع على القراءة المدرجة ما اشترطوه عندهم في الاحتجاج بالقراءة الشاذة عموماً وهو أن تتوفر فيها الشهرة والاستفاضة.

يقول أبو بكر السرخسي: "وقد كانت قراءة – ابن مسعود: فصيام ثلاثة أيام متتابعات – مشهورة إلى زمن أبي حنيفة، ولكن لم يوجد فيها النقل المتواتر الذي يثبت بمثله القرآن، وابن مسعود لا يشك في عدالته وإتقانه، فلا وجه لذلك إلا أن نقول كان ذلك مما يتلى في القرآن كما حفظه ابن مسعود رضي الله عنه، ثم نسخت تلاوته في حياة رسول الله ﷺ، بصرف الله القلوب عن حفظها إلا قلب ابن مسعود؛ ليكون الحكم باقياً بنقله، فإن

(١) انظر: الهداية مع فتح القدير: ٥/ ٨١، والحاوي: ١٥/ ٣٢٩، والمغني: ١٣/ ٥٢٨، ومختصر الروضة: ٢/ ٢٥.

(٢) انظر: أصول السرخسي: ١/ ٢٨١، والحاوي: ١٥/ ٣٣٠.

خبر الواحد موجب للعمل به، وقراءته لا تكون دون روايته، فكان بقاء هذا الحكم بعد نسخ التلاوة بهذا الطريق"[١].

ولهذا لم يعملوا بقراءة أبي بن كعب المدرجة: "فعدة من أيام أخر متتابعات"، لأنها مدرجة شاذة غير مشهورة.

يقول الزيلعي: "فإن قيل قراءة أبي: "فعدة من أيام أخر متتابعات"، قلنا قراءة أبي ليست بمشهورة، فلا يجوز التخصيص بها، بخلاف قراءة ابن مسعود –المدرجة – في كفارة اليمين لأنها مشهورة"[٢].

أما المذهب الثاني فحجتهم: أن هذه الزيادات المدرجة التي جاءت في مصحف ابن مسعود وغيره من المصاحف غير متواترة، فهي ليس بقرآن.

يقول أبو حامد الغزالي: "التتابع في صوم كفارة اليمين ليس بواجب .. وإن قرأ ابن مسعود: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات"؛ لأن هذه الزيادة لم تتواتر فليست من القرآن، فتحمل على أنه ذكرها في معرض البيان لما اعتقده مذهبا"[٣].

واحتجوا بأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما بين الدفتين واطرحوا ما عداه، وكان ذلك عن اتفاق منهم .. وكل زيادة لا تحويها الأم، ولا تشمل عليها الدفتان فهي غير معدودة في القرآن.

---

(١) أصول السرخسي: ٢/ ٨١.

(٢) انظر: تبيين الحقائق للزيلعي الحنفي: ١/ ٣٣٦.

(٣) انظر: المستصفى لأبي حامد الغزالي: ١/ ١٩٤.

وإن كان الراوي نقله على أنه قرآن فهو خطأ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب عليه تبليغ القرآن إلى جماعة يحصل العلم بخبرهم، ولا يخرج من عهدة التبليغ بتبليغ الواحد(١).

ويقول الإمام النووي: - "في حديثة عن القراءة المدرجة المنسوبة لعائشة رضي الله عنها: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر" – "هكذا هو في الروايات: "وصلاة العصر" بالواو، واستدل به بعض أصحابنا على أن الوسطى ليست صلاة العصر؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، لكن مذهبنا أن القراءة الشاذة لا يحتج بها"(٢).

ويقول ابن العربي: "المسألة الرابعة والعشرون: قوله تعالى: "فصيام ثلاثة أيام" قرأها ابن مسعود وأبي: "متتابعات": وقال مالك والشافعي يجزئ التفريق، وهو الصحيح، إذ التتابع صفة لا تجب إلا بنص، أو قياس على المنصوص، وقد عدما في مسألتنا"(٣).

وأجيب عن قولهم: "بأن نقل الصحابي له قرآناً خطأ"، فهذا لا يضر لعدالة الصحابة وتحريهم فيما ينقلون، إذ يلزم منه نفي كونه قرآناً، لا أنه ليس بخبر، وإذا ثبت أنه خبر مرفوع كان كافياً في اعتباره حجة يجب العمل به.

وأما قولهم: "بأنه متردد بين الخبر وبين كونه مذهباً له"، فقيل: إن

(١) انظر: البرهان للجويني: ١/ ٤٢٧، والأحكام للآمدي: ١/ ١١٤.

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ٥/ ١٣٠.

(٣) انظر: أحكام القرآن: ٣/ ٢٨٢.

احتمال كونه خبراً راجح لشدة تحريهم في الصدق، فلا يمكن للصحابي أن ينسب رأي نفسه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان مذهباً له لصرح به[(١)].

الراجح من الأقوال:

إن الرأي الراجح، هو ما ذهب إليه جمهور العلماء أصحاب القول الأول، وهو صحة الاحتجاج بالقراءات المدرجة، وذلك لأن ما يرويه الصحابي إما أن يكون قرآنًا، أو يكون خبرًا، فإن كان قرآنًا صير إليه، وإن لم يكن قرآنًا فالأصل أنه خبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام يجب المصير إليه.

حكم الصلاة بالقراءة المدرجة.

لقد اتفقت المذاهب الفقهية المشتهرة من المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية على عدم جوز القراءة بالمدرج مما خالف خط المصحف في الصلاة وخارجها، وقد حكى ابن عبد البر الإجماع في ذلك حيث يقول: "يقول الإمام مالك: "من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يصل وراءه، ثم قال: وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك، إلا قوماً شذّوا لا يعرج عليهم"[(٢)].

ويقول المرداوي: "وإن قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان لم تصح

(١) انظر هذه الأقوال في: أصول السرخسي: ١/ ١٨١، وروضة الناظر: ١/ ٢٧١، وشرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٧.

(٢) انظر: التمهيد لا بن عبد البر: ٨/ ٢٩٢.

صـلاته، وتحـرم لعـدم تواترهـا، وهـذا هـو المـذهب وعليـه جماهير الأصحاب"[1].

وأما عن صحة الصلاة بها فللعلماء فيها تفصيل على ثلاثة أقوال:

القول الأول:

جمهور العلماء على بطلان الصلاة بالمدرج مما خالف خط المصحف الإمام[2].

وحجتهم في ذلك: أنَّها وإن ثبتت بالنقل إلا أنها لم تنقل إلينا نقلاً يثبت بمثله قرآن؛ لأنها نسخت بالعرضة الأخيرة، أو بإجماع الصحابة على المصحف العثماني، والتعبد إنما يكون بالقرآن.

قال ابن قدامة: "فأما ما يخرج عن مصحف عثمان – رضي الله عنه – كقراءة ابن مسعود وغيرها فلا ينبغي أن يقرأ بها في الصلاة، لأن القرآن ثبت بطريق التواتر، وهذه لم يثبت التواتر بها، فلا يثبت كونها قرآنًا"[3].

وقال كذلك: "وإن قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان لم تصح صلاته"[4].

وجاء في المدونة أنه: "سئل مالك عن رجل صلى خلف رجل يقرأ

---

(١) انظر: الإنصاف للمرداوي: ٢/ ٤٣.

(٢) انظر: روضة الناظر: ١/ ١٨١، وشرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٥، ومجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٩٤، والبرهان في علوم القرآن: ١/ ٣٣٧، والاتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨.

(٣)- انظر: المغني: ١٢/ ٣٥٨.

(٤) انظر: الشرح الكبير: ١/ ٥٣٤.

بقراءة ابن مسعود؟ قال: يخرج ويدعه ولا يأتمَّ به" [١].

ويقول السرخسي: " قالت الأئمة: لو صلى بكلمات تفرد بها ابن مسعود لم تجز صلاته، لأنه لم يوجد فيه النقل المتواتر، وباب القرآن باب يقين وإحاطة، فلا يثبت بدون النقل المتواتر كونه قرآنا، وما لم يثبت أنه قرآن فتلاوته في الصلاة كتلاوة خبر، فيكون مفسداً للصلاة"[٢].

القول الثاني:

من العلماء من جوَّز القراءة بالمدرج الزائد على خط المصحف في الصلاة، إذا صح سنده وحجتهم أن الصحابة والتابعين كانوا يقرءون بهذه الحروف الزائدة في الصلاة وغيرها، وهذا أحد القولين لأصحاب الشافعي، وأبي حنيفة وأحد الروايتين عن مالك، وأحمد [٣].

يقول ابن قدامة: "فأما ما يخرج عن مصحف عثمان كقراءة ابن مسعود وغيرها ... إن قرأ بشيء منها مما صحت به الرواية، واتصل إسنادها ففيه روايتان: إحداهما: لا تصح صلاته لذلك، والثانية: تصح؛ لأن الصحابة كانوا يصلون بقراءتهم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، وكان صلاتهم صحيحة بغير شك، وقد صحّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أحبّ أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد".

---

(١) انظر: المدونة الكبرى: ١/ ٨٤، ومنجد المقرئين: ص ٨٢.

(٢) انظر: أصول السرخسي: ١/ ٢٨٠

(٣) انظر: روضة الناظر: ١/ ١٨١، وشرح مختصر الروضة: ٢/ ٢٥، ومجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٩٤.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر وهشام بن حكيم حين اختلفا في قراءة القرآن فقال: "اقرءوا كما علِّمتم"، وكان الصحابة رضي الله عنهم قبل جمع عثمان المصحف يقرءون بقراءات لم يثبتها في المصحف، ويصلون بها لا يرى أحد منهم تحريم ذلك، ولا بطلان صلاتهم به"[1].

القول الثالث:

من العلماء من ذهب إلى التوسط في ذلك فقالوا: "إن قرأ بها في القراءة الواجبة وهي الفاتحة عند القدرة على غيرها لم تصح صلاته؛ لأنه لم يتيقن أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك.

وإن قرأ بها فيما لا يجب لم تبطل لأنه لم يتيقن أنه أتى في الصلاة بمبطل؛ لجواز أن يكون ذلك من الحروف التي أنزل عليها القرآن"[2].

قال أبو البركات ابن تيمية: "إنه إن قرأ بهذه القراءات في القراءة الواجبة وهي الفاتحة عند القدرة عليها لم تصح صلاته؛ لأنه لم يتيقن أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك، وإن قرأ بها فيما لا يجب لا تبطل صلاته؛ لأنه لم يتيقن أنه أتى في الصَّلاة بمبطل بجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التي أنزل عليها القرآن"[3].

الراجح من الأقوال:

والراجح من الأقوال والله أعلم هو القول الأول: أن الصلاة بالقراءة

---

(١) المغني: ١٢/ ٣٥٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٣/ ٣٩٨، ونقله ابن الجزري في النشر: ١/ ١٥.

(٣) مجموع الفتاوى:١/ ٣٩٨، وانظر: النشر: ١/ ١٩.

المدرجة الزائدة على خط المصحف لا تصح؛ لأن شرط المقروء في الصلاة أن يكون قرآناً، وهذه لم يثبت كونها كذلك، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر".

الخاتـمة

وبعد فإنني أحمد الله عز وجل على ما منّ به علـيّ ووفقنـي بـه مـن إتمـام تحرير هذا البحث: «**القراءة المدرجة المفهوم والأثر**».

ومِن خلال معايشتي لهذا البحـث، ثـم وقُـوفي عـلى فـصوله وجزئياتـه ومحاولاتي للاستناد لكثير مما أستطيع الاعتماد عليه مـن أقـوال ونقـولات لأهل العلم موثقة فإني أسجّل للقـارئ الكـريم أهـم النتـائج والتوصـيات التي توصّلت إليها فأقول: - مستعيناً بالله -

١- تعدد أنـواع القـراءة الـشاذة فمنهـا مـا خـالف خـط المـصحف الإمـام، ومنها ما فقد التواتر.

٢- شذوذ كثـير مـن القـراءات المقـروء بهـا في الـصدر الأول بعـد العرضـة الأخيرة، وبعد الإجماع على المصحف العثماني.

٣- القراءة المدرجة هي نوع مـن أنـواع القـراءات الـشاذة، لمخالفتهـا خـط المصحف، وإن اختلف القول في أصلها ومصدرها.

٤- القراءة المدرجة حكمها حكم التفسير، بل هي زيادة تفسيرية تعـد مـن عيون التفسير، وإن اختلف القول كذلك في أصلها ومصدرها.

٥- القراءة المدرجة لها أثرها ومنزلتها في تعدد المعنى وترجيح الأحكام .

٦- ثبوت كتابة الصحابة رضوان الله علـيهم لزيـادات تفـسيرية وقـراءات منسوخة في مصاحفهم مخالفة لخط المصحف الإمام.

٧- ثبـوت إحـراق الـصحابة رضـوان الله علـيهم لمـصاحفهم واجتماعهم على المصحف الإمام.

وأسأل الله أن يجعل عمَلي خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به وعموم المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس المراجع

- **القرآن الكريم**، برواية حفص عن عاصم.
- **الإبانة عن معاني القراءات**، لمكي بن أبي طالب القيسي، (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط. الثالثة، ١٤٠٥هـ، المكتبة الفيصلية: مكة المكرمة.
- **إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع**، لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، (ت٦٦٥هـ)، تحقيق الشيخ: محمود عبد الخالق جادو، ط. الجامعة الإسلامية ١٤١٣هـ.
- **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**، لشهاب الدين أحمد بن محمد البنّا الدمياطي، (ت١١١٧هـ)، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب بيروت، ط: الأولى ١٤٠٧هـ.
- **الإتقان في علوم القرآن**، لجلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق: سعيد المندوه، دار الفكر، بيروت ط . الأولى ١٤١٦ هـ .
- **إرشاد المريد إلى مقصود القصيد**، لعلي الضباع، (ت١٣٧٦هـ)، ط. مكتبة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٨١هـ.
- **أصول السرخسي**، لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي، ت: أبو الوفا الأفغاني، دار الكتاب، القاهرة ١٣٧٢هـ.
- **الإضاءة في بيان أصول القراءة**، للشيخ على الضباع، (ت١٣٧٦هـ)، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، ط: الأولى ١٤٢٠هـ.
- **الإحكام في أصول الأحكام**، علي الآمدي، ت: سيد الحميلي، دار الكتاب، بيروت ١٤١٢هـ

- **أحكام القرآن،** لابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله، **ت:** علي البجاوي، دار المعرفة بيروت
- **إعراب القراءات السبع وعللها،** لابن خالويه الحسين بن أحمد، (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤١٣هـ.
- **إعراب القراءات الشواذ،** لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، (ت٦١٦هـ)، تحقيق: محمد السيد عزوز، عالم الكتب، ط: الأولى ١٤١٧هـ.
- **البحر المحيط،** لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، (ت٧٥٤هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ورفقاه، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٣هـ.
- **البدور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة،** للشيخ عبد الفتاح القاضي، (ت ١٤٠٣هـ)، مكتبة الدار بالمدينة النبوية، ط: الأولى ١٤٠٤هـ.
- **البرهان في علوم القرآن،** لبدر محمد بن عبد الله الزركشي، (٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ط: الثانية.
- **التبصرة في القراءات السبع،** لمكّي بن أبي طالب القيسي، (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد غوث الندوي، الدار السلفية، ط: الثانية، ١٤٠٢هـ.
- **تحبير التيسير في القراءات العشر،** لشمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري، (٨٣٣هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان، الأردن، ط: الأولى ١٤٢١هـ.
- **التذكرة في القراءات الثمان،** لأبي الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون، (ت٣٩٩هـ)، تحقيق: د. أيمن سويد، طبع الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن

الكريم بجدة، ط: الأولى، ١٤١٢هـ.
- تفسير الطبري = جامع البيان (حرف الجيم).
- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (حرف الجيم).
- تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق التنزيل (حرف الكاف).
- تفسير الشوكاني = فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية (حرف الفاء).
- **تفسير القرآن العظيم**، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، (٧٧٤هـ)، دار الفكر، ومراجعة نخبة من العلماء بدار الكتب المصرية.
- تلخيص العبارات بلطيف الإشارات، في القراءات السبع، لأبي علي الحسن بن خلف بن بلّيمة، (ت٥١٤هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط: الأولى ١٤٠٩هـ.
- **التخليص في القراءات الثمان**، لأبي معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري، (٤٧٨هـ)، تحقيق: د. محمد حسن عقيل موسى، طبع الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بجدة، ط: الأولى ١٤١٢هـ.
- **التيسير في القراءات السبع**، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، (ت٤٤٤هـ)، عني بتصحيحه: أوتوبرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٦هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) تحقيق: محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤٢١هـ.
- الجامع الصحيح = سنن الترمذي (حرف السين).

- الجامع الصحيح للبخاري = صحيح البخاري (حرف الصاد).
- الجامع الصحيح لمسلم = صحيح مسلم (حرف الصاد).
- **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (ت٦٧١هـ)، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى، ١٤١٤هـ.
- **جزء فيه قراءات النبي ﷺ**، لأبي حفص بن عمر الدوري، (ت ٢٤٦هـ)، تحقيق: د. حكمت بشير ياسين، مكتبة الدار بالمدينة النبوية، ط: الأولى ١٤٠٨هـ.
- **جمال القراء وكمال الإقراء**، لعلم الدين السخاوي، (ت٦٤٣هـ)، تحقيق: د. على حسن البواب، مطبعة المدني القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٨هـ.
- **حجة القراءات**، لابن زنجلة عبد الرحمن بن محمد، (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الخامسة ١٤١٨هـ.
- **حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع**، (متن الشاطبية)، للقاسم بن فيرة الشاطبي، (ت٥٩٠هـ)، ضبط: محمد تميم الزعبي، مكتبة دار الهدى، المدينة النبوية.
- **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، لأحمد بن يوسف، المعروف بـ"السمين الحلبي"، (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط: الأولى من عام ١٤٠٦هـ، إلى ١٤١٥هـ.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ط: الأولى ١٩٩٣م.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني**، لأبي الفضل محمود الألوسي، (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث، بيروت.

- **روضة الناظر وجنة المناظر،** لابن قدامة المقدسي، دار المعارف، الرياض ص: الثانية: ١٤٠٤هـ.
- **زاد المسير في علم التفسير،** لأبي الفرج بن الجوزي، (ت٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط: الأولى ١٣٨٤هـ .
- **السبعة في القراءات،** للإمام أبي بكر بن مجاهد، البغدادي، (ت٣٢٤هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- **سنن ابن ماجة،** لمحمد بن يزيد، (ت ٣٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- **سنن أبي داود سليمان بن الأشعث،** (ت٢٧٥هـ)، ومعه شرحه: عون المعبود، دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤١٩هـ.
- **سنن الترمذي،** لمحمد بن عيسى الترمذي، (٢٧٩هـ)، ومعه شرحه: تحفة الأحوذي للمباركفوري، مطبعة المدني، القاهرة، ط. القاهرة، ط: الثانية ١٣٨٤هـ.
- **سنن النسائي،** أحمد بن علي، (ت٣٠٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.
- **شرح الدرة المضية، (للنويري)،** للإمام محمد بن محمد النويري، (ت٨٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرافع بن رضوان الشرقاوي، مكتبة الرشد، ط: الأولى ١٤٢٤هـ.
- شرح شعلة = كنز المعاني (حرف الكاف).
- **شرح طيبة النشر في القراءات العشر.** لأبي القاسم محمد بن محمد النويري، (ت٨٥٧هـ)، تحقيق: الدكتور مجدي محمد باسلوم، مكتبة عباس أحمد الباز،

مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٢٤هـ.
- **شرح طيبة النشر في القراءات العشر**. للإمام شهاب الدين أبي بكر أحمد بن محمد الجزري الدمشقي، (ت ٨٣٥هـ)، تحقيق: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٨هـ.
- **شرح الهداية،** لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي، (ت٤٤٠هـ)، تحقيق: د. حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، ط: الأولى ١٤١٦هـ.
- **شرح مختصر الروضة،** لنجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، (ت٧١٦هـ)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: الثانية: ١٤١٩هـ.
- **شعب الإيمان،** لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٠هـ.
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،** لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: محمد نبيل طريفي، رزميله، دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤٢٠هـ.
- **صحيح البخاري،** محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦هـ)، مع فتح الباري، تصحيح وتحقيق: محبّ الدين الخطيب، وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط: الأولى ١٤٠٧هـ.
- **صحيح ابن حبان،** محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، (ت٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ.
- **صحيح مسلم،** لأبي الحسين بن مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت ٢٦١هـ)، مع شرحه: المنهاج شرح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العرب،

بيروت، ط: الثانية ١٣٩٢هـ.

- **صفحات في علوم القراءات**، عبد القيوم بن عبد الغفور السندي، دار البشائر الإسلامية، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة، ط: الثانية ١٤٢٢هـ.
- **العنوان في القراءات السبع**، لأبي طاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري، (ت٤٥٥هـ)، تحقيق: د. زهير زاهد، وزميله، عالم الكتب، ط: الأولى ١٤٠٥هـ.
- **علم القراءات**، د. نبيل بن محمد آل إسماعيل، مكتبة التوبة، ط: الأولى: ١٤٢١هـ.
- **غاية النهاية في طبقات القراء**، لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، (ت٨٣٣هـ)، عني بنشره: ج. براجستراسر، دار الكتب العلمية، ط: الثالثة ١٤٠٢هـ.
- **الغاية في القراءات العشر**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران، (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: محمد غياث الجنباز، ط: الثانية ١٤١١هـ.
- **غيث النفع في القراءات السبع**، لعلي الصفاقسي، بهامش: سراج القارئ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- **فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير**، لمحمد بن علي الشوكاني، (ت١٢٥٠هـ)، دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
- **الفتح الرحماني شرح كنز المعاني**، للشيخ سليمان الجمزوري، (ت بعد١٢٠٨هـ)، تحقيق: عبد الرازق علي إبراهيم موسى، بيت الحكمة، القاهرة، ط: الأولى ١٤١٤هـ.
- **فتح الوصيد في شرح القصيد**، للشيخ علم الدين أبي الحسن علي السخاوي،

(٦٤٣هـ)، ت: د. مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد، ط. الأولى: ١٤٢٣هـ.

- **القاموس المحيط**، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط: السادسة ١٤١٩هـ.
- **القراءات وأثرها في التفسير والأحكام**، محمد عمر بازمول، دار الهجرة، ط: الأولى ١٤١٧هـ.
- **القراءات القرآنية تاريخ وتعريف**، لعبد الهادي الفضلي، نشر مكتبة دار المجتمع العلمي بجدة، ١٣٩٩هـ.
- **القراءات القرءانية**، لعبد الحليم قابة، دار الغرب الإسلامي ط: ١، ١٩٩٩م.
- **القراءات الشاذة ضوابطهاوالاحتجاج بها**، لعبد العلي المسؤول،دارابن القيم، ط: ١، ١٤٢٩هـ.
- **القراءات الشاذة دراسة صوتية دلالية**، حمدي سلطان العدوي، دار الصحابة بطنطا، ط: الأولى: ١٤٢٧هـ.
- **قلائد الفكر في توجيه القراءات العشر**، لقاسم الدجوي، مكتبة محمد علي صبيح.
- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ورفقاه، مكتبة العبيكان، ط: الأولى ١٤١٨هـ.
- **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، لأبي محمد مكّي بن أبي طالب، (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة،

ط: الخامسة ١٤١٨

- **الكنز في القراءات العشر**، لعبد الله بن عبد المؤمن الواسطي، (ت٧٤٠هـ)، تحقيق: هناء الحمصي، دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤١٣هـ.
- **كنز المعاني شرح حرز الأماني**، لمحمد بن أحمد الموصلي، المعروف: "بشعلة" (ت٦٥٦هـ)، المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٨هـ.
- **لسان العرب**، لجمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط: الأولى ٢٠٠٠م .
- **لطائف الإشارات لفنون القراءات**، للإمام شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، (ت٩٢٣هـ)، تحقيق: الشيخ عامر السيد عثمان، و د. عبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط: الأولى ١٣٩٢هـ.
- **لوامع الغرر شرح فرائد الدرر في القراءات الثلاث.**
- **المبسوط في القراءات العشر**، لأبي بكر ابن مهران، (ت٣٨١هـ)، تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن بيروت، ط: الثانية ١٤٠٨هـ.
- **المبسوط للسرخسي**، شمس الدين أحمد بن محمد، (ت٤٩٠هـ)، تصحيح: الشيخ محمد راضي الحنفي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- **مجاز القرآن**، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢١٠هـ)، تحقيق: فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، ط: الثانية ١٤٠١هـ.
- **مجموع الفتاوى لابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، جمع: عبد الرحمن بن محمد القاسم، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، تحت

إشراف وزارة الشؤون الإسلامية، بالمملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.

- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، لأبي الفتح عثمان بن جنّي (ت٣٩٢ هـ)، دراسة: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٩
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، مطابع فضالة بالمحمدية، المغرب، ط: الثالثة ١٤٠٣هـ.
- **مختصر في شواذ القرآن** من كتاب البديع، لابن خالويه، (ت٣٧٠هـ)، اعتنى به: آثر جفري، عالم الكتب.
- **المدونة الكبرى**، للإمام مالك بن أنس، رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي، دار الفكر، ط: الأولى ١٤١٩هـ.
- **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**، لشهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، (ت٥٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار وقف الديانة التركي، أنقرة، ط: الثانية ١٤٠٦هـ.
- **المستدرك على الصحيحين**، لمحمد بن عبد الله الحاكم، (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤١١هـ.
- **المستصفى في علم الأصول**، لأبي حامد الغزالي، تعليق، إبراهيم رمضان، ط: دار الأرقم بيروت.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، (ت٢٤١هـ)، إشراف: د. عبد الله عبد المحسن التركي، والشيخ: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ.

- **المعجم الأوسط**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ط: ١٤١٥هـ.
- **المعجم الكبير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (ت٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار العلوم والحكم، ط: الثانية ١٤٠٤هـ.
- **معرفة القراء الكبار**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، أنقرة، ط: الأولى ١٤١٦هـ.
- **المغنى في توجيه القراءات العشر**، د. محمد سالم محيسن، دار الجيل، ط: الثالثة ١٤١٣هـ.
- **المغني في الفقه**، لابن قدامة، (ت٦٢٠هـ)، تحقيق: د. عبد الله التركي، د. عبد الفتاح الحلو، توزيع وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، ط: الثالثة ١٤١٧هـ.
- **مقاييس اللغة**، لأحمد بن زكريا، (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة الرياض، دار الجيل ١٤٢٠هـ.
- **منجد المقرئين ومرشد الطالبين**، لأبي الخير محمد ابن الجزري، (ت٨٣٣هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ط: الأولى ١٤١٩هـ.
- **الموطأ** للإمام مالك بن أنس، (ت١٧٩هـ)، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- **النشر في القراءات العشر**، لأبي الخير محمد ابن الجزري، (ت٨٣٣هـ)، تصحيح: الشيخ علي محمد الضباع، دار الفكر للطباعة.

اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم
الأساليب، والحكم، والفوائد

إعداد

د. العباس بن حسين الحازمي

د. العباس بن حسين الحازمي

- أستاذ مساعد بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- حصل على درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته: (الهداية في القرآن الكريم دراسة موضوعية).
- حصل على درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (تحقيق غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني للكوراني من أول الحجر إلى آخر الحج).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[3].

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٢.

(٢) سورة النساء، آية ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٧٠ – ٧١.

أما بعد:

فإن المتدبر في كتاب الله تعالى، والمتأمل في حِكَمه وأحكامه ستتبدى له في كل جولة من جولات التدبر عبر ومواعظ شتى.

ومن ذلك أنه ليس شيء في القرآن وقع مصادفة أو بلا حكمة أو غاية، بل هو تنزيل من حكيم حميد.

وتلك الحكم والعبر والعظات ربما ظهرت لأناس دون آخرين وربما خفيت على الناس أجمعين.

وقد جاء هذا البحث ضمن تلك المحاولات المتعددة التي يقوم بها أهل الاختصاص في تلمس بعض الأحكام والحكم والفوائد من جراء اقتران بعض الألفاظ والمعاني بشكل لافت في القرآن الكريم.

وأكثر ما لفت انتباه المتقدمين والمتأخرين من ألفاظ مقترنة وكلمات متلازمة هو لفظ (الصلاة والزكاة).

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (ولهذا وغيره كثر القِران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله)(1).

ويقول أيضًا – رحمه الله –: (وأما قَرْنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدًا)(2).

ويقول المظهري – رحمه الله –: (ويؤيده أن القرآن والحديث إذا ذكر

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٥٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٣٩٩.

فيهما الصلاة فالغالب ذكر الزكاة بعدها)[1].

وفي شرح متن خليل – رحمه الله –: (.... ولما أنهى الكلام على الصلاة والزكاة اللذين لم يقعا في القرآن إلا مقرونين....)[2].

ويقول ملا علي القاري – رحمه الله –: (وقرن بينهما في القرآن كثيرًا)[3].

وأكد هذا الأمر من المتأخرين الشيخ ابن سعدي – رحمه الله – حيث يقول: (وكثيرًا ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن)[4].

ويقول أيضًا: (قد تقدم مرارًا أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة)[5].

ويقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله –: (وهما أختان في كثير من آيات القرآن)[6].

ولقد أوصل بعض المصنفين عدد مرات الاقتران بين الصلاة والزكاة في القرآن الكريم مقترنة إلى أكثر من اثنين وثمانين آية.

وقد وقفت أثناء عملي في هذا البحث على كتاب بعنوان: "منة الحليم المنان في اقتران ألفاظ القرآن" لمؤلفيه الدكتور أحمد العجمي والشيخ محمد

(١) فيض القدير ١/ ١٢٨.

(٢) شرح خليل للخرشي ٢/ ٢٣٣.

(٣) مرقاة المفاتيح ١/ ٢٠٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤١).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣٣١).

(٦) التحرير والتنوير ١/ ٢٣٦.

خليل.

وهو محاولة أولية لفتح باب التدبر للألفاظ المقترنة في القرآن الكريم، ولكن مجال بحثي هذا وهو اقتران الصلاة والزكاة لم ينل العناية الكامنة من الباحثين الكريمين، إذ لم يتعد حديثهما عنه صفحتين وبضعة أسطر فقط من كتاب تجاوزت صفحاته ٣٤٩ صفحة.

لذلك فقد عزمت على الكتابة في هذا الموضوع مبينًا الحكم والفوائد من هذا الاقتران، مستفيدًا من أقوال أهل التفسير والحديث وغيرها من العلوم في رصد تلك الفوائد وتوضيحها ونشرها بين الناس. وسميت تلك الكتابة: (اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم – الأساليب والحكم والفوائد).

وهذا البحث يتكون من:

مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس.

تكلمت في المبحث الأول: عن عموم الألفاظ والمعاني التي ترد مقترنة في القرآن الكريم، وعن شيء من فوائد ذلك.

أما المبحث الثاني: فكان عن مواضع اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم وأساليب ذلك.

أما المبحث الثالث: فقد خصصته للحديث عن الفوائد والحكم والأحكام المستنبطة من ذلك الاقتران، مستفيدًا ذلك من كلام أئمة التفسير وجهابذة شراح الحديث.

ثم ختمت الدراسة بخاتمة بينت فيها أهم النتائج والتوصيات.

ثم فهرس المصادر والمراجع والموضوعات.

وقد سلكت في بحثي هذا المنهج التحليلي الاستقرائي.

وقمت بإتباع المنهج العلمي الآتي:

- قمت بعزو النقول والأقوال إلى مصادرها الأصلية.
- عزوت الآيات إلى سورها، مكتوبة بالرسم العثماني.
- قمت بتخريج الأحاديث والآثار والحكم عليها قدر المستطاع.
- ضبطت بالشكل ما يحتاج من النصوص.
- وفي الختام فهذا بحثي فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله وعونه وتسديده، وما كان من خطأ فمن الشيطان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

المبحث الأول
الألفاظ والمعاني التي ترد مقترنة في القرآن الكريم

يلفت نظر القارئ المتدبر للقرآن الكريم أنه في مواضع كثيرة يقترن معنيان أو أكثر أو لفظان فأكثر فلا تكاد تجدهما في القرآن إلا مقترنين.

يقول: الجاحظ: (وفي القرآن معانٍ لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة والمهاجرين والأنصار والجن والإنس....)[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة ثلاثة أمور: أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن.

والثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

والثالث: الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب؛ ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرًا كقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ٤٥) وكقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ

(١) البيان والتبيين ١/ ٢١.

لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود: ١١٤ن ١١٥) وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (طه: ١٣٠))[١].

ويقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله – بعد نقله لكلام الجاحظ: (قلت: والنفع والضر، والسماء والأرض)[٢].

ويتفاوت اقتران تلك المعاني والألفاظ قلة أو كثرة، على أن أكثرها عددًا المواضع التي اقترن فيها ذكر الصلاة والزكاة.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –:

(وأما قُرِنَه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدًا...)[٣].

ويقول أيضاً: (.... ولهذا ولغيره كثر القِران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله....)[٤].

ويقول ابن نجيم – رحمه الله –: (.... وقرنت الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين آيةً في كتاب الله تعالى....)[٥].

ولذلك أفردت الحديث عن مواضع اقتران الصلاة والزكاة في المبحث الثاني من هذا البحث، وخصصّت هذا المبحث لجولة عامة على

---

(١) السياسة الشرعية (٩٩).

(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٢٤.

(٣) السياسة الشرعية (٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/ ٢٢.

(٥) البحر الرائق ٢/ ٣٥٢.

سائر المعاني والألفاظ المقترنة في القرآن الكريم.

ولا شك أن تلك المعاني والألفاظ التي وردت مقترنة زادها ذلك الاقتران معنى على معناها الأصلي. يقول ابن تيميه – رحمه الله –: (... وذلك أن الاسم الواحد تختلف دلالته بالإفراد والاقتران فقد يكون عند الإفراد فيه عموم لمعنيين، وعند الاقتران لا يدل إلا على أحدهما ...)[1]

ومن تلك الموضوعات والألفاظ والمعاني المقترنة:

١ – **اقتران توحيد الله بالإحسان للوالدين:** يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (البقرة: ٨٣).

ويقول تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (النساء: ٣٦).

ويقول تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء: ٢٣).

يقول القرطبي رحمه الله: (.... وقرن الله عز وجل في هذه الآية (آية البقرة ٨٣) حق الوالدين بالتوحيد؛ لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني – وهو التربية – من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره، فقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ (لقمان: ١٤))[2].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيميه ٧/ ٥٥١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٢٩.

فأهمية حق الوالدين تلي في المنزلة حق الله عز وجل.

ولذلك يقول ابن كثير رحمه الله: (.... وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبدوه وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكثرهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى كثيرًا بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان: ١٤)، وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء: ٢٣).....)[١].

٢- اقتران الأمر بعبادة الله مع الإخلاص:

يقول تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ٢).

ويقول: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ١١).

ويقول:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (البينة: ٥).

فالعبادة لله لا تكفي وحدها لنجاة الإنسان بل لابد أن يقترن معها الإخلاص.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: (قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ ...... ﴾ (البينة: ٥) نهى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية، ومعلوم أن إخلاص النية

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣١٠.

للمعبود أصل لنية أصل العبادة؛ فإنه لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه عز وجل، ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين، وأن العمل الذي لم يُنْوَ به ليس بعبادة ولا مأمور به، فلا يكون فاعله متقربًا إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعًا)[1].

٣- اقتران ذم الخيلاء والفخر مع ذم البخل:

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ...... ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧).

ويقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ....﴾ (الحديد: ٢٣، ٢٤).

يقول ابن تيمية رحمه الله: (... قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ... ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧) في النساء والحديد، وضدُّ ذلك الإعطاء والتقوى المتضمنة للتواضع كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ (الليل: ٥)، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨).

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٨٩.

وهذان الأصلان هما جماع الدِّين العام، كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله. فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم. وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة، فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع له والذل له وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر. والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم وذلك مضاد للبخل. ولهذا وغيره كثر القِران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله)[1].

وفي هذا الكلام النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – نجد ربطًا مهمًا بين هذه الألفاظ والمعاني المقترنة والمتكررة في القرآن كالجمع بين الخيلاء والفخر وبين البخل مقابل الجمع بين التقوى وبين الإحسان اللذين هما كالنتيجة والمحصلة للصلاة والزكاة اللتين كثر الجمع بينهما في القرآن.

وبذلك يتضح السر في الجمع بين ذم الخيلاء والفخر وبين ذم البخل في المواضع المشار إليها.

٤- اقتران الإسلام بالإيمان:

يقول تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢).

ويقول تعالى: ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الروم: ٥٣).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٤/ ٢١٤.

ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٩).

والنصوص القرآنية التي عُبّر فيها عن الإسلام بالإيمان أو عن الإيمان بالإسلام كثيرة إلا أننا نقف هنا عند بعض النصوص التي يقترن فيها ذكر الإسلام بالإيمان، ويكون لذلك الاقتران دلالة كبيرة على اختصاص كل واحد منهما بمعنى لا غنى للآخر عنه.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (ومثل الإيمان والإسلام أيضًا كفسطاط قائم في الأرض، له ظاهر وأطناب، وله عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح، وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط، والعمود الذي في وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به، فقد احتاج الفسطاط إليهما، إذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما. كذلك الإسلام في أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام وهو صالح الأعمال.... فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر، ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر، وأن الإيمان والعمل قرينان، لا ينفع أحدهما بدون صاحبه)[1].

٥- اقتران الكفر بالله بالصد عن سبيل الله:

يقول تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ ٱلَّذِينَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/ ٣٢٥.

يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (إبراهيم: ٢، ٣).

ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: ٨٨).

ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد: ١).

وغيرها من الآيات، التي يقترن فيها وصف الكافرين بأضل أعمالهم وأشنعها وهو الصد عن سبيل الله وهذا الصد يمكن أن يكون بمعنى الانصراف عن الشيء والامتناع عنه والإعراض عنه. ويمكن أن يكون صرفًا ومنعًا للغير[١].

والصفات السيئة التي اتصف بها الكفار كثيرة، غير أن أكثرها اتساقًا مع الكفر، وتناسبًا مع أخلاقياته هي الصد عن سبيل الله، فإن هؤلاء الكفار لم يكتفوا بكفرهم فقط وإنما زادوا على ذلك بأن صدوا غيرهم فحملوهم على الكفر أيضًا، ولذلك كان النبي ﷺ يجمع في الدعاء عليهم بين هذين الوصفين كما في قوله ﷺ: (.... اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك....) الحديث[٢].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن/ صدد (٢٧٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم (١٥٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٣٧٠)، والحاكم في المستدرك برقم (٤٣٦٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

٦- اقتران بعض أسماء الله عز وجل:

والقرآن الكريم مليء باقتران بعض أسماء الله تعالى فمثلاً: يقترن اسم الله تعالى (الغفور) بأسمائه (الرحيم) و(الحليم) و(الشكور) و(العفو).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٩).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٩٦).

وقوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٢٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (الشورى: ٢٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (فاطر: ٣٤).

وقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٩٩).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (الحج: ٦٠).

وغيرها من الآيات كثير في اقتران اسم الله تعالى (الغفور) بأسمائه (الرحيم) و(الحليم) و(الشكور) و(العفو).

وقد أشار ابن القيم – رحمه الله – إلى حكمة عامة من اقتران اسمين من أسماء الله تعالى في موضع واحد فقال: (... وقَرَن بين الملك والحمد على عادته تعالى في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه وكمال من حمده وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا، والحمد مع الملك غاية الكمال)[1].

وأشار إلى الحكمة من اقتران الغفور مع الرحيم فقال: (.... لقد شرعت التحية متضمنة للثلاثة فقوله: (سلام عليكم) يتضمن السلامة من الشر. وقوله: (ورحمة الله) يتضمن حصول الخير، وقوله (وبركاته) يتضمن دوامه وثباته، كما هو موضوع لفظ البركة، وهو كثرة الخير واستمراره. ومن هنا يعلمُ حكمة اقتران اسمه الغفور باسم الرحيم في عامة القرآن)[2].

فباقتران الاسمين أو الوصفين يحصل وصف زائد على مفرديهما[3].

ومن أسماء الله الحسنى المقترنة مع غيرها في القرآن الكريم:

(العزيز) وهو يأتي كثيرًا مقترنًا مع (الرحيم) و(الحكيم) و(الغفار) و(الحميد) و(العليم) و(القوي) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٢٦.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٦.

(٣) انظر: أسماء الله وصفاته للأشقر ٨٢، والنهج الأسمى ٣٨، ومنة الحليم المنان ٧٧.

ﭐلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٩).

وقوله تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦).

وقوله تعالى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾ (ص: ٦٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (البروج: ٨).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (النمل: ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ (المجادلة: ٢١).

ولذلك الاقتران أسرار وحكم وفوائد، ليس هذا مجال التفصيل فيها.

وفي تقديم الاسم في موضع وتأخيره في موضع آخر حكم ولطائف.

يقول ابن القيم – رحمه الله –: (وأما تقديم الغفور على الرحيم فهو أولى بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تُطلب قبل الغنيمة.... وأما قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ (سبأ: ٢) في سبأ

فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة إما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين، وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم....)[(١)].

ومن أسماء الله الحسنى المقترنة مع غيرها في القرآن الكريم: (العليم) وهو يأتي كثيرًا مقترنًا مع (السميع) و(الحكيم) و(القدير) و(الواسع) و(الخبير).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (الأنعام: ١٣).

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ (الشورى: ٥٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ (البقرة: ١١٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ (لقمان: ٣٤).

وغيرها من الآيات.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٠٤.

يقول ابن القيم – رحمه الله –: (وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم، فمن الأول قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ (غافر: ٧)، ومن الثاني ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾ (النساء: ١٢)، فما قُرِنَ شيء إلى شيء أحسن من حِلْم إلى عِلْم. ومن رحمة إلى علم.... فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحِلَمْ والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة. وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم....)[1].

ومن أسماء الله الحسنى المقترنة مع غيرها في القرآن الكريم:

(الرحيم) وهو يأتي كثيرًا مقترنًا مع (الرحمن) و(الغفور) و(العزيز) و(الرؤوف) و(التواب).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النمل: ١١).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (السجدة: ٦).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل: ٧).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٢٧، ١٢٨.

وغيرها من الآيات.

يقـول ابـن القـيم – رحمـه الله – نقـلاً عـن الـسهيلي – رحمـه الله –: (وفائـدة الجمـع بـين الـصفتين (الـرحمن الـرحيم) الإنبـاء عـن رحمـة عاجلـة وآجلة وخاصة وعامة....)[١].

ثـم يقـول – رحمـه الله –: (ولمـا كـان هـذا الاسـم مختـصًا بـه تعـالى – يعني: الرحمن – حَسُن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهـذا لا ينـافي دلالتـه عـلى صـفة الـرحمن كاسـم الله تعـالى؛ فإنـه دال عـلى صـفة الإلوهيـة، ولم يجـيء قـط تابعًـا لغـيره، بـل متبوعًـا، وهـذا بخـلاف العلـيم والقـدير والـسميع والبـصير... ونحوهـا، ولهـذا لا تجـيء هـذه مفـردة بـل تابعة....)[٢].

ثم يقول – رحمه الله –: (وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيـه معنـى هو أحسن من المعنيين اللـذين ذكرهمـا، وهـو أن (الـرحمن) دال عـلى الـصفة القائمـة بـه سـبحانه – والـرحيم دال عـلى تعلقهـا بـالمرحوم، فكـان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمـة صـفته والثـاني دالٌّ عـلى أنه يرحم خَلْقه برحمته.....)[٣].

٧- ومن الموضوعات المقترنة كذلك:

ذكر الجوع والخوف. يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ

(١) بدائع الفوائد ١/ ٤٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٦.

وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (البقرة: ١٥٥).

ويقول تعالى: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

ويقول تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش: ٣، ٤).

ومن أسرار ذلك الاقتران كما يقول البقاعي – رحمه الله –: (الجوع فراغ الجسم عما به قوامه كفراغ النفس عن الأَمَنة التي لها قوامٌ ما، فأفقدها القوامين في ذات نفسها بالخوف، وفي بدنها بالجوع لمّا لم تصبر على كره الجهاد)[1].

وليس الجوع هو اللفظ الوحيد المقترن مع الخوف في القرآن بل لقد تكرر كثيرًا في القرآن نفي الخوف والحزن عن المؤمنين في مثل قول الله تعالى: ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦٢).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٥).

وغيرها من الآيات كثير.

ولا يخفى على المتدبر للقرآن الكريم أن اقتران هذين الأمرين (نفي

(١) نظم الدرر ٢/ ٢٥٤.

الخوف ونفي الحزن) وتكرار ذلك كثيرًا في القرآن يحتوي على حكم وفوائد كثيرة أسأل الله أن ييسر لها من يستخرجها ويظهرها للناس.

٨- **ومن الموضوعات المقترنة في القرآن الكريم:**

ذكر الوعد والوعيد، وذلك من خلال ذكر وصف الجنة ثم وصف النار أو العكس، أو ذكر صفات المؤمنين ثم الكفار أو العكس ونحو ذلك من المعاني.

وذلك أحد معاني قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ (الزمر: ٢٣).

يقول البغوي – رحمه الله –: ("مثاني": يثنى فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام)[١].

وهذا ما عنته أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – عندما قالت: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا: (لا ندع الزنا أبدًا))[٢].

وقد نقل ابن عاشور – رحمه الله – عن الزمخشري والرازي – عفا الله عنهما – أن من عادة القرآن أن لا يأتي بوعيد إلا أعقبه بوعد، ولا يأتي

(١) معالم التنزيل (١١٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٩٩٣).

بنذارة إلا أعقبها ببشارة....[1].

والموضوعات المندرجة تحت الوعد والوعيد والتي تأتي مقترنة في القرآن – إضافة لما ذكر – كثيرة جدًا مثل الترغيب والترهيب وعقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، والسعادة والشقاوة وهي ما زالت بحاجة إلى من يستخرج كنوزها[2].

٩- ومن الموضوعات المقترنة في القرآن الكريم:

الصبر مع التسبيح، يقول تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (طه: ١٣٠).

ويقول تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (ق: ٣٩).

ويقول تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور: ٤٨).

وغيرها من الآيات.

ومن أشهر الأقوال في المراد بالتسبيح في هذه الآيات قول من قال: الصلاة، وعموم الذكر[3].

ويؤيد هذا أن الله عز وجل قرن بين الصبر والصلاة في مواضع من

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٢٨/ ٢١٣. والتحرير والتنوير ١/ ١٢٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٢٤، ومنة الحليم المنان ٤٨، ١٩٢، ١٩٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٢١.

كتابه الكريم، يقول تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ٤٥).

يقول الطبري – رحمه الله – مبينًا معنى هذه الآية: (فأمر الله جل ثناؤه الذين وصف أمرهم من أحبار بني إسرائيل أن يجعلوا مَفْزَعهم – في الوفاء بعهد الله الذي عاهَدوه – إلى الاستعانة بالصبر والصلاة كما أمر نبيه محمدًا ﷺ بذلك، فقال: (فاصبر) يا محمد ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠))[١].

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة ثلاثة أمور: أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك، المحافظة على الصلاة بالقلب والبدن.

والثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

والثالث: الصبر على الأذى من الخلق وغيره من النوائب، ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرًا كقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ٤٥).

---

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٦٢٠.

وكقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (هود: ١١٤، ١١٥))[(١)].

فالصبر والصلاة أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب والمصاعب. ولهذا كان النبي ﷺ: (إذا حزبه أمر صلى) وفي رواية: (فزع إلى الصلاة)[(٢)].

يقول أبو حيان – رحمه الله – مبينًا سبب تقديم الصبر على الصلاة في الآية رقم (٤٥) من سورة البقرة: (وقدم الصبر على الصلاة، قيل: لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي والنفي مقدم على الإثبات، ويظهر أنه قدم الاستعانة به على الاستعانة بالصلاة؛ لأنه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على من ألفها واعتادها.... فكانت البداءة بالصبر لذلك. ولما كان عمود الإسلام هو الصلاة وبها يتميز المسلم من المشرك، اتبع الصبر بها؛ إذ يحصل بها الاشتغال عن الدنيا)[(٣)].

ونتيجة لاقتران الصبر مع التسبيح والصلاة يصل الصابر إلى منزلة التقوى، ولذلك فإنه ورد ذكرهما – الصبر والتقوى – مقترنين

(١) السياسة الشرعية (٩٩).

(٢) الحديث: أخرجه أحمد في المسند بنحوه برقم (١٧٦٢) وحسن المحقق إسناده وبرقم (١٨٩٣٧) وصحح المحقق إسناده، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٢٤.

(٣) البحر المحيط ١/ ٣٤١.

في القرآن في مواضع عدة كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران، ١٢٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (آل عمران، ١٨٦).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠).

وغيرها من الآيات[١].

وفي الجملة فإن المعاني والموضوعات المقترنة في القرآن يصعب حصرها، ويحسن تدبر حكمها وفوائدها وأسرارها.

وقد بالغ بعض من جمع بعض تلك المواضع فأدخل فيها بعض المقترنات المتقابلة التي لا ترد – في الغالب – إلا مقترنة كـ (السماء والأرض، والشمس والقمر، والجن والإنس، والمهاجرين والأنصار، والنفع والضر) وما أشبهها من المعاني والألفاظ التي لا يتضح معناها إلا باقترانها بضدها أو قسيمها. وربما حصل نوع من التكلف في استنباط الحكمة من إيرادها مع ضدها في هذه المواضع[٢].

(١) انظر: منة الحليم المنان ٢٨٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ١٢٤، ومنة الحليم المنان ١٩٢، ١٩٥.

على أن هذا لا يمنع الباحثين من خوض هذا المجال، وبذل الجهد فيه لاستخراج الفوائد والحكم من اقتران كثير من هذه المعاني والموضوعات الواردة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني
مواضع اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم وأساليب ذلك

بعد أن تعرفنا في المبحث الماضي – من خلال جولة سريعة – على أبرز المعاني والموضوعات والألفاظ التي يكثر اقترانها في القرآن الكريم نتكلم في هذا المبحث عن أشهر تلك الألفاظ وأكثرها تكرارًا في القرآن الكريم وهما لفظ (الصلاة والزكاة).

يقول: ابن نجيم – رحمه الله –: (ذكر الزكاة بعد الصلاة لأنهما مقترنان في كتاب الله تعالى في اثنين وثمانين آية، وهذا يدل على أن التعاقب بينهما في غاية الوكادة....)[1].

وقد جاء الحديث في هذه المواضع عن الصلاة والزكاة بأساليب متعددة ومتنوعة ومن تلك الأساليب:

- يذكر في المواضع التي تقرن الزكاة بالصلاة في القرآن معهما عبادة أو شعيرة أو ركن آخر.

كقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ

(١) البحر الرائق ٢/ ٣٥٢.

وقد أحصيت المواضع التي ظهرت لي فبلغت (٤٥) آية كما هو مثبت في الملحق، ولعل العدد الذي أثبته المصنف – رحمه الله – يشمل اجتماعهما في الآيات المتعاقبة وليست الآية الواحدة. والله أعلم.

سَبِيلَهُمۡ ﴾ (التوبة: ٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (الرعد: ٢٢) وغيرها.

- ومن النادر أن يفردا بالذكر دون غيرهما ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ (إبراهيم: ٣١).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴾ (مريم: ٥٥).

- أما العبادات المقرونة معهما في غالب الآيات فتارة تكون بعض أجزاء الإيمان كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣).

وقوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ (النساء: ١٦٢).

وغيرها من الآيات.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين

– إزالة الشر وزيادة الخير – وهذا هو العمل الصالح، وهو الإحسان، وذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله، وعبادته وحده لا شريك له الذي هو أصل الإيمان. وهو قول ﴿ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤).

فهذه الثلاث – قد يقال – تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع. مثل قوله في أول البقرة ﴿ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٢، ٣).

ومثل قوله: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾ (التوبة: ٥).

ومثل قوله: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة: ١١))[1].

- ومثل الآيات السابقة كثيرًا ما يعطف عليهما بعض أركان الإيمان وشُعَبِه كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ ﴾ (المائدة: ١٢).

والحديث فيها عن أهل الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ

(١) مجموع الفتاوى، ١٦/ ١٩٨، ١٩٩.

لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: ٨٣).

والحديث فيها أيضًا عن أهل الكتاب الذين لا يقبل منهم مجرد الصلاة والزكاة بل لابد من سبق ذلك بالإيمان بالله ورسوله ﷺ.

- وربما كان ذلك المعطوف عليهما المقرون بهما عبادة عامة تشملهما ويدخلان فيها، كقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦).
- أو عُطِفَاهما على ما يندرجان تحته، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٣).

  وكل ذلك من باب الاهتمام بهما، وكمال العناية بأمرهما.
- وربما كان المعطوف عليهما جزءًا من أحدهما أو مؤكدًا له.

كقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (المزمل: ٢٠).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٣).

قيل في تخصيص الركوع هنا بالذكر مع دخوله في الأمر بإقامة الصلاة السابقة في أول الآية؛ لبيان أهميته.

وقيل: لكون بني إسرائيل – وهم المخاطبون بالآية – لم يكن في صلاتهم ركوع.

وأفاد لفظ (مع) في الآية التأكيد على صلاة الجماعة[1].

- والغالب في اقتران الزكاة والصلاة في القرآن ألا يفصل بينهما فاصل، كقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (المزمل: ٢٠).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (النمل: ٣).

وغيرها من الآيات.

- وربما فصل بينهما بوصف آخر، نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: ٣٨).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢ – ٤).

يقول الرازي – رحمه الله –: (فإن قيل: إن الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة، فَلِمَ فَصَل هاهنا بينهما بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣)؟ قلنا: لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة....)[2].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٢٠٣، والجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٥، ٣٠.

(٢) التفسير الكبير ٢٣/ ٨١.

- والصلاة هي المقدمة غالبًا على الزكاة عند اقترانهما؛ لأنها المقدمة بحسب الرتبة، لأن الصلاة حق البدن، والزكاة حق المال، فالبدن مقدم على المال[1]. إلا في مواضع يسيرة كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥).

والتزكي المذكور في الآية من معانيه زكاة الفطر، كما هو مروي عن أبي سعيد الخدري ﷺ وابن عمر – رضي الله عنهما[2].

وقيل: عموم الصدقة[3].

وكان ابن مسعود – رضي الله عنهما – يقول: رحم الله امرءاً تصدق ثم صلى، ثم يقرأ هذه الآية[4].

وعن أبي الأحوص: قال: إذا أتى أحدكم السائل وهو يريد الصلاة، أو قال: يريد أن يصلي – فإن استطاع أن يتصدق فليفعل، فإن الله يقول: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥)، فإن استطاع أن يقدم بين يدي صلاته صدقة فليفعل)[5].

وقد ذكر ابن تيمية – رحمه الله – تعليلاً لطيفًا لتقدمة الصدقة بين يدي الصلاة كما فهمه بعض السلف – رحمهم الله – من هذه الآية في سورة

(١) انظر: عارضة الأحوذي ٣/ ٩٢، وفتح الباري ٨/ ٣١٠.

(٢) انظر: معالم التنزيل ١٤٠١.

(٣) معالم التنزيل ١٤٠١، وانظر: فتح القدير ٥/ ٤٢٤.

(٤) معالم التنزيل ١٤٠١.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه برقم (٩٨٢٥) ٢/ ٢٥٣.

الأعلى وفهمه هو – رحمه الله – من قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةً ﴾ (المجادلة: ١٢) فيقول: إذا كان المقبل على مناجاة النبي ﷺ شرع له من أجل ذلك التصدق بين يدي ذلك، فالمقبل على مناجاة ربه جل وعلا من باب أولى.

وكان – رحمه الله – يتصدق قبل خروجه لصلاة الجمعة استدلالاً بهذه الآية[١].

وقد ذكر ابن كثير – رحمه الله – في وفيات سنة ٩٤هـ عن طلق بن حبيب العنزي أنه كان لا يخرج إلى صلاة إلا ومعه شيء يتصدق به ويستدل بآية المناجاة، ويقول: فتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الله أعظم وأعظم[٢].

- وغالب ورود هاتين العبادتين يكون بصيغة الأمر، أمرًا بهما وحثًا عليهما.

كقوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ (الحج: ٨٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

---

(١) انظر: زاد المعاد ١/ ٤٠٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٢/ ٤٧٥.

- أو بصيغة المضارع المفيد للأمر، كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ (إبراهيم: ٣١).
- أو بصيغة الماضي والمضارع؛ مدحًا لفاعلها.

كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر: ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (لقمان: ٤).

- أو بصيغة المصدر، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ (الأنبياء: ٧٣).
- أو بصيغة اسم الفاعل: ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (الحج: ٣٥).
- وفي الجملة فإن الألفاظ والصيغ التي استعملت في التعبير عن أداء الصلاة كانت:
- **الماضي**: (أقاموا) (أقام).
- **المضارع**: (يقيمون) (يقيموا).
- **الأمر**: (أقيموا) (أقمن).
- **المصدر**: (إقام).

- **اسم الفاعل**: (المقيمي).

وجاء قليلاً التعبير عنها بلفظ (خاشعون).

ولعل اختيار لفظ (أقام) وتصاريفه للتعبير عن أداء الصلاة؛ لما يشمله هذا اللفظ من دلالة على المحافظة على هذه الشعيرة، من بداية العزم على أدائها من شروط وآداب، إلى العناية بأركانها وواجباتها وسننها، وانتهاء بآثارها ونتائجها[١].

- وأما الزكاة فإن الألفاظ والصيغ التي استعملت في التعبير عن إخراج الزكاة كانت كالتالي:
- **الماضي**: (آتَوُا) (آتيتم) (آتى).
- **المضارع**: (يؤتون).
- **الأمر**: (آتُوا).
- **اسم الفاعل**: (المؤتون).
- **المصدر**: (إيتاء).
- ولم يأت في القرآن في الأمر بإخراج الزكاة لفظ (الإعطاء) بدل (الإيتاء)، لأن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأن الإعطاء له مطاوعٌ، تقول: أعطاني فأعطيت وليس ذلك في لفظ الإيتاء، ولذلك فإن فِعْل الفاعل ليس موقوفًا على قبول المحل[٢].

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٢٤٨، و١١/ ٣٦١، وتفسير ابن كثير ١/ ١٨٦.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ٤/ ٨٥، والإتقان في علوم القرآن ٤/ ١٣٠٨. قال في اللسان: "وَعَطَوْت الشيء: تناولته باليد" عطا/ ١٥/ ٦٩ وقال أيضاً: "والتعاطي: التناول" =

يقـول الراغـب – رحمـه الله –: (والإيتـاء: الإعطـاء، وخُـصَ دفـع الصدقة في القرآن بالإيتاء....)[1].

- كما استعمل لفظ الإنفاق بالصيغ التالية:
- **الماضي**: (أنفقوا).
- **المضارع**: (ينفقون).

كـما وردت ألفـاظ أخـرى قليلـة مثـل: ﴿ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنـون: ٤)، و﴿ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴾ (المـدثر: ٤٤)، و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤).

- والجمع بين الصلاة والزكاة جاء في خطاب النبي ﷺ وأمته، كقوله تعالى: فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ (الحج: ٧٨).

وقولـه تعـالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (المزمل: ٢٠).

- وجاء الجمع بينهما في الحديث عن بعض الأنبياء السابقين، كقوله تعالى عن إسماعيل عليه السلام ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم: ٥٥).

= عطا/ ١٥/ ٧٠ وقال أيضاً: "والاسم العطاء، وأصله: عطاوُ – بالواو؛ لأنه من عَطَوْت..." عطا/ ١٥/ ٦٩.

(١) المفردات/ أتى (٩).

وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم: ٣١).

وقوله تعالى عن عدد من الأنبياء السابقين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٣).

- وكما جاء الجمع بينهما في وصف مؤمني هذه الأمة ومدحهم، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣). جاء في الحديث عن أهل الكتاب كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي ﴾ (المائدة: ١٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (النساء: ٧٧).

وذلك يدل على أهمية هاتين العبادتين وارتباطهما لدى الأمم السابقة، كما هو الأمر تمامًا لدى هذه الأمة التي نزل القرآن الكريم على نبيها ﷺ وجاء فيه هذا الاقتران بين الصلاة والزكاة كثيرًا.

- ولم يقتصر اقتران الصلاة والزكاة على آيات القرآن الكريم فقط، بل شمل ذلك أيضًا سنة النبي ﷺ، فقد ورد الجمع بينهما والاقتصار عليهما دون ما بعدهما من أركان الإسلام – كالصوم والحج – في

عدد من الأحاديث عن النبي ﷺ وعدد من الآثار عن الصحابة والتابعين ﷺ. كما روي ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام. وحسابهم على الله)(١).

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل – رضي الله عنه – حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قومًا أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم...)(٣).

وغيرها من الأحاديث.

وقد تعددت استنباطات العلماء لسبب الاقتصار على الصلاة والزكاة دون غيرهما من أركان الإسلام، فمنها:

---

(١) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٥).

(٢) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٤٠١). ومسلم في صحيحه برقم (٩٧).

(٣) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٤٩٦).

أن سبب ذلك الاقتصار شهرة الصلاة والزكاة[١].

وقيل: إن الاهتمام بهما في الشرع أكثر[٢].

وقيل: إن وقت تلك الأحاديث لم يكن فُرِضَ الصوم والحج واعترض عليه[٣].

وقيل: أوجه الشبه بينهما أكثر من غيرهما[٤].

وغير ذلك من الأسباب والتعليلات مما سيأتي تفصيله في المبحث الثالث بإذن الله.

يقول ابن العربي – رحمه الله – في أحكام القرآن – في شرح الآية ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (التوبة: ٥) مبينًا اجتماع القرآن والسنة في الجمع بين الصلاة والزكاة: (وهذا مبين بقول النبي ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[٥] فانتظم القرآن والسنة واطردا)[٦].

ومن الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ﭫ:

---

(١) انظر: إكمال المعلم ١/ ٢٤٠. وفتح الباري ١/ ١٨٤.

(٢) انظر: شرح الكرماني ١/ ٧٩. وفتح الباري ٣/ ٤٦٠.

(٣) انظر: فتح الباري ٣/ ٣٤٠.

(٤) انظر: فتح الباري ٣/ ٤٦٠.

(٥) الحديث: سبق تخريجه ص(٣٠).

(٦) أحكام القرآن ٢/ ٤٥٧.

قول أبي بكر ﷺ: (..... لا تفرقوا بين ما جمع الله....)[1].

وقوله أيضًا: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة)[2].

وعن علي ﷺ قال: (إن الله جمع الصلاة والزكاة ولا أرى أن تُفرّق)[3].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: (أُمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له)[4].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم – رحمه الله – قال: (أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة)[5].

وأورد المناوي – رحمه الله – معنى آخر لقول النبي ﷺ (الصلاة وما ملكت أيمانكم)[6] فقال: (وقال المظهري: أراد الزكاة وإخراجها، من المال الذي تملكه الأيدي، كأنه علم بما يكون من أمر الردة وإنكارهم وجوبها بعده، فقطع حجتهم بأن جعل آخر كلامه الوصية بالصلاة والزكاة، ويؤيده أن القرآن والحديث إذا ذكر فيهما الصلاة فالغالب ذكر الزكاة بعدها)[7].

---

(١) ذكره الشافعي في الأم ٢/ ٨٢. ورواه ابن أبي عمر العدني في الإيمان (٨٧). والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣٣٥). ومسلم في صحيحه برقم (٣٢).

(٣) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (٩٠١) (٥/ ٥٠٩) وعزاه لمسند مسدد وهو مفقود. وانظر كنز العمال ٦/ ٢٢٧.

(٤) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٦٩٣) (١/ ٣٣٤). والطبري في تفسيره (١١/ ٣٦٢). والطبراني في المعجم الكبير (١٠٠٩٥). وصحح المنذري إسناده في الترغيب والترهيب (١/ ٣٠٧).

(٥) أخرجه الطبري في جامعه ١١/ ٣٦٢، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ١٦٢٦.

(٦) الحديث: أخرجه أحمد في المسند برقم (١٢١٩٠). وابن ماجه في سننه برقم (٢٦٩٧) وصحح الألباني إسناده في إرواء الغليل (٧/ ٢٣٧).

(٧) فيض القدير ١/ ١٢٧.

المبحث الثالث

فوائد وحكم وأحكام اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم

بعد أن تناولت في المبحث الماضي صيغ وأساليب اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم، نصل إلى خلاصة الموضوع والبحث وهي الفوائد والحِكم والأحكام المستنبطة من ذلك الاقتران.

وتلك الاستنباطات مستمدة ومستفادة من تعليقات أهل العلم من المفسرين والمحدثين وغيرهم عند بيانهم لمعاني بعض تلك الآيات التي حصل فيها الاقتران.

وقد تكون تلك الاستنباطات واضحة جلّية، وقد تكون غامضة متكلفة.

ومن تلك الفوائد:

١ - أن الصلاة والزكاة عملان متكرران ظاهران بخلاف الصيام فهو عبادة خفية لا يطلع عليه غيره.

والحج مع ظهوره إلا أنه غير متكرر ووقته موسع.

يقول القاضي عياض في شرح صحيح مسلم: (وذكر جرير الصلاة والزكاة[١] من بين سائر دعائم الإسلام؛ فلكونهما قرينتين وأهم أمور الإسلام وأظهرها، ولم يذكر الصوم وغيرها من الشرائع؛ لأنه داخل في

(١) يعني في الحديث المذكور ص(٣٠) والمخرّج هناك.

السمع والطاعة)[1].

ونقل صاحب فتح المجيد عن ابن تيمية – رحمهما الله – أن الله عز وجل ذكر في كتابه القتال عليهما – أي الصلاة والزكاة – لأنهما عبادتان ظاهرتان، بخلاف الصوم؛ فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة[2].

٢- اقتران الصلاة والزكاة في الذكر في الكتاب والسنة دال على اقترانهما في الوجوب، وقتال تاركهما.

وهذه الحكمة مستنبطة من إصرار الصديق ﷺ على قتال مانعي الزكاة وقوله في سبيل ذلك (لا تفرقوا بين ما جمع الله....)[3].

وقوله: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة)[4].

ومثله قول ابن مسعود ﷺ: (أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له)[5].

ولذلك يقول ابن العربي – رحمه الله –:

(قوله: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (التوبة: ٥) دليل صحيح على ما كان الصديق ﷺ تعلّق به على أهل الردة في قوله:

(١) إكمال المعلم ١/ ٢١٩. وانظر: شرح النووي لمسلم، ص١٦٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيميه ٧/ ٥٥٢. وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد ١١٨.

(٣) سبق تخريجه ص(٣١).

(٤) سبق تخريجه ص(٣١).

(٥) سبق تخريجه ص(٣٢).

(لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة) فإن الزكاة حق المال؛ لأن الله تعالى علق العصمة بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة فتعلق بهما)[(١)].

ونقل المباركفوري - رحمه الله - عن المازري - رحمه الله - قوله: (ظاهر السياق أن عمر - رضي الله عنه - كان موافقًا على قتال من جحد الصلاة فألزمه الصديق - رضي الله عنه - بمثله في الزكاة؛ لورودهما في الكتاب والسنة موردًا واحدًا)[(٢)].

وقال السيوطي - رحمه الله -: (... فاستدل به - أي: قوله تعالى ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (التوبة: ٥) - الشافعي على قتل تارك الصلاة، وقتال مانع الزكاة، واستدل به من قال بتكفيرهما...)[(٣)].

يقول ابن كثير - رحمه الله -: (ولهذا اعتمد الصديق ﷺ في قتال ما نعي الزكاة على هذه الآية الكريمة - يعني قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ (التوبة: ٥)، وأمثالهم، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيرًا ما

(١) أحكام القرآن ٢/ ٤٥٧.

(٢) تحفة الأحوذي ٧/ ٢٨٣.

(٣) الإكليل ٢/ ٧٩٩.

يقرن الله بين الصلاة والزكاة)[١].

ونقل ابن حجر – رحمه الله – عن الكرماني – رحمه الله – جوابه عن سؤال عن حكم تارك الزكاة فأجاب: حكمهما واحد – يعني الزكاة والصلاة – لاشتراكهما في الغاية[٢].

وقال القاضي عياض – رحمه الله –: (... فكأنه إذا سلم له القتال على الصلاة قاس الزكاة عليها؛ لما وردا في القرآن موردًا واحدًا)[٣].

٣- أن الصلاة والزكاة عمودا الإسلام وأصل سائر الطاعات؛ لأن الطاعات إما بدنية ورأسها الصلاة وإما مالية ورأسها الزكاة.

يقول أبو حيان – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (التوبة: ٥): (... ثم نبه على أعظم الشعائر الإسلامية، وذلك إقامة الصلاة، وهي أفضل الأعمال البدنية، وإيتاء الزكاة، وهي أفضل الأعمال المالية....)[٤].

وقال أيضًا: (... لما أمر بالعفو والصفح، أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام، العبادة البدنية والعبادة المالية)[٥].

وقال أيضًا: (... ثم وصفهم بصفات المدح من امتثال أشرف أوصاف

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٦٢٦.
(٢) انظر: فتح الباري ١/ ١٠٤.
(٣) إكمال المعلم ١/ ٢٤٢.
(٤) البحر المحيط ٥/ ١٢.
(٥) البحر المحيط ١/ ٥١٩.

الإيمان الفعلية البدنية، وهي: الصلاة، والمالية وهي الزكاة...)[١].

ويقول العيني – رحمه الله –: (وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر والمقاتلة عليهما بحق الإسلام، لأنهما أُمّا العبادات البدنية والمالية، والمعيار على غيرهما والعنوان له؛ ولذلك سمى الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام، وأكثر الله سبحانه وتعالى من ذكرهما متقارنين في القرآن....)[٢].

وذكر مثل تلك التعليلات عن النووي وغيره[٣].

ويقول ابن حجر – رحمه الله –: (.... والحكمة في ذلك – أي: الاقتصار على الشهادة والصلاة والزكاة دون بقية الأركان – أن الأركان الخمسة: اعتقادي وهو الشهادة، وبدني وهو الصلاة، ومالي وهو الزكاة، اقتصر في الدعاء إلى الإسلام عليهما لتفرع الركنين الأخيرين عليهما؛ فإن الصوم بدني محض، والحج بدني مالي...)[٤].

٤- أن المشقة الحاصلة على النفس من جَرّاء فعلهما أشد من المشقة الحاصلة من جَرّاء غيرهما من العبادات.

والمشقة الحاصلة من هاتين العبادتين إما أن تكون حاصلة للكفار.

يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله –: (.... فلذلك أمروا بالصلاة والزكاة؛ لأن الأولى عمل يدل على تعظيم الخالق والسجود إليه وخلع

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٢١.

(٢) عمدة القارئ ١٣/ ٢١٣.

(٣) انظر: شرح مسلم للنووي ١٢١ – ١٢٤، وتحفة الأحوذي ٦/ ٤٥، ٧/ ٢٨١.

(٤) فتح الباري ٣/ ٤٦٠.

الآلهة، ومثل هذا لا يفعله المشرك؛ لأنه يغيظ آلهته بالفعل ويقول: الله أكبر، ولا يفعله الكتابي؛ لأنه يخالف عبادته، ولأن الزكاة إنفاق المال وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد نفع أخروي، لاسيما إذا كان ذلك المال ينفق على العدو في الدين، فلذلك عقب الأمر بالإيمان بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما لا يتجشمهما إلا مؤمن صادق...)(١).

وبهذا تفهم الآيات والأحاديث التي ورد فيها اقتران الصلاة والزكاة وجاءت في سياق الحديث عن المشركين أو المنافقين.

ويمكن أن تكون المشقة الحاصلة منهما في حق المؤمنين.

يقول ابن حجر – رحمه الله –: (... والصلوات شاقة لتكررها، والزكاة شاقة لما في جبلّة الإنسان من حب المال، فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها)(٢).

٥- تقدم فَرْضِهِمَا وإيجابهما على غيرهما من الفرائض والأركان. وذلك أن كثيرًا من النصوص التي قرنت بينهما سواء كانت من القرآن أو السنة اكتفت بهما عن غيرهما من أركان الإسلام مما دفع بعض المفسرين والمحدثين إلى استنباط أن سبب ذلك الجمع والاقتصار هو تقدم فرضهما على غيرهما.

يقول الرازي – رحمه الله –: (دلت الآية على أن إيجاب الصلاة والزكاة

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٧٢.

(٢) فتح الباري ٣/ ٤٦٠.

كان مقدمًا على إيجاب الجهاد، وهذا الترتيب هو المطابق لما في العقول؛ لأن الصلاة عبارة عن التعظيم لأمر الله، والزكاة عبارة عن الشفقة على خلق الله، ولاشك أنهما متقدمان على الجهاد)[1].

ويقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله – في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣): (وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها؛ لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهي الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإنهما أقدم المشروعات وهما أختان في كثير من آيات القرآن)[2].

ولا يلزم من كلامهم أن ذلك الإيجاب المتقدم زمنًا كان للصلاة والزكاة بتفاصيلها وتفريعاتها؛ لأن المعروف أن ابتداء فرض الصلاة كان في الإسراء والمعراج وهو كان بمكة، وابتداء فرض الزكاة كان في السنة الثانية من الهجرة.

يقول ابن كثير – رحمه الله –: (وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤) الأكثرون على أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة والمقادير الخاصة، وإلا

(١) التفسير الكبير ١٠/ ١٩١، وانظر: البحر المحيط ٣/ ٢٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٣٦.

فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام هي مكية: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ (الأنعام: ١٤١))[١].

ويقول في موضع آخر: (... كان المؤمنون في ابتداء الإسلام – وهم بمكة – مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُصب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم....)[٢].

أما قول من قال: أنه لم يكن فرض عند نزول تلك الآيات أو تَحَدُّث النبي ﷺ بتلك الأحاديث غيرها، فغير دقيق لأن رواة بعض تلك الأحاديث قد تأخر إسلامهم – وتبعًا له – سماعهم لذلك الحديث من النبي ﷺ، فلا يتصور تأخر فرض الصوم والحج إلى تلك المدة[٣].

٦- تفضيلهما، وتشريفهما على غيرهما من العبادات.

يقول ابن سعدي – رحمه الله –: (وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ ﴾ (البينة: ٥)؛ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين)[٤].

وهكذا كل النصوص التي قرن فيها بين الصلاة والزكاة، واقتصر عليهما دون غيرهما.

يقول المروزي – رحمه الله – في شرح آية البينة رقم (٥): (فلما قال الله

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٤١٩.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٦٨.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي ٦/ ٤٥، ومرقاة المفاتيح ١٤/ ٢٥٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٩٣٢.

تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ كانت الطاعات كلها اللاتي يتقرب بها إلى الله داخلة في عبادته ثم خص الصلاة والزكاة من بينها فأعاد ذكرهما؛ تأكيدًا لأمرهما وتعظيمًا لشأنهما....)[١].

ويقول الشوكاني – رحمه الله –: (... ثم أمرهم بما هو أعظم الأركان الإسلامية فقال: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (الحج: ٧٨) وتخصيص الخصلتين بالذكر؛ لمزيد شرفهما)[٢].

وهذه الحكمة مستنبطة من الأمرين معًا: اقترانهما، والاقتصار عليهما في بعض النصوص دون غيرهما.

٧- ومن حكم الجمع بينهما: تضمنهما للقيام بحق الحق سبحانه وتعالى، بالوقوف بين يديه في الصلاة، والقيام بحق الخلق بالإحسان إليهم بالزكاة.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (.... وهذان الأصلان هما جماع الدين العام، كما يقال: التعظيم لأمر الله، والرحمة لعباد الله؛ فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة، فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع له والذل له، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر، والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم، وذلك

(١) تعظيم قدر الصلاة ١/ ٣٤٩.

(٢) فتح القدير ٣/ ٤٧١.

مضاد البخل، ولهذا وغيره كثر القِران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله)[1].

ويقول أيضًا: (.... ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة، وهي الإحسان إلى الخلق، وبينهما وبين الصبر تارة...)[2].

وهذان المعنيان موجودان في غير الصلاة والزكاة أيضًا، لكن وجودهما في الصلاة والزكاة أظهر وأكثر.

ويقول أبو حيان – رحمه الله –: (.... إذ أن الصلاة فيها مناجاة الله تعالى، والتلذذ بالوقوف بين يديه، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس، فأمروا بالوقوف بين يدي الحق، وبالإحسان إلى الخلق....)[3].

ويذكر ابن كثير – رحمه الله – هذا المعنى فيقول: (قلت: كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته.... والإنفاق وهو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم...)[4].

٨- الصلاة والزكاة أصل سائر الطاعات، ومن اعتنى بهما جرّتاه إلى ما وراءهما.

يقول الزمخشري – رحمه الله –: (.... أمرهن أمرًا خاصًا بالصلاة والزكاة ثم جاء به عامًا في جميع الطاعات؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ٢١٤.

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٣٤١.

(٣) البحر المحيط ١/ ٥١٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٨٦، وانظر: تيسير الكريم الرحمن ص٤١.

والمالية هما أصل سائر الطاعات، من اعتنى بهما حق اعتنائه جرّتاه إلى ما وراءهما)[١].

وقد جاء تأكيد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)[٢].

ويقول النسفي – رحمه الله – في تأييد هذه الحكمة: (خص الصلاة والزكاة بالأمر ثم عم بجميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأن من واظب عليهما جرّتاه إلى ما وراءهما)[٣].

ويبين ابن حجر – رحمه الله – وجهًا آخر في كونهما – أي الصلاة والزكاة – تؤديان بالعبد إلى عمل بقية الطاعات فيقول: (فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة – أي: الشهادة والصلاة والزكاة – كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها. والله أعلم)[٤].

فامتثال أمر الله بهذه الطاعات الثلاث – رغم صعوبتها – داع إلى امتثال بقية الطاعات والعبادات إذ هي أسهل وأيسر.

٩- الصلاة والزكاة أصل أفعال الجوارح، ولهذا يذكران مقابل أفعال القلب.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ

(١) الكشاف ٥/ ٦٧، وانظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣.

(٣) مدارك التنزيل ٣/ ١٣٧٢.

(٤) فتح الباري ٣/ ٤٦٠.

يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣).

يقول النيسابوري – رحمه الله –: (.... ثم إنه يكون قد وُصف بالإيمان وهو فعل القلب، وبأداء الصلاة والزكاة وهما من أفعال الجوارح. وهذا ترتيب مناسب؛ لأن لوح القلب يجب تخليته عن النقوش الفاسدة أولاً، ثم تحليته بالعقائد الحقه والأخلاق الحميدة)[1].

ويقول الآلوسي – رحمه الله –: (ورتبت هذا النحو من الترتيب؛ لأن الأعمال إما قلبية، وأعظمها اعتقاد حقيقة التوحيد...، أو قالبية وأصلها الصلاة.... أو مالية وهي الإنفاق لوجه الله تعالى)[2].

١٠- تتوقف المؤاخاة في الإسلام على فعل الصلاة والزكاة.

يقول تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ (التوبة: ١١).

قال الواحدي – رحمه الله –: (وقال أهل العلم: هذه الآية دليل على أن الصلاة والزكاة مقرونتان بالشهادة في كف السيف وحقن الدم ودليل على أن المؤاخاة بالإسلام بين المسلمين موقوفة على فعل الصلاة والزكاة جميعًا؛ لأن الله تعالى شرطهما في إثبات المؤاخاة، ومن لم يكن من أهل وجوب الزكاة وجب عليه أن يقرّ بحكمها فإذا أقر بحكمها دخل في الصفة التي تجب بها الأخوة)[3].

---

(١) تفسير النيسابوري ١/ ٧٨.

(٢) روح المعاني ١/ ١٩٦.

(٣) البسيط ١٠/ ٣١١، وانظر: الأم ١/ ٤٢٤، وأحكام القرآن للهراسي ٣/ ١٧٧.

ويقول ابن تيميه – رحمه الله –: (... القرآن يصدق ذلك؛ فإن الله علق الأخوة الإيمانية في بعض الآيات بالصلاة والزكاة فقط ...)[١].

ونقل ابن حجر – رحمه الله – عن ابن المنير – رحمه الله – تعليقه على قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (التوبة: ١١) قوله: (واتبع المصنف الترجمة بالآية معتضدًا بحكمها؛ لأنها تضمنت أنه لا يدخل في التوبة من الكفر وينال أخوة المؤمنين في الدين إلا من أقام الصلاة وآتى الزكاة)[٢].

١١- القيام بالصلاة والزكاة على الوجه المطلوب سبيل لإصلاح الفرد والمجتمع، كما هو سبيل لوحدة الأمة.

يقول رشيد رضا – رحمه الله –: (قال الأستاذ: ثم بعد الوعد بالنصر، والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة، دلهم على بعض وسائل تحققه، وهي الصلاة التي توثق عُروة الإيمان، وتعلي الهمة، وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها، والتعارف في مساجدها، والزكاة التي تصل بين الأغنياء والفقراء، فتتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسم واحد، فقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة: ٤٣))[٣].

(١) الإيمان الأوسط ١/ ١٤٩.

(٢) فتح الباري ٣/ ٣٤١.

(٣) المنار ١/ ٣٤٨.

وقال أيضًا: (... وقد مضت سنة القرآن بقرْن الزكاة بالصلاة؛ لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد، والزكاة لإصلاح شؤون الاجتماع، ثم إن فيها من معنى العبادة ما في الصلاة؛ فإن المال – كما يقولون – شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيدًا في إيمانه، فهي إصلاح روحي أيضًا....)[1].

١٢- كثرة اقتران الصلاة والزكاة بالإيمان جعل اسم الإيمان يطلق عليهما، ويدخلان فيه عندما يذكر ولا يذكران.

يقول القاضي عياض – رحمه الله – في تعليل ذكر الجهاد بعد الإيمان وعدم ذكر الصلاة والزكاة وذلك في حديث أبي هريرة ﷺ[2]: (وأما ذكره في حديث أبي هريرة ﷺ بعد الإيمان الجهاد ولم يذكر الصلاة والزكاة؛ فلأنهما قرينتا التوحيد، لجمعهما في القرآن والحديث مع الإيمان بالله، فيكون اسم الإيمان منطلق عليهما، ولعله المراد بالإيمان أولاً....)[3].

ولشدة اقتران الصلاة والزكاة بالإيمان اعتبرتا آيتين عليه.

يقول رشيد رضا – رحمه الله –: (فتسمية الصلاة على هذا إيمانًا – يعني في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٤٣) – ليس لأنها أعظم أركان الدين، بل للإشارة إلى أن مزيتها في منشئها الباعث

---

(١) المصدر السابق ١/ ٣٤٨.

(٢) الذي أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٣٥). وفيه: (سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله ...." الحديث.

(٣) إكمال المعلم ١/ ٢٣٩.

عليها من الإيمان والإخلاص، ولذلك يقرن الإيمان دائمًا بذكر الصلاة والزكاة، فالصلاة آية الإيمان القلبية الخفية؛ لأنه لا تكون آية إلا بإخلاص القلب، والزكاة هي الدليل الحسي الظاهر عليه....)[(١)].

١٣- ومن فوائد اجتماعهما واقترانهما أنهما - أي الصلاة والزكاة - إذا وجبا على المكلف لا يسقطان عنه، بخلاف الصوم والحج.

يقول ابن حجر - رحمه الله -: (... ولهذا كُررا في القرآن، فمن ثم لم يذكر الصوم والحج في هذا الحديث[(٢)] مع أنهما من أركان الإسلام، والسر في ذلك أن الصلاة والزكاة إذا وجبا على المكلف لا يسقطان عنه أصلاً بخلاف الصوم؛ فإنه قد يسقط بالفدية، والحج؛ فإن الغير قد يقوم مقامه فيه....)[(٣)].

وهذه الحكمة وإن كانت ذُكرت تعليلاً للجمع بينهما والاقتصار عليهما في السنة، إلا أنها يمكن أن تكون تعليلاً لبعض مواضع الجمع بينهما في القرآن.

١٤- ومن الفوائد كذلك: ترجيح أحد المعاني المحتملة للآية بقرينة اجتماعهما وعطفهما على ذلك اللفظ.

يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (البينة: ٥) فقد اختلف في المراد بالعبادة هنا فقيل: الإيمان والتوحيد.

(١) المنار ٢/ ٩.

(٢) يقصد حديث بعث معاذ ﷺ - إلى اليمن. وقد سبق تخريجه ص(٣٠).

(٣) فتح الباري ٣/ ٤٦٠.

وقيل: فروع العبادات كالطهارات ونحوها[1].

واستدل أصحاب القول الثاني بالآية على اشتراط النية في فروع العبادة.

ورجح ابن نجيم – رحمه الله – عدم دلالة الآية على ذلك (لأن العبادة فيها بمعنى التوحيد بقرينة عطف الصلاة والزكاة)[2].

١٥- ومن الفوائد: عموم لفظ الصلاة والزكاة وشموله لكثير من أمور الدين إذا اجتمعا.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (.... وأما قرنه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير جدًا. فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه الأسماء الجامعة: يدخل في الصلاة ذكر الله تعالى ودعاؤه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه. وفي الزكاة الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع: من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج....)[3].

ويؤكد ابن كثير – رحمه الله – هذا العموم والشمول في المراد بالصلاة والزكاة المستفاد من جمعهما واقترانهما وتكرر ذلك فيقول: (كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٢/ ٤١٢، والتسهيل في علوم التنزيل ٢/ ٥٠١، واللباب ٢٠/ ٤٤٠، مواهب الجليل ٧/ ١٩١. والحاوي ١/ ٨٨.

(٢) الأشباه والنظائر لابن نجيم ١/ ٢٠. وانظر: البحر الرائق ١/ ٢٧، ١/ ٢٩١.

(٣) مجموع الفتاوى ٦/ ٣٩٩.

مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣))[1].

١٦- ترجيح معنى إحداهما (الصلاة والزكاة) بقرينة عطف الثاني عليه.

ويتضح هذا في المراد بالزكاة في بعض الآيات، هل هي الزكاة المفروضة، أو صدقة التطوع.

ورجح بعض أهل التفسير أن الزكاة يراد بها الفريضة إذا جاءت مقترنة بالصلاة.

يقول القرطبي – رحمه الله – (واختلف العلماء في المراد بالنفقة ها هنا – عند الآية ٣ من البقرة –، فقيل: الزكاة المفروضة – روي عن ابن عباس رضي الله عنهما – لمقارنتها الصلاة)[2].

وقال أيضًا: (وقيل المراد: الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضًا، ولما عدل عن لفظها – أي لم تأت بلفظ الزكاة وإنما النفقة – كان فرضًا سواها)[3].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٨٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٧٣.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧٤.

وقال في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٣)، (اختلف في المراد بالزكاة فقيل: الزكاة المفروضة؛ لمقارنتها بالصلاة)[١].

ورجح أبو حيان – رحمه الله – كونها الفريضة بدليل مقارنتها الصلاة فقال: (ورجح كونها الزكاة المفروضة لاقترانها بأختها الصلاة في عدة مواضع من القرآن والسنة)[٢].

١٧- أن الزكاة كالمقدمة للصلاة:

يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥) يقول أبو الأحوص – رحمه الله –: (إذا أتى أحدكم السائل وهو يريد الصلاة – أو قال يريد أن يصلي – فإن استطاع أن يتصدق فليفعل، فإن الله يقول: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥) فإن استطاع أن يقدم بين يدي صلاته صدقة فليفعل)[٣].

يقول ابن القيم – رحمه الله –: (وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره، فيتصدق به في طريقه سرًا وسمعته يقول: إذا كان الله قد أمرنا

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٢، وانظر: فتح القدير للشوكاني ١/ ٧٦.

(٢) البحر المحيط ١/ ١٦٥، وانظر: روح المعاني ١/ ١٩٥.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ٩٨٢٥، ٢/ ٣٥٣.

بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ، فالصدقة بين يدي مناجاته تعالى أفضل وأولى بالفضيلة..)[1].

وقد مر معنا في المبحث الثاني أن هذا تعليل لتقدم الزكاة على الصلاة في بعض النصوص من القرآن والسنة.

١٨- ومن فوائد وحكم الجمع بينهما: أن في الصلاة انتفاء للخيلاء والفخر وفي الزكاة انتفاء للبخل، وقد ذم الله هذه الصفات الثلاث، وقرن بينها في كتابه في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧) وغيرها من الآيات.

يقول ابن تيمية – رحمه الله –: (قد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ (النساء: ٣٦، ٣٧) في النساء والحديد. وضدّ ذلك الإعطاء والتقوى المتضمنة للتواضع كما قال: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ (الليل: ٥)، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨).

وهذان الأصلان هما جماع الدين العام. كما يقال التعظيم لأمر الله

(١) زاد المعاد ١/ ٤٠٧.

والرحمة لعباد الله، فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم، وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة؛ فإن الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع له والذل له، وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر، والزكاة متضمنة لنفع الخلق والإحسان إليهم وذلك مضاد للبخل، ولهذا وغيره كثُر القِران بين الصلاة والزكاة في كتاب الله)[1].

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ٢١٤.

الخـاتمة

الحمـد لله رب العـالمين، والـصلاة والـسلام عـلى أشرف الأنبيـاء والمرسلين وبعد:

فها هي صفحات هذا البحث تنقضي، وتبدو معالمه، وتظهر فوائده.

ولقد بان لي من خلاله جملة من النتائج والتوصيات:

أولاً: تعد هذه الدراسة محاولة أولية لتجلية الحكم والفوائد المستنبطة من جراء اقتران الصلاة والزكاة، وما زال كثير من الحكم والفوائد في بطون المصادر وأفئدة أهل العلم، يحتاج من يتصدى له بوقت أوسع ومساحة أرحب؛ ليستقصى كل ما يمكن كتابته في هذا الباب.

ثانيًا: الألفاظ والمعاني والموضوعات المقترنة في القرآن كثيرة ومتعددة، وتحتاج من يتصدى لها – كل موضوع على حدة – بالبيان والاستنباط والتوضيح.

ثالثًا: يعد من التكلف عد المعاني والألفاظ المتقابلة والتي لا ترد إلا مقترنة كالليل والنهار والشمس والقمر والسموات والأرض ونحوها، من هذا القبيل، ومحاولة استنباط الفوائد من ذلك الاقتران.

رابعًا: السنة النبوية مليئة بالألفاظ والمعاني المقترنة والتي تحتاج من يتصدى لها ليكشف عن حكم ذلك وأسراره وفوائده.

خامسًا: بلغ عدد مواضع اقتران الصلاة والزكاة في القرآن الكريم التي تمكنت من إحصائها (٤٥) موضعاً، وذلك من خلال الاستقراء التام لآيات القرآن وبعض الفهارس اللفظية والموضوعية لآيات القرآن الكريم،

وذلك يخالف الرقم الذي أشار إليه بعض الفقهاء في كتبهم، وأنه (٨٢) موضعاً، ولعل ذلك الرقم يقصد به – والله أعلم – الأحاديث النبوية إضافة إلى الآيات القرآنية.

سادسًا: يحسن للمتصدين لبيان الأحكام الفقهية من خلال القرآن الإفادة من دلالة اقتران بعض الألفاظ الشرعية؛ اقتداء بالصحابة ﷺ عندما كان اقتران لفظ الصلاة والزكاة في القرآن أحد الأسباب الدافعة لهم لمقاتلة مانعي الزكاة، واقتداء بترجيح بعض المفسرين للمراد من الزكاة في بعض المواضع من القرآن بحسب اقترانها بالصلاة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

ملحق

حصر المواضع التي جرى فيها الجمع بين الصلاة والزكاة في القرآن الكريم

الآية	السورة
	سورة البقرة
الآيات	٣، ٤٣، ٨٣، ١١٠، ١٧٧، ٢٧٧
	سورة آل عمران
الآيات	١٧
	سورة النساء
الآيات	٧٧، ١٦٢
	سورة المائدة
الآيات	١٢، ٥٥
	سورة الأنعام
الآيات	١٦٢
	سورة الأنفال
الآيات	٣
	سورة التوبة
الآيات	٥، ١١، ١٨، ٥٤، ٧١، ١٠٣
	سورة الرعد
الآيات	٢٢

الآية	السورة
	سورة إبراهيم
الآيات	٣١
	سورة مريم
الآيات	٣١، ٥٥
	سورة الأنبياء
الآيات	٧٣
	سورة الحج
الآيات	٣٥، ٤١، ٧٨
	سورة المؤمنون
الآيات	٢، ٣، ٤
	سورة النور
الآيات	٣٧، ٥٦
	سورة الفرقان
الآيات	٦٤، ٦٧
	سورة النمل
الآيات	٣
	سورة لقمان
الآيات	٤

الآية	السورة
	سورة السجدة
الآيات	١٦
	سورة الأحزاب
الآيات	٣٣، ٣٥
	سورة فاطر
الآيات	١٨، ٢٩
	سورة الشورى
الآيات	٣٨
	سورة الذاريات
الآيات	١٧ – ١٩
	سورة المجادلة
الآيات	١٣
	سورة المعارج
الآيات	٢٣ – ٢٥
	سورة المزمل
الآيات	٢٠
	سورة المدثر
الآيات	٤٣ – ٤٤

الآية	السورة
سورة القيامة	
الآيات	٣١
سورة البينة	
الآيات	٥

المصادر المراجع

- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الأدب المفرد، للإمام البخاري، تحقيق: خالد العك، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة، لعمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي، تحقيق: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٦هـ.
- الأكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، تحقيق: د. عامر العرابي، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، دار الندوة العالمية، الرياض، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم، جمع: يسري السيد، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار عالم الكتب، الرياض،

ط٢، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس.
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الغرناطي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم للطباعة، بيروت.
- تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر المروزي، تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.
- التفسير البسيط، أبي الحسن الواحدي، تحقيق: د. عبد الرحمن هوساوي وآخرين، ط عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري)، تحقيق: د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير، للفخر الرازي)، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: د. محمد البنا، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، تحقيق: د. عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرأن، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي)، لشهاب الدين الخفاجي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ن ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

- الدرر الحكام في شرح غرر الأحكام، لمنلاخسرو الحنفي، ط مطبعة أحمد كامل، تركيا، ١٣٣٠هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، تحقيق: محمد العرب، دار الفكر، بيروت، ط ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٢م.
- شرح الخرشي على مختصر خليل، دار الفكر، بيروت، دار صادر، بيروت.
- شرح الكرماني على البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- صحيح الأدب المفرد، للألباني، دار الصديق، الجبيل، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.
- عارضة الأحوذي شرح الترمذي، لابن العربي المالكي، مكتبة المعارف، بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.
- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري شرح الجيلاني، تحقيق: يوسف البكري، دار المعالي، عمّان، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تحقيق: محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٦هـ.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للعلاء الهندي، تحقيق: صفوت السقا،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

- اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، علي بن أبي بكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤٠٨هـ.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس.
- المحلى، علي بن أحمد بن حزم، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم، تحقيق: عبد السلام علوش، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- المسند، ابن حنبل، أحمد بن محمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.
- معالم التنزيل، للبغوي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- معرفة السنن والآثار (سنن البيهقي)، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الوعي، حلب، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- منة الحليم المنان في اقتران ألفاظ القرآن، لأحمد العجمي ومحمد خليل، دار الصحابة، طنطا، مصر، ط١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
- المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، يحيى بن شرف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل، لأبي جعفر النحاس، تحقيق: سليمان اللاحم، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، لمحمد المحمود، مكتبة المعلا، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة

تأليف

د. عبدالعزيز بن صالح بن عبدالعزيز العمَّار

د. عبدالعزيز بن صالح بن عبدالعزيز العمَّار

- أستاذ مشارك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- حصل على درجة الماجستير في البلاغة القرآنية من قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته (حديث القرآن عن القرآن: دراسة بلاغية تحليلية)
- حصل على درجة الدكتوراه في البلاغة النبوية من قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته (الاستفهام في الصحيحين: خصائصه التركيبية، ومعانيه البلاغية).
- مدير تحرير مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا بأن أنعم علينا بالقرآن والإيمان، وجعلنا من المسلمين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فجاء اختياري لموضوع " **خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة**"؛ لأهميته، وجليل شأنه في الدراسات القرآنية، فلا يخفى مكانة المكي والمدني لدى علماء علوم القرآن والمهتمين به، فقد حظي بالعناية الفائقة، والرعاية الخاصة به قديماً وحديثاً، وقد أخذ حقه ونال حظه في الدراسات القرآنية كاملا غير منقوص، فقلَّ أن تجد كتاباً يبحث في علوم القرآن إلاَّ وتجد فيه مساحة واسعة في الحديث عنه، والإشارة إليه، والإشادة به، وبيان منزلته وثمرته، وبيان عناية العلماء به.

ولن أتحدث في هذا البحث عن خصائص الآيات المكية على وجه العموم، كما أنه لن يكون حديثاً نظرياً، ولكني سأقيد هذه الدراسة بسورة " القارعة"، ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان: " **خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة**"، وهذا ما يميز هذه الدراسة، ويعطيها شيئاً من الخصوصية والتميز، وسأنطلق في بيان هذه الخصائص من السورة نفسها من خلال بيان خصائصها الأسلوبية، والأسرار البلاغية التي تم توظيفها في مخاطبة هؤلاء الأقوام الذين تنزلت عليهم هذه السورة، مبيناً ما استطعت مدى توافق هذه الخصائص مع حال أولئك القوم، مبيناً في الوقت نفسه الأسرار

البلاغية في توافر هذه الخصائص في العهد المكي، والأهداف التي جاءت لتحقيقها، والأغراض المراد بيانها وتقريرها.

ومن هنا تتجلى أهمية هذه الدراسة؛ في كونها دراسة تطبيقية، وهذه هي الإفادة الكاملة في نظري من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيف مبحث المكي والمدني في مثل هذه الدراسات، وقد دعا بعض العلماء إلى مثل هذه الدراسات، وحثوا عليها، وسيأتي حديث عن هذا الأمر في أثناء هذه الدراسة، ولكني أكتفي هنا بما ذكره الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر – وهو ممن عُني بالجانب التطبيقي في هذا المجال – يقول:« إن معظم هذه العلوم لا يزال بحاجة إلى وقفات أطول، تتناول كلا منها على حدة، لتراجع أولا جهود أسلافنا في دراسته، سواء من حيث قواعدهم ومنطلقاتهم العلمية في هذه الدراسة، أو من حيث الثمار النهائية التي توصلوا إليها بالفعل، ثم تكون المرحلة التالية – بل الطبيعية – هي الإضافة إلى هذه الجهود، نعم إن مرحلة الإضافة هذه طبيعية وتلقائية تماماً إذا صدق الدارس في مراجعته، وبذل لها الجهد المطلوب قدر إمكانه » .[١]

ثم يؤكد هذه القضية مرة أخرى ويعيدها في قوله:« وبعبارة أوضح فإنهم أعطوا أهمية كبيرة في هذه المباحث للمرويات والآراء الخاصة بتحديد ما هو مكي، وما هو مدني من السور والآيات، دون أن يعطوا الأهمية

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين: المكي والمدني: ٥، للدكتور السيد عبدالمقصود جعفر.

نفسها لدراسة خصائص النص القرآني – موضوعياً وأسلوبياً – على ضوء اختلاف الظروف والتطورات بين هذين العهدين، وكل ما ورد عنهم في ذلك قد جاء في نطاق ضيق لا يتجاوز سطورا معدودة تحت عنوان "علامات"، أو "ضوابط"، أي العلامات أو الضوابط المميزة لكل من السور المكية، والسور المدنية» .[١]

ولا تخفى أهمية هذا الموضوع، فقد ذكر العلماء أهمية هذا العلم وثمرته، والمؤلفات فيه، ولكني هنا سأذكر فائدته المرتبطة بمثل هذه الدراسة البلاغية وعلاقتها به، ومن أهم ما يهمنا من هذه الفوائد: أن معرفة المكي والمدني تجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، ومن ثَم الإفادة من هذا البحث في الدعوة إلى الله؛ وذلك أنه يُعطي الدارس المنهج في طريقة التعامل مع الناس على اختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم وتنوعها؛ وذلك أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية موضوعاتها الخاصة بها، وأساليب الخطاب التي تتميز فيها، كما يُعطينا هذا البحث دلالة مباشرة على أن لكل مقام مقالاً، فلكل قوم ما يخصهم من الخطاب، ومن ثَم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعياً لها، وهل البلاغة إلاَّ هذه؟! .[٢]

ولذا فهو يساعدنا على تذوق أساليب القرآن الكريم، وإدراك

---

(١) المصدر السابق: ٦

(٢) انظر : مباحث في علوم القرآن : ٥٩، للدكتور :مناع القطان .

الفروقات الدقيقة بينها، كيف لا؟! ونحن نعلم أن مراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وعليها تقوم . [(١)]

ومن أهمية هذا الموضوع: أنه يوقفنا على دلالات مهمة، وإشارات بالغة لفهم النص القرآني؛ وذلك من خلال معرفة الأجواء التي تنزل فيها، والوقوف على أحوال المخاطبين بهذا النص، والأجواء المحيطة به، وفي هذا استيفاء لمعاني النص القرآني، واستقصاء لدلالاته و مدلولاته، وكشف عن أسراره، وما يحيط به[(٢)]

وسيتجلى هذا - بإذن الله – في هذه الدراسة من خلال الوقوف مع خصائص الخطاب المكي في سورة " القارعة"؛ لتوافر كثير من الأسرار البلاغية في هذه السورة، فشكَّلتْ ظاهرة أسلوبية، كما تميزت بكثير من الخصائص الأسلوبية والتعبيرية، فأردتُ الوقوف معها؛ لبيان السرِّ في توافرها، وبيان مدى ملاءمتها للقوم الذين خُوطبوا بها، وللأجواء التي تنزلت فيها، وبيان أنها جاءت وفاءً لمقام البلاغة، وتطلباً لأحوال القوم في العهد المكي.

كما أن سورة " القارعة" من أواسط السور التي نزلت في العهد المكي[(٣)]، فجاءت محمَّلة بكثير من خصائصه الأسلوبية والموضوعية، ولذا نجد فيها الألفاظ القوية المجلجلة، والأساليب الدالة على الوعيد

---

(١) انظر : مباحث في علوم القرآن : ٥٩، و: تأملات قرآنية بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٤٣، للدكتور موسى بن إبراهيم الإبراهيم

(٢) انظر : دراسات في علوم القرآن الكريم : ١٣٧، د. فهد الرومي .

(٣) انظر : البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣، لبرهان الدين الزركشي.

والتهديد، كالاستفهام بدلالاته المتعددة، كما توافر فيها أسلوب التكرار، فضلاً عن اللغة التصويرية القائمة على الأساليب البيانية، والفنون البديعية، كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة.

جاءت هذه الدراسة في مقدمة، ذكرتُ فيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومبحثين: المبحث الأول: بعنوان: وقفات تأملية مع مبحث المكي والمدني، ذكرتُ فيه خمس وقفات متعلقة بموضوع الدراسة، كانت توطئة للمبحث الثاني، الذي كان بعنوان: خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة، ثم كانت خاتمة البحث ذكرتُ فيها أبرز النتائج التي تم الوصول إليها، والخروج بها من خلال هذا البحث، وبعض التوصيات المتعلقة بهذه الدراسة، ثم ذيلتُ ذلك بفهارس المصادر والمراجع

وبعد: فهذا ما سأسعى إلى تحقيقه والوصول إليه، فإنْ تم ذلك على الوجه الذي أريد فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تكرم منه – سبحانه – وتفضل، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولت، وإنْ لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدت، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: وقفات تأملية مع مبحث المكي والمدني

الوقفة الأولى: تعريف المكي:

يحسن قبل البدء في الحديث عن خصائص العهد المكي، أن أبيِّن المراد بالمكي في هذه الدراسة، مع أني لستُ معنياً في هذا البحث أن أستقصي الأقوال في هذه المسألة، ولكني سأشير إلى أبرز ما قيل في ذلك وأرجحها، فقد تعددت أقوال العلماء وتنوعت في بيان المراد بالآيات المكية، وتنوعت أقوال العلماء في ذلك، بيد أن أجمع هذه الأقوال، وأكثرها ضبطاً وتحديداً، بل هو المشهور والراجح لدى كثير من العلماء المشتغلين في علوم القرآن قديماً وحديثاً: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، سواء كان في مكة أو خارجها، قريباً منها أو بعيداً عنها، بخلاف المدني، فهو ما نزل بعد الهجرة، سواء كان في المدينة أو خارجها، قريباً منها أو بعيدا عنها كذلك، حتى وإن كان في مكة.[1]

وحين نتأمل في هذا التعريف نجد أنه منبثق من زمن النزول، فما كان قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وهو ضابط دقيق يشمل آيات القرآن الكريم كلها، وقد كانت هجرة المصطفىﷺ هي الأساس والفيصل في هذه المسألة، ولا غرو في هذا؛ فإن الهجرة النبوية هي الحد الفاصل، ونقطة التحول في تأريخ الدعوة الإسلامية، فهي كذلك الفيصل في تحديد المكي والمدني، وليس ثمة حدث أولى وأكبر من هجرتهﷺ للتفريق

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٨٩ .

بين هذين العهدين، فبعد الهجرة تميزَّ ما نزل من القرآن عما قبله تميُّزاً واضحاً جليا، وأصبح لكل من العهدين خصائصه الخاصة به الموضوعية والأسلوبية. (١)

الوقفة الثانية: جهود العلماء في المكي والمدني:

إن الناظر في كتب القرآن قديماً وحديثاً يجد أن الحديث فيها عن المكي والمدني قد أخذ مساحة واسعة من اهتمام العلماء به، فقد عُني العلماء به((عناية فائقة فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة؛ لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان، والمكان، والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب)) . (٢)

وإن هذا الاهتمام جزء من الاهتمام بالقرآن الكريم كله، كما أن ذلك إشارة إلى عِظم مكانة القرآن، وعلو منزلته، كما أنه دليل على حفظ الله لكتابه، بأن قيض له من يحفظه، ويعتني به، ويرد عنه كل شبهة ونقيصة، ويحميه من كل شائبة تلحق به من نقص أو زيادة، أو تحريف. (٣)

ولم يكن هذا الاهتمام وليد اللحظة، أو متطلباً من متطلبات هذا العصر، فقد بدأت بداياته مع بداية نزول القرآن الكريم، ومن الجهود

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن: ٥٦، عبدالقهار العاني، و: المكي و المدني: ١٤، د. محمد عبدالرحمن الشايع.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٥٩ .

(٣) انظر: إتقان البرهان في علوم القرآن:: ١/ ٣٦٩، للدكتور فضل حسن عباس .

المبكرة في هذا المجال: موقف الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ﷺ يدل على ذلك قوله : « والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله، إلا وأنا أعلم أين أُنزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أُنزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه». (1)

ولذا فلا أقل من الإشارة إلى هذا العمل، وإلى ذلك الجهد الكبير الذي بذله أسلافنا، كيف لا؟! وهو « جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحله، ويتناول آيات القرآن الكريم، فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانها، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكي أم من قبيل المدني؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة؟ أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة؟». (2)

ولا غرو في ذلك فقد نال هذا العلم من أسلافنا على اختلاف تخصصاتهم، وتعدد مشاربهم« عناية طيبة، تذكرنا بجهدهم العظيم الذي بذلوا فيه أقصى ما وسعهم للتفقه في كتاب الله، وتتبع كل ما يعين على تفسيره، والدفاع عنه، وإظهار إعجازه» . (3)

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب رسول الله ﷺ ، برقم: ٥٠٠٢، ومسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبدالله بن مسعود وأمه – رضي الله عنهما –، برقم: ٢٤٦٣ .

(2) مباحث في علوم القرآن: ٥٣ .

(3) المثاني القرآنية دراسة في مفهوم التكرار وأسراره في القرآن: ٣٧، للدكتور السيد =

ومن يقف عند مبحث المكي والمدني في القرآن الكريم يدرك الجهد العظيم الذي بذله علماؤنا في هذا المجال، وإنه لعمل جبار، وجهد عظيم، فقد« استقرأ العلماء السور المكية، والسور المدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي تناولتها، وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات، فذكروا ضوابط المكي، ومميزاته الموضوعية، وكذلك المدني» . [1]

وإنه لجهد عظيم يعكس قيمة هذا الكتاب المنزَّل، كما يعكس كذلك مكانة هذا القرآن في نفوس أتباعه، ومكانته لدى علماء الأمة قديماً وحديثاً، كيف لا وهو كلام رب العالمين؟

كما أن لهذا الاهتمام غايات عظمى، ومقاصد جليلة، وإن استهان به من استهان، أو خفيت عليهم حكمه وغاياته، وقد ذكر هذه الحقيقة وأكدها الدكتور بكري شيخ أمين في قوله:« هذا الاستقصاء في تحري أماكن نزول الآيات، ومعرفة أسباب نزولها قد يبدو لبعض الغافلين أنه أمر غير ذي بال، ولكنه في نفوس الرواة والعلماء يعني صدق الرواية، وإحاطة القرآن بسياج من العناية لم يظفر بأقل منها أي كتاب آخر في هذه الوجود في مشارق الأرض ومغاربها، منذ أن خُطَّ أول سطر في هذه الحياة إلى يومنا هذا» . [2]

= عبدالمقصود جعفر .

(١) مباحث في علوم القرآن: ٦٣ .

(٢) التعبير الفني في القرآن: ٤٥ .

ولا عجب في هذه العناية، ولا في ذلك الاهتمام فإن أمم الأرض قاطبةتولي وبشكل كبير« اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكري، ومقومات حضارتها، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق في عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التي شرفت بها الإنسانية جمعاء » .(١)

الوقفة الثالثة : نزول القرآن منجما :

من المعلوم أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة على رسول الله ﷺ، بل نزل مفرَّقاً منجماً على امتداد بعثته كلها، لحكمة شاءها مَن تكلم بهذا القرآن الكريم وأنزله - سبحانه وتعالى -، وقد أشار - سبحانه - إلى بعض هذه الحكم في قوله – تعالى – في معرض رده على كفار قريش في كون القرآن لم ينزل جملة واحدة، يقول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾(٢)، فقد امتد نزول القرآن الكريم ثلاثاً وعشرين سنة، مدة نبوته – عليه الصلاة والسلام –، فقد عاش في مكة بعد بعثته ثلاث عشرة سنة، وقضى بالمدينة عشر سنين، بعد أن هاجر إليها، إلى أن لحق بربه في الرفيق الأعلى ﷺ

وبهذه الطريقة نزل القرآن، وبهذه الطريقة « قضت حكمة الله أن يظل الوحي متجاوباً مع الرسول ﷺ يعلمه كل يوم شيئاً جديداً، ويرشده ويهديه، ويثبته ويزيده اطمئناناً، ومتجاوباً مع الصحابة – رضوان الله

(١) مباحث في علوم القرآن: ٥١ .

(٢) الفرقان: ٣٢ .

عليهم – ويربيهم، ويصلح عاداتهم، ويجيب عن وقائعهم، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب نزوله منجماً مفرقاً بحسب الحاجة، خمس آيات، وعشر آيات، وأكثر، وأقل، على هذا المنوال ظل القرآن ينزل نجوماً؛ ليقرأه النبي ﷺعلى مكث، ويقرأه الصحابة – رضوان الله عليهم – شيئاً بعد شيء، يتدرج مع الأحداث والوقائع، والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسولﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاما » .[1]

وكان القرآن ينزل في هاتين المرحلتين على حسب الوقائع والحوادث، وعلى جميع الأحوال والظروف التي كان عليها رسول اللهﷺ، ووفقاً لمتطلبات الدعوة في كل من مكة والمدينة، فقد نزل في الأمصار والقرى، كما نزل في الجبال والوهاد، وفي أجزاء من الليل والنهار، كما نزل كذلك في السفر والحضر.[2]

ونظراً إلى هذا الاختلاف، وتعدد هاتين المرحلتين جاء الاختلاف في خصائص كل مرحلة في خصائصها الموضوعية والأسلوبية، وقد أشار الدكتور عدنان زرزور إلى هذه الحقيقة، وأكدها في قوله: « لقد عاشت الدعوة الإسلامية التي تعهدها القرآن الكريم طورين متميزين واضحين، ومرحلتين متعاقبتين، ولا بد من وضع عنوان واضح لكل مرحلة، والتماس

(١) التعبير الفني في القرآن: ٢١ .

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم: ٤٧، د. فهد الرومي، و: علوم القرآن الكريم: ٤٨، د. عبدالمنعم النمر

سماتها الخاصة، ومميزاتها الرئيسة بما يعين دارس القرآن الكريم على فهم المواقف والأحوال، ويمهد للوقوف على الخصائص البيانية والأسلوبية، ومزايا الأداء القرآني بوجه عام » .[1]

الوقفة الرابعة : أن البلاغة هي مراعاة حال القوم المخاطبين :

مما هو معلوم، أو مما ينبغي أن يُعلم أن لكل قوم ما يخصهم من الخطاب، وأن الخصائص سواء كانت موضوعية أو أسلوبية إنما تكون متلائمة ومتوافقة مع القوم الذين يُخاطبون بها، وما البلاغة إلا هذه، فهي التي تراعي أحوال المخاطبين، وهي التي تُعنى بالمقامات، والأحوال التي يكون عليها المخاطبون[2]، ومبحث المكي والمدني في القرآن الكريم تأكيد لهذه القضية، فإن فيه تحقيقاً لهذه المسألة؛ إذ يتجلى فيه مراعاة حال المخاطب، وتباين الناس بالخطاب نظراً إلى اختلاف الحال، وتعدد المقامات، وتباين الناس المخاطبين بهذه الآيات، ولا غرو في ذلك « فإن لكل مقام مقالاً، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن المدني تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، وتمتلك عليه لبه ومشاعره، وتعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها، وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم، وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحا جلياً

(١) علوم القرآن: ١٣٥، للدكتور عدنان محمد زرزور .

(٢) انظر: الإيضاح: ١/ ٢٦، للخطيب القزويني .

بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والكافرين والمنافقين، وأهل الكتاب ». (١)

ولذا فإن تباين خطاب القرآن الكريم مرده إلى تعدد المخاطبين، وتباين مواقفهم من الدعوة، ومن صاحبها، ويكاد يكون هذا الأمر مطرداً في أسلوب القرآن الكريم كله، كما أنه ملحوظ فيه هذا الأمر، ومشهود له بذلك، وذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن، وسرٌّ من أسرار خلوده، ولذا « فإن أسلوب القرآن الكريم بنوعيه المكي والمدني يبقى هو الأسلوب المعجز الذي تميز عن أساليب العرب، بل البشر جميعاً، وبلغ الذروة في الجمال والروعة الإشراق». (٢)

ومن الإشارات المتقدمة في ذلك كلام الجاحظ، فقد لاحظ تباين أسلوب القرآن في مخاطبته للعرب، وفي مخاطبته لأهل الكتاب، فأطلق في ذلك عبارته المشهورة، حين قال: « ورأينا أن الله – تبارك وتعالى – إذا خاطب العرب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام». (٣)

وقد علل صاحب " مناهل العرفان" هذه الظاهرة الأسلوبية لخطاب القرآن الكريم، وزادها بياناً وإيضاحاً في قوله: « لأن القصر مظهر الإيجاز، والإيجاز مظهر رقي المخاطب، وآية فهمه وذكائه، بحيث يكفيه من الكلام

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ٥٩ .

(٢) تأملات قرآنية بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٤٢

(٣) الحيوان: ١/ ٩٤

موجزه، ومن الخطاب أقصره، أما من كان دونه ذكاء وفهماً فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط، ولهذا المعنى جاء قسم المكي قصيراً موجزاً في معظمه، وجاء المدني طويلا مسهباً في أكثره». (١)

بل لم يقف هذا التباين في خطاب الله للعرب والأعراب عنه في مخاطبة أهل الكتاب، بل إن خطابه للعرب وأهل العربية متباين فيما بينه كذلك، ومن هنا جاء اختلاف خطاب الآيات المكية، عن الآيات المدنية، وتمايز كل خطاب عن الآخر، حتى صار لكل واحد منهما خصائصه وسماته التي يُعرف بها، وتميزه عن الآخر، كما هو معروف ومقرر في كتب علوم القرآن، ولهم في ذلك جهود مشهودة ومشكورة.

ولذا فإن الحق الذي لا مراء فيه « أن القرآن الكريم قائم على رعاية حال المخاطبين، فتارة يشتد، وتارة يلين؛ لِما يقتضيه حالهم سواء منهم مكيهم ومدنيهم، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد، وتسامح وتسديد، وأخذ ورد، وجذب وشد... وإذا لُوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدة والعنف، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسول وأصحابه، والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم». (٢)

ومن هنا تتجلى علاقة هذا الموضوع، وشدة وثاقته بالبلاغة، ومن ثم جاءت الرغبة في الكتابة فيه؛ للوقوف عند خصائص هذا الخطاب، وبيان شيء من

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٢١٩، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني .

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢١٤ .

أسراره البلاغية، ونكته البيانية.

فإذا تبين هذا وتقرر فما خصائص القوم الذين عاشوا في العهد المكي، وما صفاتهم وطباعهم التي كانوا عليها؟ فلا بد من بيان حال القوم الذين عاشوا في هذه الحقبة المهمة، كيف لا؟! وهي تمثل جزءاً كبيراً ومهما من مراحل الدعوة، وقد نزل فيها أكثر القرآن، فلا بد من النظر في حالهم وبيانه؛ لنرى كيف جاءت خصائص الخطاب المكي متوافقة معها، ومنبثقة منها.

فأقول - بادئ ذي بدء - : إن القرآن الكريم إنما نزل لمعالجة النفوس وإرشادها إلى سبيل الحق والرشاد، من أجل هدايتها والسلوك بها الطريق المستقيم، ومن ثَم جاء القرآن لمخاطبة هذه النفوس، ودعوتها إلى المبادئ والقيم التي يجب أن تؤمن بها، وتعمل بمقتضاها، وتقبل عليها، ولذا فمن المهم معرفة طبيعة هذه النفوس، وما جُبلتْ عليه من الخصائص والطباع، فما هي صفات القوم في العهد المكي؟ وكيف كانت طباعهم؟ وما أبرز خصائصهم وخلالهم التي كانوا عليها؟ وكيف تقبلوا واستقبلوا القرآن الكريم لما نزل عليهم؟ أقول تبياناً لهذا كله: نزل القرآن الكريم في هذا العهد و القوم في جاهلية جهلاء تعمي وتصم، يعبدون الأصنام، ويشركون بالله العظيم، ويكذبون بيوم الدين، وهم مع ذلك غلاظ الأكباد، قساة القلوب، جفاة الطباع، أهل حمية وجاهلية، وعناد وعنجهية، نشؤوا في الشرك، وشبوا عليه، ولهم عاداتهم وتقاليدهم، تعصبوا لها، وقدسوها، بل بنوا عليها حياتهم، وألفوها وركنوا إليها، وهم مع هذا كله ألداء في

الخصومة، أهل مماراة وجدل، ولجاجة في القول، يصدرون في ذلك كله عن فصاحة وبيان، فقد ملكوا أزمته، وقادوه حيث شاؤوا فانقاد لهم يصرفونه حيث يشاؤون. (١)

وقد كان المشركون في هذه الحقبة من زمن الدعوة هم الكثرة الكاثرة، والسواد الأعظم، وقد وقفوا في وجه هذه الدعوة الجديدة، وفي وجه أصحابها، وشنوا عليهم حرباً شعواء، لا تبقي ولا تذر، وقد سعوا بما أُوتوا من عدة وعتاد ألا يظهر هذا الدين، وألا ترتفع له راية، ولكن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد تزعم هذا الموقف، وقاد هذه الحرب أهل الزعامة منهم والمكانة، فهم الذين يخافون على مناصبهم وعروشهم، وهم الذين يحرصون على بقائها غير منازعين فيها، ولذا فقد ناصبوا الدعوة الجديدة العداء، وحاربوا من جاء بها، وأنكروا القرآن نكراناً شديداً، وكذبوا بالرسالة، وكفروا بها، ورموا أصحابه بكل نقيصة، واتهموهم بكل إفك مفترى. (٢)

الوقفة الخامسة: خصائص الخطاب في العهد المكي:

يحسن - قبل الحديث عن خصائص الخطاب في العهد المكي - الحديثُ عن هذه الخصائص، وتلك الضوابط، من حيث أنواعها، وجهود العلماء في بيانها، والإشارة إلى أقسامها.

---

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن والحديث: ٥٩، د. يوسف خليف، و: تأملات قرآنية: بحث منهجي في علوم القرآن الكريم: ٣٨ .

(٢) انظر: علوم القرآن الكريم: ٥٤، و: التعبير الفني في القرآن الكريم: ٤٧ .

ذكر علماء القرآن المعنيون بالمكي والمدني في القرآن الكريم أن هناك منهجين أساسيين في معرفة المكي والمدني، تم الاعتماد عليهما في بيان الآيات المكية، والأخرى المدنية، وهذان المنهجان هما: المنهج الأول: المنهج السماعي النقلي، وأما المنهج الآخر: فهو المنهج القياسي الاجتهادي . (١)

وفيما يأتي بيان لكل منهج من هذين المنهجين، فأما المراد بالمنهج السماعي النقلي: فيرجع إلى النقل عن الصحابة – رضوان الله عليهم – الذين عاصروا الوحي، وشهدوا التنزيل، وحضروا الحوادث، والأماكن والوقائع التي نزل فيها القرآن، وتكلم عنها، أو عن التابعين الذين عاصروا الصحابة، وتلقوا عنهم، وسمعوا منهم كيفية نزول القرآن، ووقته، وعرفوا منهم مواقعه وأحداثه. (٢)

إذن فهذا هو المصدر الأول في معرفة المكي والمدني، « ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور، ومؤلفات أسباب النزول، ومباحث علوم القرآن». (٣)

ومن وَقَفَ على كتب علوم القرآن، ونظر فيها وجد مصداق ذلك،

---

(١) للوقوف على هذين المنهجين، والاستزادة منهما ينظر: البرهان في علوم القرآن:١/ ١٩١، الانتصار للقرآن:١/ ٢٤٧، للباقلاني و:المكي والمدني في القرآن الكريم:١٨، الدكتور محمد بن عبدالرحمن الشايع، و:إتقان البرهان في علوم القرآن:١ / ٣٧١، للدكتور فضل حسن عباس، وتأملات قرآنية:٤٢، للدكتور موسى الإبراهيم، وغيرهم.

(٢) انظر: الانتصار للقرآن: ١/ ٢٤٧، و: تأملات قرآنية: ٤٣ .

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٦٠، د. مناع القطان .

ووجد فيها قولاً شافياً، وجواباً كافياً في حديث العلماء عن السور المكية، والأخرى المدنية في القرآن الكريم، والسور التي اختلف فيها العلماء، يجد ذلك مفصلا تفصيلاً، ومبيناً بياناً كاملا. (١)

إذن فهذا هو المراد بالمنهج السماعي النقلي في معرفة المكي والمدني في القرآن الكريم، والذي لا ريب فيه أن هذا المنهج« هو المرجع، وهو الطريق الأساس في تحديد المكي والمدني من القرآن الكريم؛ على اعتبار أن من عايشوا التنزيل ومواطنه وكافة ملابساته هم المصدر الأوثق في هذا التحديد، وعلى اعتبار أن هذا المصدر هو الفيصل أيضاً فيما يشكل تحديده». (٢)

بيد أن العلماء لم يكتفوا بهذا الطريق، ويقفوا عنده، بل أضافوا إليه المنهج الآخر، والسبب في ذلك أنه لم يرد عن رسول الله ﷺ شيء في ذلك يصح الاقتصار عليه، والاكتفاء به، ولكن: «يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن رسول الله ﷺ في ذلك قول؛ لأنه لم يُؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب بعضه على أهل العلم، ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ». (٣)

ولذا فالنقل والسماع لا ينهض وحده في تحديد المكي والمدني في

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٩٣، والمكي والمدني: ٥٤، وغيرهما

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٣٦.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٦١.

القرآن الكريم، ولذا كان ثمة منهج آخر في معرفة المكي والمدني، وهو المنهج القياسي الاجتهادي، والمراد به: ذلك المنهج الذي يعتمد على الخصائص الموضوعية والأسلوبية لكل من المكي والمدني، وهي خصائص مطردة، أو تكون مبنية على الغالب(١)، تقوم على التأمل والتدبر لآيات القرآن الكريم « فإذا ورد في السور المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية، وإذا ورد في السور المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مكية، وإذا وجدوا فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية ». (٢)

ولكن ينبغي أن يعلم أن هذه الخصائص لكل من المكي والمدني « ليست فروقاً قاطعة أو حادة، ولكنها تمثل الطابع الرئيسي والملامح العامة، والخواص الغالبة لكل من الآيات المكية والمدنية ». (٣)

كما أن هذه الخصائص قائمة على التأمل والنظر، ولذا فيسمي أحد الباحثين هذا المنهج بالمنهج الاستنباطي(٤) ، وصدق في ذلك؛ ففي هذه التسمية إشارة إلى طبيعة هذا المنهج، وإلى ما يحتاجه المتأمل من إطالة النظر، وطول التأمل والتدبر؛ للوقوف على هذه الخصائص وتحديدها، من أجل تمايز خصائص كل مرحلة عن الأخرى، ومفارقتها لها في خصائصها

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن: ٦١، و: المكي والمدني في القرآن الكريم: ٢١ .

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٦١ .

(٣) علوم القرآن: ١٤٠

(٤) تأملات قرآنية: ٤٢

الموضوعية والأسلوبية، وإن هذا العمل لشاق عسير يحتاج إلى المتخصصين المتمكنين من ذوي البصائر والنظر.

وقد أشار أحد العلماء إلى طبيعة هذا العمل وصعوبته في قوله « إنه ليس بصعب على أي مهتم بالدراسات القرآنية أن يكتشف عشرات الضوابط المطلقة أو الغالبة لكل من السور المكية، والسور المدنية عن طريق المصادر الإحصائية الحديثة لتعبيرات القرآن وألفاظه... لكن الذي يحتاج إلى بذل الجهد حقا هو: اختيار الضوابط الأوضح تعبيراً عن مرحلتها مع الربط بينها وبين هذه المرحلة، بما يتيح المزيد من الكشف عن طريقة الخطاب القرآني في معالجته لقضاياه، واختياره لأساليبه وألفاظه حسبما يناسب هذه القضايا، وحسبما يناسب المرحلة الزمنية التي تتنزل فيها سوره وآياته، فنعرف من خلال ذلك إلى أي مدى تتلاءم الألفاظ والأساليب مع القضايا، أو مع الواقع الذي تتعلق به، ولِمَ يقتصر شيء منها تماماً على مرحلة دون مرحلة، أو يكثر استخدامه في مرحلة بعينها، وإن لم يغب عن المرحلة الأخرى، أو يكاد يظهر مشتركاً أو متساوياً بين المرحلتين، وما أثر هذه المعرفة في إيضاح مقاصد القرآن وخصائصه من ناحية، وفي الإسهام بمزيد من العطاء في قضية إعجازه من ناحية أخرى، ونحو ذلك». (١)

إذن فهذان هما الطريقان الوحيدان لمعرفة المكي والمدني في القرآن الكريم، وهذان المنهجان معروفان لدى المهتمين بالقرآن وعلومه، وثمة

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٢٢٨ .

إشارة متقدمة إلى هذين المنهجين، ومن ذلك ما ذكره الإمام السيوطي عن برهان الدين الجعبري المقرئ، فقد نقل عنه قوله:« لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي، وقياسي». [١]

وينبغي أن يعلم أن هذين المنهجين يكمل بعضهما بعضاً، وأنه لا تعارض بينهما، ولكل واحد منهما مجالاته، ولكل من هذين المنهجين رجاله المتخصصون فيه.

خصائص الخطاب المكي:

وسيُعنى هذا البحث بالمنهج الثاني، وهو المنهج الاجتهادي الاستنباطي لبيان خصائص العهد المكي، وسيقتصر – كذلك – على الخصائص الأسلوبية تنظيراً في هذا المبحث، وتطبيقاً في المبحث الثاني في سورة القارعة

وسيعتمد على المنهج على النص نفسه، وسينطلق منه، تأملا و تدبراً، وهو أمر من الأهمية بمكان؛ وذلك أن « النص القرآني هو الذي صنع أمة لم يكن لها قبله وجود بين الأمم، وقوض أمماً كانت على عهده أعظم الأمم، إنه الكتاب الذي غيَّر وجه التاريخ، ولكي نعرف كيف تم هذا التغيير يلزمنا الخوض في علوم ومباحث متعددة، أهمها العلم الدقيق بتاريخ النص القرآني، وبكافة المراحل الزمنية التي مرَّ بها، وذلك لكي نقوم بعملية مطابقة بين هذا التاريخ، وتاريخ الواقع نفسه، واقع بيئة الدعوة وما حولها،

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٨٩ .

وواقع الدعوة ذاتها من ناحية أحداثها وظروفها التفصيلية، وواقع الداعية نفسه المتمثل في سيرته، نقوم بهذه المطابقة لنعرف كيف تعامل القرآن مع هذا الواقع بجميع أنواعه؟ كيف عالجه؟ أو تفاعل معه أو وجَّهه، حتى انتهى به إلى ما انتهى إليه من بناء الأمة التي بناها، أو من إحداث ما أحدثه من التغيير العظيم». [1]

وقد سبقت الإشارة إلى خصائص القوم الذين عاشوا في العهد المكي، وبيان شيء من أوصافهم، وما جُبلوا عليه وطُبعوا، وقد كان ذكر هذه الخصائص بمنزلة التوطئة والتمهيد لبيان خصائص الخطاب المكي، فإذا كانت تلك أوصافهم، وهذه هي خصائصهم فكيف تمت مخاطبتهم؟ وكيف جاء الخطاب القرآني في العهد المكي متوافقاً مع تلك النفوس؟ وكيف جاء مراعياً لتلك الأحوال كلها؟ والظروف التي مرت بها الدعوة في العهد المكي؟

فإذا كانت تلك أحوالهم، وذلك ما طُبعوا عليه من الجحود والإنكار، ومن الكفر و العناد فهل من المناسب – والحالة هذه، ومع هذا العدو المتغطرس المكابر – أن يكون الخطاب معه « بأسلوب لين هادئ، بعد أن ضاعت معه أساليب المنطق الهادئة؟ لا؛ فكلما كان الموقف يحتاج إلى حسم وشدة وتخويف وتهديد وزجر كانت الفقرات القصيرة، والكلمات المعبرة الشديدة الوقع أشد مناسبة لهذا الموقف، وهكذا كان القرآن وهو في

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٣٢ .

الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة، ومراعاة مقتضى الحال، فإذا وجدتَ آيات أو سوراً قصيرة، وأسلوباً يزجر، ويهدد ويقسو ويشتد، ويرد هجوماً على رسول الله ﷺ، ويهدد المعتدين، فاعلم أن هذه آيات مكية». (١)

ومن هنا تميز الخطاب المكي بأنه قوارعُ زاجرة، وشُهُبٌ منذرِة، وحِممٌ مُحْرِقة، وحُججٌ ناطقة تزلزل عرش وثنيتهم، وتحطم كبرياءهم، وتسفه أحلامهم، وتسوق لهم قصص الغابرين؛ عظة وذكرى لهم، وتبين لهم دلائل النبوة، وتبين لهم حقيقة الحياة الدنيا، وتضرب لهم الأمثال، وتذكر الحياة الآخرة، وتبين مافيها من جنة ونار، وما يكون فيها من نعيم للمؤمنين، وعذاب للكافرين. (٢)

وقد تم التعبير عن هذه المعاني « بألفاظ شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شَرَر الوعيد، وألسنة العذاب، فـ" كلا" الرادعة الزاجرة، والصاخبة والقارعة والغاشية والواقعة، و ألفاظ الهجاء في فواتح السور، وآيات التحدي في ثناياها، ومصير الأمم السابقة، وإقامة الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، كل هذا تجده في خصائص القرآن المكي». (٣)

كما تم التعبير عن هذه المعاني بأسلوب قصير موجز، ولذا يكاد يكون الإيجاز، وقِصَر الآيات سمة بارزة في آيات العهد المكي وكلماته، وقد أكد هذه الخاصية، وأشار إليها كثير من العلماء ممن تحدث عن خصائص

(١) علوم القرآن الكريم: ٦١، د. عبدالمنعم نمر .

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن: ٥٢، مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٢١٤ .

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٥٢، للدكتور مناع القطان .

الخطاب في العهد المكي. (١)

ولذا فمن المقرر في هذا: أنه مما تميز به الخطاب المكي « أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات، صغيرة السور؛ لأنهم كانوا أهل فصاحة ولَسَن، صناعتهم الكلام، وهمتهم البيان، فيناسبهم الإيجاز والإقلال، دون الإسهاب و الإطناب». (٢)

ويعلل الدكتور محمد عبدالعظيم الزرقاني سبب هذه الخاصية، وكثرة ورودها في الخطاب المكي بقوله: « ويرجع ذلك إلى أن القرشيين في مكة كانوا في الذؤابة من قبائل العرب ذكاء وألمعية وفصاحة وبلاغة، وشرفاً وشجاعة، فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته؛ رعاية لحق قانون البلاغة والبيان في خطاب الذكي النابه بغير ما يخاطب به من كان دونه». (٣)

وخصائص الخطاب المكي كثيرة غير محصورة فيما ذُكر، ولا أريد الإطالة في الحديث النظري عن هذه الخصائص في هذا المبحث، بل سأتوجه بالحديث عنها تطبيقاً من خلال سورة " القارعة"، فذلك هو لبُّ هذه الدراسة، والمقصود من هذا البحث.

---

(١) انظر: كتاب الحيوان: ١/ ٩٤، و: علوم القرآن: ١٤٣ و: مناهل العرفان في علوم القرآن:١/ ٢٠٦ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق: ١/ ٢٠٩ .

المبحث الثاني: خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة

يُعدُّ هذا المبحث الجانب التطبيقي في هذا البحث، كما أنه توظيف لما يذكره المتخصصون في علوم القرآن قديماً وحديثاً عن خصائص الخطاب المكي في القرآن.

والأهم في مثل هذه الدراسات أن نفيد مما يذكره العلماء في كل ما يتعلق بالمكي والمدني، وأن نوظف ذلك الموروث الهائل الذي ذكره العلماء قديماً وحديثاً في هذا المجال، ونترجمه إلى دراسات بلاغية تطبيقية تبرز بلاغة القرآن الكريم، وتظهر إعجازه.

وقد دعا كثير ممن كتبوا في المكي والمدني إلى هذه القضية، وأشاروا إليها، ومن ذلك الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الشايع – وهو ممن كتبوا في المكي والمدني في القرآن– يقول – بعد أن ذكر عدداً من ضوابط السور المكية –: « ومن تمام الفائدة تلمس أسرار هذا الارتباط بين تلك السور والألفاظ وبين السور المكية، واطرادها فيها، واقتصارها عليه، وصلة ذلك بأحوال الدعوة، وأحداث السيرة في الفترة المكية، وأثر ذلك في تفسير الآيات، وإدارك المعاني والهدايات لها». [١]

وممن أكد هذه القضية، ودعا إليها، الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، وهو ممن عُني بهذه القضية، وكتب فيها كتابه القيم " مقدمة في

(١) المكي والمدني في القرآن الكريم: ٤٠ .

خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني"، وقد ذكر عدداً من الضوابط للعهد المكي القديمة والحديثة، السماعية والقياسية، ثم ختم ذلك بقوله: « ولا يخفى أن معرفة هذه الخصائص المذكورة يُعدُّ – أو يجب أن يكون – هو الثمرة الحقيقية لدراسة قضية " المكي والمدني"، فما هذه الخصائص إلا مزيد عطاء في تفسير القرآن، وبيان إعجازه، إن لم تكن هي العطاء نفسه، وما من شيء في القرآن يراد تفسيره إلا هو مستفيد من الدراية بهذه الخصائص؛ لأنه ما من سورة أو آية إلا هي مكية أو مدنية ». (١)

ويعود مرة أخرى ويؤكد على هذه القضية مشيراً إلى أن الثمرة الحقيقية من معرفة المكي والمدني هي: « الإسهام في إثراء المباحث الخاصة بإعجاز القرآن، وذلك بالتوصل إلى نتائج مخصوصة لا يمكن التوصل إليها إلا بدراسة القرآن موضوعياً وأسلوبياً في ظل هاتين المرحلتين المتميزتين، فنعرف كيف عالج هذا الكتاب قضاياه بطريقة فريدة تتلاءم وطبيعة كل مرحلة، وكيف تميز قاموسه اللغوي تميزاً فريداً أيضا حسب خصائص كل منهما، وحسب ما يلائم هذه الخصائص من أساليب أو تشكيلات لغوية متنوعة ». (٢)

وممن أشار إلى هذه القضية، وأكد عليها، ودعا إليها الدكتور عبدالعظيم المطعني، فقد تحدث عن خصائص الخطاب القرآني، وذكر أن هذه الخصائص مستمدة من القرآن نفسه، ومن ثَم ينبغي الإفادة منها في

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٧

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ٣٤

دراسة النص القرآني، وتوظيفها للوقوف على أسرار القرآن البلاغية، ونكته البيانية، يقول:« ومن أبرز ما يهتم به هذا البحث الاعتماد على القرآن نفسه في استنتاج ما أمكن استنتاجه، بالنظر في طرق الصياغة، وبالرجوع إلى أسباب النزول، وبالوقوف على السابق واللاحق نزولاً، وبالتفريق بين ما هو مكي وما هو مدني، وبقرائن الأحوال، ومقتضيات المقامات، ثم بالرجوع إلى الدلالات اللغوية لألفاظه من حيث اللغة في نفسها، ومن حيث وجودها في سياق معين ». (١)

ومن هنا جاء هذا البحث؛ للنظر في خصائص الخطاب المكي في سورة " القارعة"، فهي دراسة تطبيقية، تفيد مما ذكره علماء القرآن تنظيراً فيما يتعلق بخصائص الآيات المكية، وبيان ضابطها، كما أنها تنطلق في هذه الدراسة من النص القرآني؛ لسبر أغواره، والنظر في دقائقه، والوقوف على أسراره البلاغية؛ لبيان الخصائص التي تضمنتها هذه السورة، التي جاءت متوافقة مع من خُوطبوا بها، وفق الظروف المحيطة بهم، ومع ما يتوافق مع خصائصه وصفاتهم، فقد رُوعي أحوال المخاطبين بهذه السورة، ونُظر ماهم عليه من صفات وأحوال، وقد جاء ذلك كله بأسلوب عربي مبين، أعجز الفصحاء، وتحدى البلغاء، وبلغ الغاية من الفصاحة والبلاغة.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ١/ ٩

ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

افتُتحت السورة بقوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، ويُعد هذا الافتتاح من براعة الاستهلال الذي تميزت به هذه السورة، كما أن ذلك امتداد لما تميزت به كثير من السور في العهد المكي فقد تميزت بفواتحها البليغة، وقد حسُن الافتتاح، وتمكن في هذا المقام؛ لمناسبة مضمونه، في إظهار عِظم اليوم المتحدث عنه في هذه الآيات في صدر هذه السورة، ولا غرو أن تأتي بهذه البلاغة، وبهذا الحسن من البراعة في الاستهلال، فهي من المواضع التي يُتأنق فيها؛ فتكون أعذب لفظا، وأحسن سبكاً، وأوضح معنى(١) ؛ لكونها أول ما يقرع السمع، فيكون ذلك سبباً للإقبال عليها، والإصغاء لها، وسبب هذا الحسن أن فيها إشارة إلى المقصود، وتحقيقاً للمراد، فقد تضمنت الإشارة إلى ما سيق الكلام من أجله، فيبين المقصود، ويكشف عنه في أبلغ عبارة، وأجزل معنى (٢)، ولذا فإن((الافتتاح بلفظ " القارعة" افتتاح مهول، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به)). (٣)

---

(١) انظر: الإيضاح: ٤/ ١٤٨ .

(٢) انظر: علم البديع: ٢٥٧، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥٠٩ .

والمراد بـ" القارعة": « الساعة التي يقرع قلوب الناس هولُها، وعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها، وذلك صبيحة لا ليل بعدها))[١]، وهي من أسماء يوم القيامة، وهذا هو رأي جمهور المفسرين، وأن المراد بها: القيامة نفسها[٢]، التي مبدؤها النفخة الأولى، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق.[٣]

ولذا فهي كالحاقة، والطامة، والغاشية، والصاخة، وغير ذلك، «ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه، أو كما روي عن الإمام علي: كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى، ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات، فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به، فالواقعة لصدق وقوعها، والحاقة؛ لتحقق وقوعها؛ والطامة؛ لأنها تطم وتعم بأحوالها، والآزفة؛ من قرب وقوعها، وهكذا». [٤]

وقد سُميت القارعة بهذا الاسم؛ لأنها تقرع القلوب بهولها[٥] ، يدل على ذلك قول العرب: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفارقة؛ وذلك إذا حلَّ بهم أمر فظيع، وخطب جسيم، وقد جاء القرآن بهذا المعنى، وذلك في قوله ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾[٦] ، والمراد بها: شدائد الدهر، ومصائبه التي تصيبهم، وتحل

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٣ .

(٢) انظر: التفسير البسيط: ٢٤/ ٢٦٢، و: المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٦ .

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٢ .

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٩/ ٤٥٧ .

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧، و: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .

(٦) الرعد: ٣١ .

قريباً من دارهم. (١)

ولذا فقد تضمنت هذه اللفظة معنى القرع والهول واللطم، فهي تقرع القلوب بهولها، والأسماع بشدة صوتها، ومن هنا ناسب الافتتاح بها في هذه السورة، ففي ذلك تحقيق لغرض السورة، وكشف له، ولا غرو في هذا ((فالسورة كلها عن هذه القارعة حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة)). (٢)

فالقارعة إذن اسم من أسماء يوم القيامة، سُميت بذلك؛ لأن القلوب تقرع فيها، وكذلك الأسماع، ولذا فإن في هذه التسمية مجازاً عقلياً(٣) ، فهو كقولهم: ليل قائم، ونهار صائم، فقد أسندت الأهوال، وشدة القرع إلى هذا اليوم؛ لشدته وكثرة ما يكون فيه من القرع والضرب، وشدة الهول، وإنْ كان القرع والهول للناس في عرصات هذا اليوم. (٤)

وبعد أن ذكر – سبحانه – القارعة، وهوَّل أمرها، أعاد ذكرها، وبيَّن شدتها مكرراً ذلك في قوله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾، والمعنى: ((أي شيء القارعة، يعني بذلك: أي شيء الساعة، التي يقرع الخلق هولها، أي ما أعظمها، وأفظعها وأهولها))(٥)، ولذا فالاستفهام الوارد فيها دال على معنى

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٦٤ .

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠ .

(٣) انظر: البحر المحيط: ٨/ ٣١٥

(٤) انظر: حاشية القونوي على تفسير البيضاوي : ٤/ ٦٨٨ .

(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٤ .

التعجب، والتعظيم لها، لشدة هولها [١]، وهو كقولك: زيد ما زيد،« على معنى التعظيم له، والإبهام في التعظيم أيضاً؛ ليتخيل السامع أقصى جهده». [٢]

كما أن في التكرار تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها [٣]، يدل على هذا التهويل، وذلك التعظيم الإظهار الوارد فيها وحقه الإضمار، إذ لو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: القارعة ماهيه، ولكن جاء الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر؛ لما في اللفظ المكرر من التهويل والترويع والتعظيم[٤]، كما أن فيه تفخيماً لشأنها، وزيادة في التهويل والتقرير. [٥]

وهذا كقوله ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ ﴾ إلا أن قوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ أشد هولا؛ لأن «المقصود منه زيادة التنبيه، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى، وأما بالنظر إلى المعنى فالحاقة أشد؛ لكونه راجعاً إلى معنى العدل، والقارعة أشد؛ لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل». [٦]

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٨/ ٥٠٣

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٦ .

(٣) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٨٨،

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٠ .

(٥) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٨٨،

(٦) التفسير الكبير: ٣٢/ ٦٨ ، وليست هذه المفاضلة على إطلاقها، فإن كلا منهما بليغ في مقامه، فقد أدى الغرض منه، وحقق مراده في السياق الذي ورد فيه، والمقام الذي تطلبه.

يدل على شدة هولها، وعظيم شأنها قوله – تعالى – ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ ﴾؛ فإن فيها دلالة على تأكيد هولها، وشديد فظاعتها؛ وذلك «بخروجها عن دائرة علوم الخلق على معنى أن عظم شأنها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتى يدريك بها»[1]، فلا أحد يحيط بها خبراً، ولا يدرك أحد كنهها، فلا تبلغه عقولهم، ولا تحيط بها علومهم، فهم لم يعهدوا مثلها، فهي حالة لا يحيط أحد بها حتى يعلمك أمرها، وبيان خبرها [2]، فهي ليست كالقوارع الأخرى في هولها وشدتها، وكذلك القارعة فهي خارجة عن دائرة العلوم، فلا تطولها درايتهم، ولا تقع تحت علمهم[3]؛ إذ لا علم لهم بكنهها؛« لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد، ولا فهمه، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك، كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار، ولذا قال في آخر السورة ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ١١ ﴾؛ تنبيهاً على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية، وصار آخر السورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه». [4]

ولذا فلا سبيل إلى الدراية بها، والإحاطة بهولها إلا عن طريق الوحي، ونزول القرآن ببيانها، وبذكر شيء من أهولها، ولذا جاء الحديث عنها بقوله

(١) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٢ .

(٢) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: ٤/ ٤١١ .

(٣) انظر: فتح القدير: ٥/ ٤٨٦ .

(٤) التفسير الكبير:٣٢/ ٦٨

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ ﴾، ومن هنا يُعلم أن ((كل ما جاء " وما أدراك" أنه يدريه، وما " يدريك" لا يدريه، وقد أدراه هنا بقوله ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾))[١]

ومن يتأمل الآيات السابقات، ويمعن النظر فيها يدرك كثيراً من خصائص الخطاب المكي التي توافرت فيها؛ وذلك أن افتتاح السورة بقوله ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ ﴾، والابتداء بقوله ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ ﴾، بهذه اللفظة التي تحمل في طياتها كل معاني الهول، وشدة القرع ثم تكرارها، والاستفهام بها لغرض التعظيم والتفخيم والتعجب لشدة هولها، وكثرة أهوالها، ومن ثم الإشارة إلى أنها أكبر من أن تحيط بها عقول المخاطبين بها، وأن تكون تحت درايتهم، فإن هذا كله يتناسب مع عِظم هذا اليوم وشدته، ولذا جاءت الألفاظ، وهذه التراكيب متوافقة أتم التوافق في الدلالة على هذا المعاني وتأكيدها، ومن هنا جاءت الألفاظ مصورة هذه المعاني أتم تصوير، ولذا فإن« من تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء، وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر؛ تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء».[٢]

وفي هذا تأكيد لما سبق تقريره بتميز الخطاب المكي بقوته، وأنه قوارعُ

(١) أصواء البيان: ٩/ ٤٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠ .

زاجرة، وشُهُبٌ منذِرة، وحِمَمُ محرقة، كما تجلى في هذه الآيات فقد تم التعبير عن القارعة بألفاظ شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد، وألسنة العذاب، لِمَ لا؟! والحديث فيها عن القارعة، و ما يكون فيها من الأهوال، وشدة العذاب.

وقد أدرك سيد قطب هذه الخاصية في هذه الآيات، وتحدث عنها حديثاً بليغاً، وعبر عنها تعبيراً صادقاً يقول: « ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ بلا خبر ولا صفة؛ لتلقي بظلالها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب، ثم أعقبها سؤال التهويل ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل، ثم أجاب بسؤال تجهيل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلم بها التصور». [١]

ولذا فإن في هذا الاسم ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ تعظيماً لهذا اليوم، وتحذيرا – كذلك – لمن كفر به وكذَّب، يدل على ذلك قول ابن عباس: «﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله، وحذَّره عباده»[٢]، وقد اقتضى حال من خُوطب بهذه الآيات أن يتم الحديث معهم عن القارعة بما

(١) المصدر السابق: ٦/ ٣٩٦٠ .

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٣ .

تضمنت من تحذيرهم، وتعظيم لها؛ علهم أن يؤمنوا بها، ويقلعوا عما هم فيه من الإعراض والإنكار.

وإن المتأمل لورود أسماء القيامة في القرآن الكريم يجد أن الحديث فيها يكاد يكون محصوراً في العهد المكي، وقد أدرك أحد الباحثين المهتمين بهذا العلم هذا الأمر، يدل على ذلك قوله: « أسماء القيامة المتعددة التي تشعر بخطرها العظيم ظاهرة واضحة في السور المكية، وذلك كالحاقة، والواقعة، والقارعة، والطامة، والصاخة، والراجفة، وهذه الأسماء وما يتبعها من صفات تشكل ظواهر أسلوبية، متميزة في طائفة من هذه السور، وبخاصة في أوائلها». [(١)]

كما جاء هذا الافتتاح، وهذه المقدمة لسورة " القارعة" متناسبة – كذلك – أتم التناسب مع خصائص الخطاب المكي؛ وذلك من خلال الاستفهام الذي افتُتِحتْ به السورة، ومن خلال – كذلك – دلالة الاستفهام على معنى التعظيم والتفخيم والتعجب والتهويل لأمر القارعة، فكان بذلك غاية في حسن الابتداء، وفي براعة الاستهلال، ولذا فإن « الذي يلقي نظره على صيغ الاستفهام في القرآن يمكن أن يلحظ أن مجيئها فيه للغرض الأصلي من الاستفهام إنما هو في مواضع قليلة، بينما يعد خروجها عن هذا الغرض لأداء أغراض أخرى هو الغالب الأعم». [(٢)]

---

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٣٣ .

(٢) المصدر السابق: ١٢٤

وقد تجلت هذه الحقيقة في الاستفهام الوارد في قوله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾، فقد أفاد الاستفهام فيها معنى التعظيم والتهويل والتفخيم، ومن هنا جاء الاستفهام في هذه السورة تأكيداً وتقريراً لخصائص الخطاب المكي التي تميزت بها سورة القارعة.

فضلاً عن صيغة الاستفهام الوارد في قوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾، فيُراد بهذا الاستفهام معنى التهويل والتعظيم لِما سيذكر بعده، وقد وردت هذه الصيغة ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم، وجميعها وارد في العهد المكي، وقد جاءت لتحقق خصائص السور المكية الأسلوبية والموضوعية، وجلُّ هذه المواضع في الحديث عن يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال، والدلالة على شدة العذاب والعقاب[1]، كما هو الشأن في سورة القارعة.

وقد ضم إلى أسلوب الاستفهام في هذا المقام أسلوب آخر، يكاد يكون خاصية من خصائص الخطاب المكي، ذلكم هو أسلوب التكرار، فلا يخفى التكرار الوارد في صدر هذه السورة في قوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾، ولا شك أن ثمة أثراً في توافر هذه الأساليب وتضافرها فيما بينها في إظهار المعنى الذي تضمنته، وفي تحقيق الغرض الذي سيقت له، كما أنها تشكل خاصية أسلوبية لخصائص الخطاب المكي في هذه السورة، ولذا فالذي لا شك فيه « أن تجاور هذه

---

(١) المصدر السابق: ١٣٢

الأدوات، أو المزج بينها يتحول بها إلى نوع من التركيز الذي يزيد من فعاليتها، كما أن تكرار أساليبها مما يتحول بها – أيضاً – إلى إيقاعات مدوية تجلي أغراضها، وتمكِّن لها في النفوس». [١]

ولذا فقد أشار كثير من العلماء إلى أسلوب التكرار في كونه خاصية من خصائص الخطاب المكي، وعدَّوه ضابطاً من الضوابط الأسلوبية للسور المكية [٢]، يدل على هذه الخاصية ويؤكدها الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، يقول: « ولا يفوتني التنبيه على أن التكرار في حد ذاته يعدُّ خاصية أسلوبية بارزة من خصائص القرآن بوجه عام، والمكي منه بوجه خاص، كما أن آفاقه ووظائفه داخل دائرة القرآن تعطيه أبعاداً أرحب، وأعمق بكثير مما هو معروف له خارج هذه الدائرة». [٣]

ولعل السرَّ في توافر أسلوب التكرار في السور المكية هو « أن القرآن الكريم باعتباره كتاب دعوة في المقام الأول يركز على استخدام هذا الأسلوب المؤثر؛ ليثبت معانيه في نفوس قارئيه، وتقرير قضاياه في أفئدتهم؛ لينبثق عنها السلوك الفاضل الصادر عن إيمان مكين، واقتناع راسخ»[٤]، ومن هنا فقد« احتفى القرآن الكريم بأسلوب التكرير احتفاء عظيماً، وأكثر

(١) مقدمة في خصائص الخطاب المكي: ١٣٥

(٢) انظر: علوم القرآن: ١٤٤، عدنان زرزور، و: مقدمة في خصائص الخطاب المكي: ١٣٥، والمكي والمدني في القرآن الكريم:٤١، وغيرها .

(٣) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٣٥

(٤) أسلوب الدعوة القرآنية: ٣١٤

من استخدامه حتى صار سمة من سماته، وقد سبق أن تحدثنا عن الأثر النفسي للتكرير في تثبيت المعنى وتقريره حتى يصبح عقيدة راسخة، وأن ذلك شيء هُديت إليه الفطرة الإنسانية، فلجأ إلى تأكيد كلامه للسامع بتكرار ما يريد نقله إليه؛ لما رأى من أثر ذلك في تثبيت المعاني، وتأكيد الأفكار لديه» (١)

ولم يكن هذا التكرار مقصوداً لذاته، وإنما تم توظيفه للتأثير في نفوس من خُوطبت به، ولذا فقد ضُمِّن هذا التكرار كثيراً من المعاني التي من شأنها أن تؤثر فيهم، وأن تزلزل الكفر من أعماق نفوسهم، وتجتثه من أصوله، يدل على هذه المعاني قول أبي حيان الأندلسي في تفسيره لقوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ – يقول: « " ما" استفهام لا يُراد حقيقته، بل التعظيم، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد معنى التعظيم والتهويل، فهي مبالغة في التهويل، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة، وتفصيل أوصافها» (٢)

وبعد أن أبهم – سبحانه – حال القارعة، وأنها لا تحيط بها الدراية، بيَّن حالها، وكشف أمرها، وبيّن حال الناس فيها، والأحوال التي يكونون عليها في ذلك اليوم، وذلك في قوله ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: ٣١٨، ولن أسترسل في الحديث عن بلاغة أسلوب التكرار ومقاماته، فقد أفردت ذلك في بحث مستقل، بعنوان: "من بلاغة التكرار في سورة المرسلات"، فأكتفي هنا بالإحالة إليه .

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٣١٥ .

﴿ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾، ذكر - سبحانه - في هذه الآيات حال الناس، وحال الجبال، فأما البشر فسيكونون يوم القيامة ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾« أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال - تعالى - في آية أخرى ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [(١)]» .[(٢)]

إذن فهذا هو المشهد الأول للقارعة« مشهد تطير له القلوب شعاعاً، وترجف منه الأوصال ارتجافا، ويحس السامع كأن كل شيء يثبت في الأرض قد طار حوله هباء» [(٣)]

والمتأمل لهذا التشبيه يجد أن وجه الشبه فيه جاء محذوفاً، ويكاد يكون هذا الأمر مطرداً في تشبيهات القرآن الكريم، والسرُّ في ذلك - والله أعلم - شدة المطابقة بين المشبه والمشبه به، فليس وجه الشبة بينهما واحداً ولا اثنين حتى يُذكر، كما أن في ذلك دعوة للتأمل والنظر في التشبيه ودلالاته، وأسراره للوقوف على وجه الشبه بينهما؛ حتى لا ينحصر الذهن، ولا يقف العقل عند وجه الشبه المذكور، ومن هنا فقد تعددت أقوال المفسرين في هذا التشبيه، وفي بيان وجه الشبه بين المشبه والمشبه به، وذلكم هو المراد، فإن في ذلك ثراء للمعنى، وقدحاً لزناد الفكر، ومزيداً من إمعان النظر، وبذلك يتحقق المراد من الغاية من نزول القرآن الكريم وهو طول التأمل وكثرة

---

(١) القمر: ٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦١ .

التدبر، وقد أشار الزمخشري إلى هذا التشبيه ودلالاته، يقول: « شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار» [1]

كما نظر الرازي في هذا التشبيه فذكر وجهاً آخر لوجه الشبه، يقول: «وأما وجه الشبه بالفراش؛ فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بُعثوا فزعوا واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة » [2]

ذكر صاحب اللباب أقوالا متعددة في وجه الشبه بين الناس والفراش، وأشار إليها بقوله: « في تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى: منها الطيش الذي يلحقهم، وانتشارهم في الأرض، وركوب بعضهم بعضاً، والكثرة والضعف، والذل، والمجيء من غير ذهاب، والقصد إلى الداعي من كل جهة، والتطاير إلى النار»[3]، وقد أكد هذا المعنى بحديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله رسول الله ﷺ يقول: (إنما مثلي ومثل الناس: كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يزعهنَّ ويغلبنه، فيقتحمن فيها،فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون

(١) الكشاف: ٤/ ٢٧٩ .

(٢) التفسير الكبير: ٣٢/ ٦٨

(٣) اللباب في علوم الكتاب: ٣٠/ ٣٦٩

فيها)[١]

وقد تم تشبيه الناس في هذه الآية بالفراش، وثمة آية أخرى تم فيها تشبيههم بالجراد المنتشر، وذلك في قوله ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[٢]، فأما تشبيههم بالجراد فهو لبيان الحالة التي يكون عليها الناس حين يجيبون الداعي، ويخرجون من قبورهم، فهم لكثرتهم، وشدة تزاحمهم يركب بعضهم بعضاً، ويموج بعضهم في بعض كالجراد، وقيل في الجمع بين هذين التشبيهين: إن« الناس أول قيامهم من القبور ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾؛ لأنهم يجيئون ويذهبون من غير نظام، يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد إنما يتوجه إلى ناحية مقصودة» [٣]

كما أكد هذه الحقيقة الإمام الشنقيطي في قوله:« وقيل: إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة، ووصفهم بالجراد في الكثرة، ووحدة الاتجاه ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾[٤]» .[٥]

وذكر الرازي تساؤلاً على هذا التشبيه، وأجاب عنه، يقول:« فإن قيل: الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شُبه الشيء الواحد بالصغير

(١) أخرجه البخاري، رقم الحديث: ٦٤٨٣، كتاب الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي.

(٢) القمر: ٧ .

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٦ .

(٤) القمر: ٨ .

(٥) أضواء البيان: ٩/ ٤٦٠

والكبير معاً؟ قلنا: شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في موضعين: أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأولى، وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع ›› [1]

ثم بيِّن – سبحانه – حال الجبال يوم القيامة، وما يطرأ عليها من التغيير والأهوال في قوله ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ أي أنها تكون كالصوف المنفوش الذي آل إلى الذهاب والتمزق، فيكون هباء منثوراً[2]، فتكون الجبال كالعهن المنفوش؛ لتفرق أجزائها، وتحولها إلى الهباء المنثور المتطاير. [3]

والمتأمل في عطف الحديث عن الجبال بعد الحديث عن الناس يجد تكرار قوله " وَتَكُونُ " دون أن يقال: (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، والجبال كالعهن المنفوش) وقد ناسب هذا التكرار غرض التهويل والتعظيم[4]؛ ليكون أبلغ في التحذير، وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى سرِّ هذا التكرار، يقول:‹‹ وإعادة كلمة " يكون" مع حرف العطف؛ للإشارة إلى اختلاف الكونين؛ فإن أولهما: كون إيجاد، والثاني: كون اضمحلال، وكلاهما علامة على زوال عالم، وظهور عالم آخر›› . [5]

وثمة مسألة أخرى في هذين التشبيهين، وهي بيان الحكمة من اقتران

(١) التفسير الكبير :٣٢/ ٦٩ .

(٢) انظر: معاني القرآن: ٣/ ٢٨٧، للفراء، و: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

(٣) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٧٩ .

(٤) انظر: التفسير الكبير:٣٢/ ٦٩ .

(٥) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٣ .

الناس والجبال في الحديث عن أهوال هذه القارعة، وبيان أثرها عليهما، و الحكمة في ذلك: هي بيان شدة أثر هذه القارعة، وعظيم تأثيرها، فإذا كانت هذه القارعة صيَّرت الجبال على عظمتها، وشدة صلابتها إلى عهن منفوش « فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها، فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة به».[(١)]

وقد جاء هذا التشبيه سواء في تشبيه الناس بالفراش المبثوث، أو الجبال بالعهن المنفوش مناسباً كل المناسبة للسورة التي ورد فيها هذا التشبيه، فكأن القارعة بما تحوي من دلالات وإيحاءات، وكأن حال الناس فيها ناسب هذا التشبيه، واقتضاه دون غيره مما ورد في السور الأخرى، جاء في تفسير أضواء البيان إشارة نفيسة إلى هذا المعنى، يقول:« فإن لكل حالة يذكر معها الحال الذي يناسبها، فالقارعة من القرع، وهو الضرب ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش».[(٢)]

ومن خير من تحدث عن هذا التشبيه في بيان تمكنه في هذه السورة، ووجه اختصاص كل سورة بالتشبيه الذي جاء فيها الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، فقد تحدث عن بلاغة القرآن وإعجازه في توظيفه لأسلوب التشبيه في بيان مقاصده، وإظهار أهدافه، يقول:« وقد عرض

(١) التفسير الكبير : ٣٢/ ٦٩

(٢) أضواء البيان: ٩/ ٤٥٨ .

القرآن في مواقف كثيرة لوصف أحوال يوم القيامة مصطنعاً التشبيه وسيلة كاشفة، من ذلك قوله – تعالى – ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾[(١)]، قلت: إن تصوير انتشار الخلق في هذا اليوم كثير جدا في كتاب الله، وهو في كل مرة يركز على جانب معين من جوانب الموقف الهائل، ويلقي عليه مزيداً من الأضواء، فهذا التصوير المذكور في سورة "القمر" يركز الضوء الكاشف على ما يتصفون به من استسلام وانقياد يظهر ذلك في الكناية ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ وكونهم عجلين مهطعين نحو من يدعو إلى شيء نكر.

وتجد سورة " القارعة" وهي تلخيص مركز لموقف هذا اليوم تذكر بعد ما تستفتح بهذا القرع المتلاحق ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ وهذه النغمة الحاسمة كأنها توطئة لوصف أحوال الناس والجبال ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ التشبيه هنا يتناول الكثرة والانتشار على غير نظام، كما تناوله التشبيه هناك، ولكنه يسلط الأضواء على معنى التخاذل والضعف والوهن الذي يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم في جو من الهول والخوف الساحق، التشبيه يصف أنهم تخاذلوا أشد التخاذل، وذهب كل ما فيهم من تماسك فصاروا

---

(١) سورة القمر.

كالفراش المبثوث، وهو مثل في الوهن والضعف، ويلاحظ أن الفراش وصف بالبث، والجراد وصف بالانتشار، والفرق بين البث والانتشار أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في البث، ولذلك تقول: نشر عليه ثوبه، ولا تقول: بث عليه؛ البث كأنه يكون فيما تفرق، والمبثوث مفعول من " بث"، والمنتشر فاعل من " انتشر" فالبث وقع على الأول، والانتشار حدث من الثاني، هم في التشبيه الأول كالجراد الذي ينتشر بنفسه، وفي التشبيه الثاني كالفراش الذي يبثه غيره؛ لأنه لا فعل له، وهذا التشبيه لا يخلو من المعنى الذي ذكرناه هناك وهو التصرف غير المنتظم، والذي لا تكون فيه سيطرة على النفس؛ لأن الفراش يرد في كلام العرب مثلا على الخفة والحماقة والتهافت، ومن كلامهم: أطيش من فراشة، وحلمهم حلم الفراش غشين نار المصطلي، وانظر إلى تشبيه الجبال بالعهن المنفوش، وما فيه من دقة تظهر حين تدرك أن العهن – كما قال الزمخشري – الصوف المصبغ ألوانا، والمنفوش هو المتفرق الأجزاء، فكأن التشبيه هنا يركز على أمرين: الأول ما يكون من اختلاف الألوان في الجبال المتحللة وهي جدد مختلفة الألوان فلا تكون كالصوف المنفوش فحسب، وإنما تتراءى كالصوف المصبوغ الذي احتوى ألواناً شتى، والشيء الثاني هو الخفة، وصيرورة هذه الرواسي الثقال كأنها تلك القطع السابحة في الهواء». [١]

والمتأمل كذلك في التشبيه الوارد في سورة " القارعة" يجد أن تشبيه الجبال بالعهن زيد فيه لفظة " المنفوش" بخلاف التشبيه الوارد في سورة

---

(١) التصوير البياني: ٤٣ .

"المعارج" فلم ترد فيه هذه اللفظة، واكتُفي فيه بقوله: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ وممن تعرض لهذا المسألة، وأبان عنها خير إبانة الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي، مبيناً السرَّ في ذلك، وعلاقة كل تشبيه بالسورة التي ورد فيها، يقول: «إنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من القرع، وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفش؛ لأن من طرائق نفش الصوف أن يُقرع بالمقرعة، كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تُهَشَّم بالمقراع، وهو من القرع، وهو فأس عظيم تُحطَّم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر القارعة ذكر (الفراش المبثوث) في قوله ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾، أيضاً لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر، ولم يحسن ذكر "الفراش" وحده كما لم يحسن ذكر "العهن" وحده»[1]، ومن الأسباب – أيضاً – أن« ما تقدم من ذكر اليوم الآخر في سورة "القارعة" أهول وأشد مما ذُكر في سورة "المعارج"، فقد قال في سورة المعارج ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾، وليس متفقاً على تفسير أن المراد بهذا اليوم هو اليوم الآخر، وإذا كان المقصود به اليوم الآخر فإنه لم يذكر إلا طول ذلك اليوم، وأنه تعرج الملائكة والروح فيه، في حين قال في سورة "القارعة" ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٩٨ .

﴿٣﴾ ﴾ فكرر ذكرها وعظمها وهولها، فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه كالعهن المنفوش، وكونها كالعهن المنفوش أعظم وأهول من أن تكون كالعهن من غير نفش كما هو ظاهر»[١]، كما أن «التوسع والتفصيل في ذكر القارعة حسّن ذكر الزيادة والتفصيل فيها، بخلاف الإجمال في سورة " المعارج"، فإنه لم يزد على أن يقول: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾» .[٢]

وقد جاء التشبيه بهذه الصورة، وبهذه الدلالة متوافقاً أتم التوافق مع الخصائص الأسلوبية للسور المكية، وبيان ذلك: إشارة مَن تحدث عن الخصائص الأسلوبية والبيانية للسور المكية: أنه يكثر في هذا العهد استخدام أسلوب التشبيه، وضرب الأمثال إذا ما قيس ذلك بالآيات المدنية[٣]، فالآيات في العهد المكي تكون« غنية بالتخيل الحسي، والتجسيم وخلع الحركة والحياة الحوار على الأشياء، وبخاصة حين يتحدث عن يوم القيامة، وأحداثه وما يتبعه من حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب السعير»[٤]، كما ظهر هذا جلياً في سورة القارعة.

ولعل السرَّ في توافر هذه الأساليب البيانية: أن« القرآن الكريم كتاب دعوة، والدعوة تشق طريقها إلى القلوب بالإقناع والتأثير في النفوس،

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق: ١٩٩ .

(٣) انظر: علوم القرآن: ١٤٣، عدنان محمد زرزور.

(٤) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٩٩ .

ولكي يبلغ القرآن هذه الغاية نراه يضرب في النفس على أوتار متعددة ليصل إلى قرارها، وموضع التأثير، والإقناع فيها، والأساليب متفاوتة في قدرتها على احتواء المشاعر الوجدانية، تعبيراً عنها، وإثارة لها، فكان طبيعياً أن يؤثر القرآن منها الأقدر على هذه المهمة، ويكثر من استخدامها؛ لأنها المناسبة للغرض، الموافقة لمقتضى الحال» .[1]

وثمة ملحظ آخر في هذا التشبيه: أنه مستمد من الطبيعة نفسها: من مكوِّناتها وأجزائها، فقد تم توظيف البيئة المكية، وما تتميز به من الجبال والصلابة في هذه التشبيهات، وفي ضرب الأمثال لهم؛ لعلهم يتذكرون، وهذه حقيقة مقررة في التشبيهات القرآنية في العهد المكي، وقد أشار إلى هذه الحقيقة وقررها كثير ممن كتب عن بلاغة التشبيه وأسراره في القرآن الكريم، وفي العهد المكي منه[2]، وممن أشار إلى هذا الأمر، وأشاد به الأستاذ أحمد بدوي، يقول: « أول ما يسترعي النظر من خصائص التشبيه في القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة، وذلك هو سرُّ خلوده، فهو باقٍ ما بقيت هذه الطبيعة، وسرُّ عمومه للناس جميعاً يؤثر فيهم؛ لأنهم يدركون عناصره، ويرونها قريبة منهم، ومن أيديهم، فلا تجد في القرآن تشبيهاً مصنوعاً يدرك جماله فرد دون آخر، ويتأثر به إنسان دون إنسان»[3] .

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: ٣٢٥ .

(٢) ومن هؤلاء: أحمد بدوي، في كتابه: من بلاغة القرآن: ١٩٦، و: عبد العظيم المطعني في كتابه: خصائص التعبير القرآني: ٢/ ٢٨٠، و: عدنان محمد زرزور في كتابه: علوم القرآن: ٣٢٠، وغيرهم.

(٣) من بلاغة القرآن: ١٩٦ .

ومن هنا فقد تم في هذه السورة توظيف الجبال والحديث عنها في بيان مصيرها يوم القيامة، للدلالة على شدة أهوالها، وعِظم المصير الذي ينتظرهم، فهذا التشبيه منتزع من صميم البيئة التي عاش فيها أهل مكة، فالجبال أمام أعينهم، تتراءى أمامهم حيثما حلوا وارتحلوا، فقد ألف أهل مكة رؤية الجبال ومشاهدتها، فهي تحيط بهم من كل جانب ، ولذا فهم يدركون بلاغة هذا التشبيه وغاياته، كما يدركون – كذلك – ما تتميز به هذه الجبال من القوة والصلابة، ومن هنا يتضح مدى توظيف الطبيعة ومكوناتها في مخاطبة أهل مكة، ولذا كانت هذه السورة نموذجاً لخصائص الخطاب في العهد المكي، وما تميزت به من خصائص أسلوبية تجلت في سورة القارعة، وقد تم توظيف هذه الخصائص في دعوة القوم، وفي إثبات يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ولذا ومن خلال ما تقدم تتبين لنا بلاغة القرآن الكريم في كونه ((يستثمر أقصى ما في هذه الأداة من إمكانات، عن طريق ملاءمته الدقيقة بين المشبه والمشبه به من ناحية، وعن طريق تفصيل جوانب التقابل بينهما – كلما لزم – من ناحية أخرى، ومن ثم فإن المثل الذي يضربه لا يقدم لنا صورة جزئية محدودة، وإنما يقدم مشهداً فسيحاً متكاملاً لا يمل النظر منه، ولا من تأمل العلاقات العميقة التي تربط بين جميع جوانبه)) .[١]

وبعد أن ذكر – سبحانه – أهوال القيامة والأحداث التي يكون فيها،

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١١٧

وحال الناس والجبال فيها، بعد أن ذكر ذلك مبهماً؛ بغية التفخيم والتعظيم والتهويل، ذكر بعد ذلك كله انقسام الناس فيه قسمين أشار إليه بقوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ ولذا فهذه الآيات «بيان إجمالي لتحزب الناس إلى حزبين، وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل فريق منهما إثر بيان الأحوال الشاملة للكل، وتوضع في الميزان صحائف الأعمال، فينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة، وقطعاً للمعذرة» .(١)

ولعل السرَّ في وزن الأعمال في هذا الجمع الحاشد هو: « ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم فيزداد سروراً، وظهور صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق» .(٢)

وفي جمع لفظة " موازينه" إشارة إلى تعدد الأعمال وتنوعها، فبسبب هذه الكثرة، وذلك التنوع ثقلت ورجحت(٣)؛ إشارة – كذلك إلى ثقل هذه الحسنات، وعِظم قدرها عند الله – سبحانه وتعالى –، والمراد بالموازين موازين الحسنات، بأن رجحت حسناته على سيئاته.(٤)

وأما عاقبة مَن ثقلت موازينه وجزاؤه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

(١) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٣

(٢) التفسير الكبير: ٣٢/ ٧٠ .

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٧ .

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

﴿٧﴾ وقد جاء حرف الجر " في" بدلالته على الظرفية والوعاء ليدل على عظم هذا النعيم الذي يعيشه المؤمن في الجنة، ففيها استعارة تبعية بالحروف، فقد استُعيرت الظرفية - التي هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف – لتلذذ هؤلاء المؤمنين الذين ثقلت موازينهم بجامع الإحاطة والاحتواء، ودُلَّ على هذه الاستعارة بحرف الجر " في" بدلالته على الظرفية، وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في هذا المقام: أن فيها تصويراً لشدة تمكن المؤمنين من هذا النعيم، وأنه قد أحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم، والظرف بمظروفه.

وإذا كان هذا حالهم، وذلك نعيمهم فلا غرو أن ترضا معيشتهم عنهم، ويرضوا عنها، وقد تم التعبير عن هذه المعاني والدلالة عليها بقوله ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، فقد تم الحديث عن النعيم الذي يتقلب فيه المؤمنون بلفظة ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، وقد جاءت لفظة " عيشة" مفردة؛ إشارة إلى ثبات هذه الحالة، وعدم تغيرها وتبدلها، فهي حالة واحدة من الصفاء والنعيم واللذة، والحبور والسرور، فبسبب ثباتها، وعدم زوالها صارت كأنها واحدة لا ثاني لها، بخلاف العيش في الدنيا فإنها متغيرة متقلبة بين النعيم والشقاء، والحزن والسرور، والزيادة والنقصان، والصحة والمرض.[١]

وقد تضمن قوله ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ مجازاً، فهو مجاز عقلي

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٢٢/ ٢٢٣ .

بالإسناد، وعلاقته المفعولية؛ إذ العيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضي صاحبها بها[١]، ولكن تم إسناد الرضا إلى العيشة؛ لتلبسه بها؛ بسبب وقوعه عليها [٢]، وثمة أسرار بلاغية تكمن خلف هذا التعبير يراد تحقيقها والتأكيد عليها، فقد جاء هذا المجاز؛ ليدل على أن ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾« فاعلة الرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة؛ لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد، فالعيشة كلمة تجمع النعيم الذي في الجنة، فهي فاعلة الرضا، كالفرش المرفوعة... فهذه الأشياء كلها قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة الرضا ، وهي انذلت وانقادت بذلا وسماحة »[٣]، إذن فالعيشة هي التي ترضا، وهي التي تدنو، فهي بحق راضية مرضية، كما أنها « طائعة لينة لأصحاب الجنة، فتفجر لهم الأنهار طواعية، وتدنو لهم الثمار طواعية» . [٤]

وممن وقف مع هذا الأسلوب، وذكر أسراره البلاغية الدكتور بسيوني فيود، يقول:« ويفيد هذا التجوز المبالغة في النعيم الذي أعده الله – تعالى –

---

(١)وثمة أقوال أخرى في معنى (عيشة راضية) أشار إليها العكبري في تفسيره، يقول: " وراضية على ثلاثة أوجه: أحدها بمعنى مرضية، مثل دافق بمعنى مدفوق، والثاني: على النسب أي ذات رضا، مثل: لابن وتامر، والثالث: هو على بابها، وكأن العيشة قد رضت بمحلها وحصولها في مستحقها، أو أنها لا حال أكمل من حالها فهو مجاز" التبيان في إعراب القرآن: ٢٦٨ .

(٢)انظر: علم المعاني: ٥٦، للدكتور بسيوني عبدالفتاح فيود.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٦٦

(٤) أضواء البيان: ٩/ ٤١٦ .

للمؤمنين في الجنة، فرضوا به، وسعدوا إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها، وتحبه ويحبها، فهي عيشة دائمة باقية؛ لأنها مبنية على الألفة والمحبة، ولو كانت مبنية على التنافر ما دامت، وتأمل التعبيرين: المؤمن في عيشة راضية، والكافر في عيشة نافرة، تجد أن التجوز في الأول ينبئ بالدوام والبقاء؛ حيث الرضا والألفة، أما التجوز الثاني فينبئ بالفرقة والابتعاد، حيث النفور والكراهية)). [١]

وإن في هذا الأسلوب لمزيداً للمستزيدين، ونظراً للمتأملين، ولذا فيعد قوله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ من إيجاز القِصر؛ لما تضمنه من الدلالات، والكثير من المعاني، ولكنها اختصرتْ هذا النعيم كله، وأوجزته بأقصر عبارة في قوله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾، وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن في الآية إيجازاً، ومن ذلك القرطبي، وقد سبقت الإشارة إلى كلامه، وذلك حين قال: ((فالعيشة كلمة تجمع النعيم الذي في الجنة))[٢]، وفي تفسير أضواء البيان قوله: ((كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة، وأسباب النعيم))[٣]، وكذلك سيد قطب، فقد أدرك ما فيها من إيجاز، وقد أشار إليه بقوله: ((﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ويدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضا، وهو أروح النعيم)). [٤]

(١) علم المعاني: ٥٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٦٦
(٣) أضواء البيان: ٩/ ٤١٦ .
(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ١٩٦٣ .

ثم ذكر – سبحانه – القسم الآخر، وبيّن حالهم في الآخرة، والمآل الذي يؤولون إليه، والقرار الذي يصيرون إليه في قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ ومعنى ﴿ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي خف وزن حسناته، فرجحت سيئاته على حسناته[١]، أو لم يكن له حسنات يعتد بها[٢]، إذن فهذا سبب خفة موازينهم وطيشها، يدل على ذلك قول أبي بكر – رضي الله عنه –: «وإنما خفت موازين من خفت باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفتهم عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً» .[٣]

ثم أعقب – سبحانه – ذلك ببيان مصيرهم والجزاء الذي ينتظرهم في قوله ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) ﴾، وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان المراد في قوله ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ وهذه الأقوال وإن تعددت إلا أنها تلتقي في الدلالة على سوء المصير، وشدة الحال لهذا الذي خفت موازينه، فقيل: إن المراد بالهاوية: النار، فهي من أسماء جهنم[٤]، فالنار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها، ويأوي إليها، والمعنى: أن مأواه ومسكنه هي الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في نار جهنم.[٥]

---

(١) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦، و: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٧٧ .

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٤ .

(٣) التفسير البسيط: ٢٤/ ٢٦٦ .

(٤) انظر: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .

(٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦

وفي لفظة " هاوية" إشارة إلى شدة عمقها، وبعد مهواها، وأن قعرها شديد لا يُدرك[١]، ولذا فيظل يهوي فيها دون أن يصل إلى قرارها ومنتهاها، ومن هنا سُميت بالهاوية، والمراد بها: ((النار العميقة؛ لهويّ أهل النار فيها مهوى بعيداً))[٢]، ومن هنا جاءت لفظة " هاوية"؛ لتدل على هذا المعنى وتؤكده، ولتبين أنها نار نازلة سافلة لا يزال يهوي فيها نزولاً، وكذلك أهل النار يهوون في نار جهنم سبعين خريفاً[٣]، يؤيد ذلك حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: (كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: تدرون ماهذه؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها). [٤]

ولذا فإن في لفظة "هاوية" ومعناها بياناً لهلاكه، وشدة خسرانه؛ وذلك أنه إذا هوى سقط وهلك.[٥]

إذن فالهاوية هي النار، وقد تم التعبير بها؛ للدلالة على شدة المآل، وشدة العذاب الذي ينتظرهم، وهو استعمال معروف لدى العرب، كما أنها ((كلمة عربية كأن الرجل إذا وقع في أمر شديد قال: هوت أمه)) . [٦]

---

(١) انظر: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٨٠ .

(٣) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٤٤٩.

(٤) صحيح مسلم: رقم الحديث: ٢٨٤٤، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم، وبعد قهرها، وما تأخذ من المعذبين.

(٥) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٨٠ .

(٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦ .

فالهاوية هي النار، فهي اسم من أسمائها، ودركة من دركاتها، بل «هي أسفل دركات النار عياذاً بالله» [1]، كما يقال للأرض أم الناس؛ لأنها تؤويهم، « وكذلك النار مأوى الكافرين في الآخرة؛ لأنها مأواهم ومصيرهم» . [2]

وقد ذكر المفسرون كثيراً من الأقوال في بلاغة تشبيه المأوى بالأم في قوله ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ فقيل: إن المراد بذلك أن الهاوية ستكون مصيره ومسكنه؛ إشارة لكون الأمهات سكناً ومأوى لأبنائهم [3]، يدل على ذلك قول أبي السعود: « وعُبر عن المأوى بالأم؛ لأن أهلها يأوون إليها، كما يأوي الولد إلى أمه»[4]، وفي ذلك إشارة – أيضاً -: لكون هذه النار تهوي بهم، وتضمهم إليها كما تضم الأم أولادها إلى صدرها، وأنهم يلتجئون ويفزعون إليها .[5]

ومن دلائل هذا التشبيه وأسراره: أن فيه إشارة إلى تمكن هذه النار منهم، وإحاطتها بهم كما يحيط رحم الأم بولدها، وأنهم منغمسون فيها لا فكاك لهم منها[6]، ومن هنا جاء هذا التشبيه؛ ليبين « حال من خفت

(١) أضواء البيان: ٩/ ٤٦٤ .
(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٥١٧ .
(٣) انظر: معالم التنزيل: ٤/ ٥١٩ .
(٤) إرشاد العقل السليم: ٩/ ١٩٤ .
(٥) انظر: حاشية زادة على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٨٩ .
(٦) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٤٤٩ .

موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا؛ لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر؛ لشدة محبتها لابنها، فهي أشد سروراً بسروره، وأشد حزناً بما يحزنه». (١)

إذن فهذه النار بهذه الشدة، وبتلك الحرارة ستكون« أم الذي خفت موازينه، أمه التي يفيء إليها ويأوي، والأم عندنا الأمن والراحة، فماذا هو واجد عند أمه هذه الهاوية، النار الحامية إنها مفاجأة تعبيرية، تمثل الحقيقة القاسية» . (٢)

ولا يخفى أن هذا التشبيه تهكم بهم، وعذاب لهم فوق عذاب، ففي هذا التعبير تهكم بهم وسخرية؛ بأن جُعلت النار لهم أماً يأوون إليها، كما أن الأم تأوي إليها ابنها (٣)، وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى في قوله « والأم هي مرجع الطفل، وملاذه، فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هي الهاوية، وفي التعبير أناقة ظاهرة، وتنسيق خاص، وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده، يزيد في عمق الأثر المقصود» . (٤)

وهذه الهاوية، وتلك أوصافها، وذاك هولها، وشدة أثرها، ولذا فإنها وهذه أوصافها مما لا تدركه العقول، ولا تحيط بها الظنون، « ولما كانت مما

---

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٩٦١ .

(٣) انظر: معاني القرآن: ٣/ ٢٨٧، للفراء و: محاسن التأويل: ١٧/ ٦٢٤٤، وروح المعاني: ١٥/ ٤٤٩ .

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٩٦١ .

يفوت الوصف بعظم أهوالها، وشديد زلزالها جمع الأمر فيها منكراً أن يكون مخلوق يعرف وصفها»[1]، ولذا جاء قوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه، وقد أفاد الاستفهام في قوله ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾ معنى التعظيم، والتهويل لشأنها، والتفظيع لهولها[2]، فإذا كانت كذلك فأنى للعقول أن تحيط بها، والقلوب أن تدري ما هي، وفي هذا الاستفهام إشارة إلى هذه المعاني، ودلالة عليها، ففيه إشارة إلى أنها خارجة عن المعهود، بحيث لا تحيط بها علوم البشر، ولا تدرك كنهها[3]، كما تضمن الاستفهام « سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن؛ لإخراج الأمر عن حدود التصور، وحيز الإدراك» .[4]

إذن فهذه هي الهاوية، وذاك شديد هولها، وفظيع أمرها، وهو هول لا يدرك، وإنما يوقف فيه إلى العلم، ويُنتهى فيه إلى السماع؛ وكأن في هاء السكت في قوله ﴿ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه من طرف خفي؛ وذلك أن فيه « إشارة إلى أن ذكرها مما يكرب القلب، حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام، أو إلى أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام سمعه، فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت، ويصغي

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٢٢٤ .
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٥/ ٤٥٠.
(٣) انظر: فتح القدير: ٥/ ٤٨٧ .
(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٩٦١ .

غاية الإصغاء)) . [١]

جاء السكت في قوله ﴿ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ ﴾ لينهي الحديث عنها؛ لأنه مما لا يمكن للبشر معرفته، ولا الإحاطة بها، فالمقام هنا مقام سكوت وإصغاء لما سيأتي بعدها من بيان حالها، وإيضاح لأمرها، ولذا جاء بيانها، وإيضاح أمرها في قوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ فإن قوله ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ بيان لها، وإخبار عنها، فلفظة " نارٌ" خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي نار[٢]، والمعنى: أن الهاوية هي نار حامية، وقد جاءت لفظة " نارٌ" نكرة؛ للتعظيم، إشارة إلى عِظم أمرها، وشديد حرها، وشدة حراراتها، فقد بلغت الغاية في الحرارة؛ حتى صارت حامية من شدة الوقود عليها وكثرته. [٣]

أفاد التنكير بهذه الدلالة:((أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية، وهذا القدر كافٍ في التنبيه على قوة سخونتها، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب)) . [٤]

تم تأكيد هذه المعاني كلها وتقريرها بلفظة " حامية" حين جاءت وصفاً للنار، فهي((من قبيل التوكيد اللفظي؛ لأن النار لا تخلو من الحَمْي، فوصفها به وصف بما هو من معنى لفظ "نار"، فكان كذكر المرادف، كقوله

(١) نظم الدرر: ٢٢/ ٢٢٤.
(٢) التبيان في إعراب القرآن: ٢٩٣ .
(٣) انظر: جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٤/ ٥٧٦ .
(٤) التفسير الكبير: ٣٢/ ٧٢ .

﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾[(١)]» . [(٢)]

وكذا تضافر التنكير والوصف بها توافر في كل واحد منهما في الدلالة على شدة هذه النار، والإشارة إلى أنه قد انتهى حرها، وبلغت الغاية في الشدة والحرارة، وقد جاء مصداق ذلك في قوله – عليه الصلاة والسلام – في بيان شدة نار الآخرة، ومفارقتها لنار الدنيا بأنها زيدت« على حرارة الدنيا بسبعين ضعفاً، نستجير بالله منها » . [(٣)]

يدل على ذلك ويؤكده، حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يارسول الله، قال: فإنها فُضِّلتْ عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها) [(٤)]

وقد تضمن قوله﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ فناً بديعياً، وهي المقابلة بين فريقين، فريق ثقلت موازينه، ورجحت حسناتهم، فكان عاقبة أمرهم حميداً، فآلوا إلى نعيم دائم، وعيشة راضية مرضية، وفريق آخر رجحت بهم سيئاتهم

---

(١) الهمزة: ٦ .

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٥ .

(٣) السعدي: ٥/ ٤٥٠ .

(٤) صحيح مسلم: رقم الحديث: ٢٨٤٣، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في شدة حر نار جهنم، وبعد قهرها، وما تأخذ من المعذبين.

فصاروا إلى الجحيم يهوون فيها، ويصطلون بنار حامية، وقد تم توظيف هذه المقابلة للإشارة إلى انقسام الناس في الآخرة قسمين، ولذا فإن المقابلة في هذه الآيات ظاهرة جلية، كيف لا وقد عرضت مشهدين متقابلين لمصير كل فريق من هذين الفريقين، إذن فقد تمايزت الأمور، وعلى العاقل الرشيد أن يختار قراره ومصيره، ومن هنا يتبين كيف تم توظيف هذا الأسلوب البلاغي في التأثير في المخاطبين، ولذا فقد كان هذا الأسلوب البلاغي وسيلة بلاغية ناجحة في الحديث عن اليوم الآخر، وانقسام الناس فيه، والإشارة إلى التباين التام لكل فريق، عسى أن يكون لهذا الأسلوب أثر في نفوس المخاطبين في العهد المكي، وأن يكون دافعاً لهم للإقبال على الإيمان، وعلى القرآن، وأن ينفكوا عما هم فيه من الكفر والإعراض، وإلا فليختاروا مصيرهم، وليحددوا جزاءهم في الآخرة، فإن الجزاء من جنس العمل، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن تأمل سورة القارعة يجد أنها تضمنت كثيراً من الخصائص الأسلوبية التي تميز بها العهد المكي، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن هذه السورة قائمة على الوعيد والتهديد، وعلى الإنذار، وقد ذكر هذا الأمر، وأشار إليه الطاهر بن عاشور، فبين أنه تم في هذه السورة « تهويل شديد بثمانية طرق، وهي: الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهام عما ينبئ بكنه القارعة، وتوجيه الخطاب إلى غير معين، والإظهار في مقام الإضمار ثاني مرة، والتوقيف بزمن مجهول حصوله، وتعريف ذلك الوقت

بأحوال مهولة ». [(١)]

بل إن ذكر القارعة وتكرارها في افتتاح هذه السورة مراد منه التهويل والإنذار، والتحذير لهم، فقد تضمنت لفظة " القارعة" هذه المعاني، ودلت عليها، يدل على ذلك قول الزجاج: يقول في قوله ﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ يقول: « " ما" مبتدأ، والقارعة خبره، وهو تحذير، والعرب تحذر، وتغري بالرفع والنصب ». [(٢)]

كما أن ذكر أحوال الناس والجبال، وما يحدث لهما في ذلك اليوم غرضه – كذلك – التهويل والإنذار، يدل على ذلك قول الطاهر بن عاشور: يقول في تفسير قوله ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ « والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل بما أضيف إليه " يوم" من الجملتين المفيدتين أحوالاً هائلة ». [(٣)]

ومن يتأمل السور المكية يجد فيها توافر أساليب الوعيد والزجر والتهديد، وهذا هو المتلائم مع نفوس كذبت وكفرت بآيات ربها ورسله، وفي هذا مطابقة لأحوال المخاطبين بهذه الآيات، وموافقة – كذلك – لطبيعة الدعوة في هذه المرحلة، وبيان لطبيعة هذه النفوس التي خُوطبت بهذه الآيات.

---

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١٢

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٥٠٣

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٥١١

ولا يخفى أن في هذا الإنذار زجراً لهم، وقرعاً لمسامعهم، فهم بحاجة إلى ما يقرع مسامعهم، ويهز وجدانهم، وينذرهم ويخوفهم بالوعيد والتهديد، وحسبك بالقارعة وأهوالها زاجراً ورادعا، فعسى أن يقلعوا عما فيه من التكذيب والإعراض، ومن هنا جاءت هذه السورة بهذه الخصائص بياناً لحال هؤلاء القوم، وذكراً لموفقهم من الرسالة وصاحبها، وبياناً – كذلك – للخطب المحدق بهم، والخطر المحيط بهم إن استمروا على كفرهم وإعراضهم، وإلا فلينظروا الساعة، فالساعة أدهى وأمر.

ومما يدل على هذا الأمر ويؤكده: أن الحديث عن نعيم المؤمنين في هذه السورة جاء مقتضباً موجزاً في قوله ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾، وقد سبقت الإشارة إلى الإيجاز الذي تضمنه قوله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ وكلام العلماء في ذلك، بخلاف الحديث عن أهوال يوم القيامة، والحديث عن مصير من خفت موازينه، فقد جاء ذلك مطولاً، وتكاد السورة كلها تكون حديثاً عن الأمر، بدءاً من قوله ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾

ولا يخفى أن في ذلك توافقاً مع خصائص الخطاب في العهد المكي، كما أنه توافق – كذلك – مع طبيعة هذه النفوس التي خُوطبت بهذه الآيات، وما جُبلت عليه من العناد والكفر والإعراض، ولذا فإن ظهور

التحذير والإنذار والوعيد في هذه السور المكية إشارة إلى ما تميز به القرآن الكريم من كونه« يراعي الطبيعة البشرية، وما جُبلت عليه من ميول، ويتحرى أن يصل إلى النفس البشرية من منافذ التأثير فيها، فأسلوب الترهيب يتخذ طريقه إلى النفس من خلال ما رُكب فيها من غريزة الخوف التي تدفع الإنسان إلى توقي الخطر، والبعد عما يعرضه له » . (١)

ومن الخصائص الأسلوبية التي تجلت في هذه السورة: التفصيل بعد الإجمال، والبيان بعد الإبهام، ويعد هذا الأسلوب من وسائل التشويق والإثارة والتنبيه، كما أنه وسيلة من وسائل تثبيت المعاني وتقريرها في النفوس أفضل تمكن، فإذا استقرت في أعماقها فإنه لا يفارقها حتى يحدث أثراً فيها ولا بد، وذلكم هو المراد من هذه الآيات، ومن هنا فقد جاء هذا الأسلوب وفاء لمقام البلاغة، ومراعاة لأحوال المخاطبين بهذه السورة، الذين عاشوا في هذه الحقبة الزمنية المهمة من زمن الدعوة الإسلامية، تلك خاصية من خصائص القرآن الكريم، ولذا فهي« تمنحه قدرة على التأثير في النفس وتهيئتها لقبول المعنى، لتضمنه كثيراً من وسائل التشويق والإثارة التي تقوم بدورها في تمكين المعاني في النفوس، بإثارة تطلعها إلى معرفة الخبر، أو جلاء ما به من إبهام، أو تفصيل ما به من إجمال، فإذا ورد المعنى بعد هذه الإثارة أنست إليه النفس، وتمكن فيها بعد أن سبقه إليها رسول مهد له موطناً مكينا» . (٢)

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: ١١١ .

(٢) المصدر السابق: ٣٢٨ .

الخاتمة:

وبعد هذا التطواف الماتع مع هذه السورة المباركة، وبعد هذه الصحبة الطيبة لهذه الآيات الكريمات أصل إلى نهاية هذا التطواف، وغاية هذا البحث، فلكل بداية نهاية، ولكل عمل غاية، فعسى أن أكون حققتُ الغاية التي كنتُ أرنو الوصول إليها، والوقوف عندها، وثمة نتائج أمكن الاهتداء إليها، والخروج بها من خلال هذه الدراسة، ومن أهمها ما يأتي:

أولاً: أن معرفة المكي والمدني تجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، ومن ثم الإفادة من هذا المبحث في الدعوة إلى الله، وذلك أن هذا المبحث يُعطي الدارس المنهج في طريقة التعامل مع الناس على اختلاف أجناسهم، وتعدد مشاربهم وتنوعها، ومن ثم يأتي الخطاب في كل الظروف والأحوال متلائماً مع مقتضيات الأحوال، مراعياً لها، وهل البلاغة إلاَّ هذه؟!

ثانياً: تجلتْ في سورة القارعة كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للسور في العهد المكي، وقد جاءت تلك الخصائص منبثقة من واقع أولئك الأقوام، ومنطلقة منه، ومن ثَم كانت هذه الخصائص مرآة تعكس حال القوم، وتبين ما هم عليه من الكفر والتكذيب والإعراض.

ثالثاً: تُعدُّ سورة القارعة من أوسط السور التي نزلت في العهد المكي، ولذا فقد توافر فيها كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للعهد المكي، وقد كشفتْ هذه الدراسة كثيراً من هذه الخصائص، وقد تم الوقوف معها؛ لبيان سرِّ توافرها، ودلالاتها في هذه السورة.

رابعاً: تكاد تكون سورة القارعة كلها من أولها حتى آخرها نموذجاً لما تتميز بها السور المكية في خصائصها الأسلوبية، فقد توافر فيها: أسلوب التكرار، وأساليب التهديد والزجر والوعيد، كذلك شدة ألفاظها، ولهجة خطابها، وشدة قرعها وزجرها، وحسبك دلالة على ذلك ورود لفظة "القارعة" فيها وتكرارها ثلاث مرات، ولا تخفى دلالة هذه اللفظة، وقوة وقعها، وشدة زجرها، وقد تم توظيف هذه الخصائص كلها في مخاطبة المشركين، ودعوتهم إلى الله، وإثبات يوم القيامة، والحساب بالعدل والميزان.

خامساً: تُعدُ هذه الخصائص الأسلوبية في سورة القارعة وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي تميز به أسلوب القرآن الكريم عن أساليب العرب قاطبة، بل البشر جميعاً، فقد تعددت هذه الخصائص الأسلوبية وتنوعت تنوعاً يلائم طبيعة الموضوعات التي تم الحديث عنها في هذه الفترة، ويلائم – كذلك – طبيعة الأحوال والأجواء التي تنزلت فيها هذه السورة من حيث المخاطبون بها، والظروف التي تعيشها الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت.

سادساً: تكاد تكون سورة القارعة كلها قائمة على الوعيد والتهديد والإنذار، فقد توافر فيها كثير من الأساليب الدالة على هذا الغرض، ومن ثم توظيف هذه الأساليب جميعاً في إبراز هذا الغرض وتحقيقه، ولذا فإن قيام هذه السورة على الوعيد والإنذار والتهديد في ذلك مطابقة لأحوال المخاطبين بهذه السورة، وكشف لطبيعة تلك النفوس التي خُوطبت بهذه

السورة، فلعلهم إن تأملوا هذا الوعيد والتهديد أن يقودهم ذلك إلى التصديق والإيمان، فيكون ذلك سبباً في إيمانهم وهدايتهم، وذلكم هو المراد، وإلا فقد قامت عليهم الحجة، ولكن حال دون إيمانهم وتصديقهم الكفر والإعراض، والعناد، وصدق الله ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر:٥]

وأدعو في خاتمة هذا البحث إلى مزيد من الدراسات البلاغية التي تعنى بالمكي والمدني في القرآن الكريم، لبيان كيف جاءت آيات هذين العهدين متوافقة مع طبيعة المجتمع الذي تنزلت فيه تلك الآيات، إذ يتجلى في مبحث المكي والمدني مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذه هي البلاغة بعينها.

كما أننا بحاجة إلى مزيد من الدراسات التطبيقية في هذا المجال، وتوظيف ما توافر لدينا من علم علمائنا في دراسات تطبيقية تحليلية تبرز هذا المبحث، وتبرز – كذلك – بلاغة القرآن الكريم.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مصادر البحث ومراجعه

- إتقان البرهان في علوم القرآن، للدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ـ ت).
- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، للدكتور عبدالغني محمد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ ١٩٨٣م .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٣هـ
- الإيضاح، للخطيب القزويني، دار إحياء الكتب الإسلامية، بيروت، (د ـ ت) .
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ على محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .
- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث .
- تأملات قرآنية : بحث منهجي في علوم القرآن الكريم، موسى بن إبراهيم الإبراهيم، الناشر : دار عمار، ط الأولى : ١٤٠٩ هـ .
- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور،(د ـ ت).
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د. محمد محمد

أبوموسى، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الرابعة: ١٤١٨ هـ .

- التعبير الفني في القرآن، للدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، مصر، القاهرة، الطبعة السادسة: ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .
- التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق د. نورة بنت عبدالله الورثان، أشرف على طباعته وإخراجه: الدكتور عبدالعزيز بن سطام آل سعود، والأستاذ الدكتور تركي بن سهو العتيبي، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م
- ١٤ـ تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض،١٤٢٣هـ .
- حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحيي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ـ ت).
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، دار صادر بيروت، (د ـ ت).

- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،د. عبدالعظيم إبراهيم مطعني، مكتبة وهبة القاهرة، ط: ١: ١٤١٣ هـ .
- دراسات في علوم القرآن، د. عبدالقهار داود العاني، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى: ١٩٧٢م
- دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد بن عبدالرحمن الرومي، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ .
- دراسات في القرآن والحديث، د. يوسف خليف، الناشر: مكتبة غريب القاهرة .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، ضبطه وصححه علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية: ٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ
- صحيح البخاري، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م .
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م
- علوم القرآن الكريم، د. عبدالمنعم نمر، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ.
- علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، للدكتور عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى:

١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني،د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط:١، : ١٤١٩هـ
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، الطبعة: الثانية عشرة: ١٤٠٦هـ .
- كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، (د ـ ت).
- الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ .
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور فضل صالح السامرائي، دار عمار، عمان، الأردن، (د ـ ت).
- مباحث في علوم القرآن، د.مناع القطان، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثامنة عشرة: ١٤١٢هـ.
- المثاني القرآنية: دراسة في مفهوم التكرار وأسراره في القرآن، للدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي،

تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ

- معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ .
- معاني القرآن، لأبي زكريا يحي بن زياد للفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد على النجار، ود. عبدالفتاح شلبي، وعلى النجدي ناسف، دار السرور، (د ـ ت).
- مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د. السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤١٣ هـ .
- المكي والمدني في القرآن ، د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، الطبعة الأولى: ١٤١٨ هـ .
- مناهل العرفان في علوم القرآن: للدكتور محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦ م .
- من بلاغة القرآن، للدكتور أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة، (د ـ ت).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ .

نبذة مختصرة عن بحث
خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة

بدأت الدراسة بمقدمة بينتُ فيها أهمية الدراسات البلاغية التطبيقية للقرآن الكريم، مشيراً إلى أن هذا البحث يُعنى بالجانب التطبيقي لعلم المكي والمدني في القرآن الكريم، وأنه – كذلك – سينطلق من النص نفسه، ومن هنا تتجلى أهمية هذه الدراسة؛ في كونها دراسة تطبيقية، وهذه هي الإفادة الكاملة في نظري من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيفه في مثل هذه الدراسات، ثم بينتُ أهمية الموضوع، وأسبابَ اختياره.

وقد جاء هذا البحث في مبحثين، الأول: بعنوان: وقفات تأملية مع مبحث المكي والمدني، ذكرتُ فيه خمس وقفات متعلقة بموضوع الدراسة،كانت توطئة للمبحث الثاني، الذي كان بعنوان: خصائص الخطاب المكي في سورة القارعة، الذي هو لبُّ هذه الدراسة، ثم ختمتُ الدراسة بخاتمة اشتملتْ على أبرز النتائج التي خرجتُ بها، ثم ذيلتُ هذا البحث بثبت للمصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها، والإفادة منها.

إعجاز الرسم القرآني بين المثبتين والنافين

إعداد الدكتورة :

نمشة بنت عبد الله الطواله

د. نمشة بنت عبدالله الطواله

- أستاذ القراءات المساعد بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن .
- حاصلة على درجة الماجستير من كلية التربية للبنات بالرياض بتحقيق كتاب (نكات القرآن لأبي محمد عبد الرحمن بن أحمد المقرئ من أول سورة آل عمران إلى نهاية سورة يونس).
- حاصلة على درجة الدكتوراة من كلية التربية للبنات بالرياض بأطروحتها (القراءات القرآنية وأثرها في علوم القرآن).

ملخص البحث

يحتوي هذا البحث على تعريف بعلم الرسم العثماني، ثم ذكر لأقوال العلماء في مسألة القول بتوقيف الرسم العثماني مع أدلتهم، وأقوالهم في حكم مخالفة الرسم العثماني مع أدلتهم .

ثم تناول البحث مسألة القول بإعجاز الرسم القرآني، من حيث بيان لنشأة القول بالإعجاز الرسمي، وأراء العلماء فيه، فسُمي بعض المثبتين لإعجاز الرسم القرآني ونص على مؤلفاتهم التي صرحوا بهذا القول بها، وأدلتهم التي استدلوا بها مع إيراد نماذج من التطبيقات على إعجاز الرسم القرآني، وقد ذكر مثال لكل قاعدة من قواعد الرسم العثماني مع نقل لتوجيهات القائلين بالإعجاز الرسمي، ثم سُمي بعض من صرح بنفي إعجاز الرسم القرآني، وأدلتهم على هذا القول، وفي الختام ذكر القول الراجح .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ... أما بعد :

فإن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة وحجته البالغة، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه محكم واضح لا يدخله الخلل ولا يعتريه نقص و لا زلل، لا يشتمل على تناقض واختلاف قال عنه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

أنزله الله تعالى بلسان العرب المعهود لديهم وتحداهم بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه فعجزت قرائحهم عن الإتيان بمثله أو بسورة منه ولم ولن يستطيع أحد على مرّ العصور مهما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بآية منه قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهو معجزة الله الخالدة فكلما تقدم العلم وتطاول الزمن ظهرت وجوه جديدة من وجوه إعجاز القرآن لتكون دليلا على صدقه وثبات حجته وشاهدا على أنه من عند العزيز الحكيم، ومع ذلك لا يقتصر إعجازه

على جهة دون جهة ، بل هو معجزة بمجموعه وفي جهات شتى .

ومن ضمن أنواع إعجاز القرآن التي تناولها العلماء والدارسون إعجاز الرسم القرآني، وتفاوتت في هذا النوع من الإعجاز واختلفت مواقفهم منه بين مؤيد ومعارض، وتوسع بعض المثبتين لهذا النوع من الإعجاز في تكلف وجوهه ومواضعه ولذا أتت فكرة هذا البحث لدراسة هذه الأقوال و محاولة تأصيل مسائل هذا النوع تأصيلا علميا .

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١. حاجة موضوع إعجاز الرسم القرآني للدراسة، فليس هناك دراسة وافية مستقصية – فيما أعلم –.
٢. محاولة استيفاء جميع جوانب موضوع إعجاز الرسم القرآني بقدر الطاقة .
٣. الاطلاع على موقف العلماء والباحثين من مسألة إعجاز الرسم القرآني، وبيان الراجح من هذه الأقوال حسب رأي الباحث .

هدف البحث :

تحرير موضوع إعجاز الرسم القرآني، وإلقاء الضوء على جوانب هذا الموضوع مع تأصيل مسائله .

خطة البحث:

تشتمل خطة الموضوع على مقدمة وفصلين وخاتمة وفهارس وفق التفصيل الآتي:

المقدمة وتشتمل على :

أهمية البحث، وأسباب اختياره، والهدف منه ، وخطة البحث .

الفصل الأول: تعريف برسم القرآن،ونشأة القول بإعجازه،وفيه تمهيد،وثلاثة مباحث:

التمهيد: يشتمل على تعريف بالرسم لغة واصطلاحا.

المبحث الأول : القول بتوقيف الرسم القرآني .

المبحث الثاني : حكم مخالفة الرسم العثماني .

المبحث الثالث : نشأة القول بإعجاز الرسم القرآني .

الفصل الثاني: مذاهب العلماء والدارسين في إعجاز الرسم القرآني، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : المثبتون لإعجاز الرسم القرآني وأدلتهم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : المثبتون لإعجاز الرسم القرآني ومؤلفاتهم .

المطلب الثاني : أدلة المثبتين لإعجاز الرسم القرآني .

المطلب الثالث : نماذج من التطبيقات على إعجاز الرسم القرآني .

المبحث الثاني : النافون لإعجاز الرسم القرآني و أدلتهم، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : النافون لإعجاز الرسم القرآني .

المطلب الثاني : أدلة النافين لإعجاز الرسم القرآني .

المبحث الثالث : الترجيح بين الأقوال .

الخاتمة : وفيها أهم النتائج .

ثبت المصادر والمراجع .

الفصل الأول:

تعريف برسم القرآن، ونشأة القول بإعجازه،

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث:

التمهيد: يشتمل على تعريف بالرسم لغة واصطلاحا.

المبحث الأول: القول بتوقيف الرسم القرآني.

المبحث الثاني: حكم مخالفة الرسم العثماني.

المبحث الثالث: نشأة القول بإعجاز الرسم القرآني.

التمهيد:

الرَّسْمُ في اللغة: أَثَرُ الشَّيء، وقيل: بَقِيَّةُ الأَثَرِ . ورَسْم الدَّارِ : ما كان من آثارها لاصقًا بالأرض. والثَّوب المرسَّم : المخطَّط . والجمع أَرْسُمٌ على زنة (أَفْعُل)، ورُسُومٌ على زنة (فُعُول) وهما وزْنَان مطَّردان الأول في القلة والثاني في الكثرة.

ورَسَمَتِ النَّاقة تَرْسِمُ رَسِيمًا : أَثَّرَتْ في الأرض من شِدَّة وَطْئِها .

ويطلق الرَّسم ويراد به الكتابة . قال ابن منظور: "رَسَمَ على كذا ورَشَمَ إذا كتب"[١]أ.هـ

ويرادف الرسم :الرَّشْم (بالشين المعجمة) والخَطُّ والزَّبْر والسَطْر والرَّقْم والكَتْب .

والرسم والمرسوم بمعنى واحد ، فالرسم مصدر أريد به اسم المفعول[٢].

الرَّسْمُ في الاصطلاح: الرَّسم في الاصطلاح على ثلاثة أنواع: الرسم الإملائي القياسي، ورسم العروض، رسم المصاحف العثمانية[٣].

(١) لسان العرب لابن منظور: (١/ ١١٧١) مادة: "ر.ش.م"

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٢/ ٣٩٨)، وتاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: (٥/ ١٩٣٢)، ولسان العرب: (١/ ١١٦٦) مادة: "ر.س.م"

(٣) أصل هذا التقسيم ظهر عندما أسس علماء الكوفة والبصرة لفن الكتابة ضوابط بنوها على أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية، وبانتشار استعمال هذه القواعد التي وضعوها ظهر علم الهجاء أو الخط القياسي، وهجر الناس استعمال هجاء الكلمات القديم في كتابتهم، لكن نُسَّاخ المصاحف لم يستعملوا الصورة الجديدة في نسخ المصاحف، فلذا ميّز =

النوع الأول: الرسم القياسي: وهو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها.

فهو جارٍ على إثبات ما أثبته اللفظ غالبًا، وإسقاط ما تُرك في النطق مع مراعاة الابتداء والوقف.

فأُثبت لهمزة الوصل صورة في الخط، لثبوتها في النطق ابتداء، ولم يرسم للتنوين صورة لحذفه في النطق وقفًا، وهو عرضة للتغيير والتبديل والتطوير.(١)

النوع الثاني: الرسم العروضي: وهو جارٍ على كتابة كل ما ينطق وترك ما لا يلفظ بحسب الوصل وإن خالف ذلك قواعد الإملاء القياسية، فيرسم للتنوين صورة وتحذف صورة همز الوصل(٢).

النوع الثالث: الرسم الاصطلاحي، وهو المعروف بالعثماني، نسبة إلى عثمان بن عفان ﷺ، لأمره بنسخ المصاحف في خلافته، وإرسالها إلى

= العلماء بين هذين الأسلوبين. انظر: مختصر التبيين لهجاء التنزيل لسليمان بن نجاح: (١/ ١٣١)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي: (١/ ٣٧٦)، ورسم المصحف: دراسة لغوية تأريخية لغانم قدوري الحمد: ص١٩٨.

(١) انظر: مختصر التبيين لهجاء التنزيل لأبي داوود سليمان بن نجاح بتحقيق أحمد شرشال، قسم الدراسة: (١/ ١٣٣)، شرح شافية ابن الحاجب للاستراباذي: (٣/ ٣١٢، ٣١٥) دليل الحيران شرح مورد الظمآن في رسم وضبط القرآن لإبراهيم المارغني: ص٤٠، ونثر المرجان في نظم رسم القرآن للأركاتي: (١/ ٥).

(٢) انظر: لطائف البيان شرح رسم القرآن شرح مورد الظمآن لأحمد أبو زيتحار: ص١٢-١٣.

الأمصار الإسلامية . وعَبَّر عنه الزركشي بخط يُتْبَع به الاقتداء السلفى، كما سماه المارغني بالخط الوقفي[١] وهو المقصود بهذا البحث.

وقد تعددت تعاريف العلماء للرسم العثماني في الاصطلاح:

فعرَّفه الجعبري بأنه: مخالفة الرسم القياسي ببدل أو زيادة أو أصله أو فرعه أو رفع لبس ونحوه.[٢]

وقيده المارغني بقوله:علم تعرف به مخالفاتُ خطِّ المصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي[٣].

وعرَّفه الزرقاني بأنه: الوضع الذي ارتضاه عثمان ومن كان معه من الصحابة ﷺ في كتابة كلمات القرآن الكريم وحروفه.[٤]

وعرّفه محمد طاهر الكردي بأنه: ما كتبه الصحابة ﷺ من الكلمات القرآنية في المصحف العثماني على هيئة مخصوصة لا تتفق مع قواعد الكتابة[٥].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي: (١/ ٣٧٦)، دليل الحيران: ص٤٠.

(٢) جميلة أرباب المراصد في شرح عقيلة أتراب القصائد للجعبري: (ا/ ١٢١) وانظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري: (٢/ ١٢٨)، ونثر المرجان: (١/ ١٧)، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر للبنا: ص١٥.

(٣) دليل الحيران:ص٤٠ . وانظر: إرشاد القراء والكاتبين إلى معرفة رسم الكتاب المبين للمخللاتي: (١/ ١١٢)، وسمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين للضباع: ص٣٠، ولطائف البيان: ص١٣.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن: (١/ ٣٦٩) . وانظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة: ص٣٠٢، والفتح الرَّباني في علاقة القراءات بالرسم العثماني لمحمد سالم محيسن: ص٢٠.

(٥) تاريخ القرآن وغرائب رسمه وأحكامه لمحمد طاهر الكردي:ص٩٣،وانظر:علوم =

والخلاف بين هذه التعاريف يسير، فجلُّها تشترك في الإشارة إلى عناية علم الرسم العثماني بمخالفة خطِّ المصاحف لأصول الرسم القياسي، لأن غالب من كتب في علم الرسم إنما يتكلم على ما كان مخالفا للرسم القياسي، أما ما وافق فيه رسم المصاحف الرسم القياسي فلا يُتعرض له غالبا.

ومن عرّف الرسم بأنه الوضع الذي ارتضاه عثمان ومن معه من الصحابة ﷺ، أو بأنه ما كتبه الصحابة ﷺ نظر إلى استمداد علم الرسم، فقد أُخذت قواعد هذا العلم واقتبست ضوابطه من المصاحف المنسوخة في عهد عثمان ﷺ والتي وصلت إلى علماء الرسم أو رُوِي لهم كيفية رسمها وكتابتها، بينما نظر من عرَّف الرسم بأنه علم تعرف به مخالفات خط المصاحف العثمانية إلى ماهية علم الرسم بعد تدوين مسائله(١).

= القرآن الكريم لنورد الدين عتر: ص١٧٥.

(١) انظر: رسم المصحف دراسة لغوية: ص١٦٧، ومختصر التبيين لهجاء التنزيل: (١/ ١٤٩)، ولطائف البيان:ص١٤.

المبحث الأول: القول بتوقيف الرسم القرآني:

الوقف في اللغة: يدل على تمكُّثٍ في شيء. وهو مصدر من قول: "وَقَفْتُ الدَّابَّة، ووقَفْت الكلمة وَقْفًا". قال ابن فارس: "كُلُّ شيءٍ أمْسَكْتَ عنه، فإنَّكَ تقول: أوقفت"[١]أ.هـ.

ووَقَفَ يَقِفُ وُقُوفًا: دامَ قائمًا، وأَوْقَفَ: سَكَتَ، وأَوْقَف عنه: سَكَتَ وأَقْلَعَ. والتَوْقِيْفُ: تَفْعِيْل من وقف. والياء إن أُضيفت إليه (توقيفي) للنسبة[٢].

والمراد بالتوقيف: الاقتصار على ما ورد به الدليل من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ، وقد يتوسع في المراد بالتوقيف فيطلق على ما يجب الالتزام به[٣].

والملاحظ أن جلّ من تناول هذه المسألة يجعل القول بأن الرسم توقيفي في مقابل القول بجواز مخالفة رسم المصاحف لكونه اصطلاح، مع استشهادهم على القول بوقفية الرسم بكلام للسلف يدل على حرمة مخالفة رسم المصاحف[٤].

(١) معجم مقاييس اللغة: (٦/ ١٣٥) مادة (و.ق.ف).

(٢) انظر: لسان العرب: (٣/ ٩٦٩)، والقاموس المحيط: ص١١١٢ مادة: (و.ق.ف).

(٣) انظر: شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لمحمد بن عثيمين: ص ٢٣، ٤٣، والمدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لإبراهيم البريكان: ص٥٢-وما بعدها.

(٤) انظر مثلا: لطائف البيان: ص٧، ومناهل العرفان: (١/ ٣٧٧، ٣٨٠)، والمدخل: ص ٣٠٩، ٣١٨.

وقد اختلف العلماء في طريقة معرفة الرسم القرآني هل كان بتوقيف من النبي ﷺ، أم كان اصطلاحا باجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم جميعا؟

المذهب الأول: أن رسم القرآن توقيفي:

نُسب هذا القول في بعض كتب علوم القرآن وكتب الرسم المتأخرة لجمهور العلماء[1] وهذه النسبة صحيحة إن أريد بالتوقيف وجوب كتابة المصاحف بالرسم العثماني، وعدم جواز كتابتها بخلاف ما كتبه الصحابة ﷺ. قال المارغيني: "الرسم قسمان قياسي، وتوقيفي، ويسمى القسم الثاني بالاصطلاحي، نسبة لاصطلاح الصحابة ﷺ ... وقد تقدم لك أنه ورد عدة أحاديث في طلب الاقتداء بالصحابة فيما فعلوه، ومما فعلوه مرسوم المصاحف، وقد أجمعوا عليه، وهم ﷺ اثنا عشر ألفًا فيجب علينا اتباعهم، وتحرم علينا مخالفتهم."[2] أ.هـ.

وأما إن أُريد بالتوقيف وُرُود النص بكيفية كتابة المصاحف، وأن معرفة طريقة كتابتها كان بوحي فهذا القول محدث لم يؤثر عن الصحابة ﷺ ولا عن أهل القرون المفضلة بعدهم، بل هي مسألة متأخرة ساعدت

---

(١) انظر مثلا : مناهل العرفان: (١/ ٣٣٧)، والجمع الصوتي الأول للقرآن للبيب السعيد: ص ٢٩٥، وتاريخ توثيق نص القرآن الكريم لخالد عبد الرحمن العك: ص٨٦، والإعجاز القرآن في الرسم العثماني لعبد المنعم شعير: ص٦. وادعى محمد حبيب الله الشنقيطي في إيقاظ الأعلام: ص١٣ الإجماع على هذا القول.

(٢) دليل الحيران: ص٤٠-٤١. وانظر: رسم المصحف بين التحرز والتحرر لزيد عمر مصطفى بحث منشور في مجلة الدارة:ص٧٧، العدد الثالث لعام ١٤١٥هـ.

الدعوات التي تنادي بتغيير الرسم العثماني، وكتابة المصاحف برسم الإملاء القياسي على ظهورها والتوسع في تناولها.

وممن صرح بأن رسم المصاحف توقيفي بوحي، عبد العزيز الدباغ حيث نُقل عنه قوله :"ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرةٌ واحدةٌ ، وإنما هو توقيفٌ من النَّبي ﷺ ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة ، بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرارٍ لا تَهتدي إليها العقول... وهو سرٌّ من أسراره خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية"[(١)]أ.هـ.

وعلي الضباع حيث قال:" أمَّا إن قلنا إنه من إملاء النبي ﷺ على كتبة الوحي ومن تلقين جبريل ﷺ وهو الأصح كما نقله كثير من العلماء فالطاعن فيه طاعن فيما هو صادر من النبي ﷺ."[(٢)]أ.هـ.

وهو ظاهر كلام المراكشي حيث قال: "لما كان خطّ المصحف الذي هو الإمام الذي يعتمده القارئ في الوقف والتمام ولا يعدو رسومه ولا يتجاوز مرسومه قد خالف خطّ الأنام في كثير من الحروف والأعلام. ولم يكن ذلك منهم كيف اتفق، بل على أمر عندهم قد تحقق، بحثت عن وجوه ذلك بمقتضى الميزان ووافي الرجحان ووقفت منه على عجائب ورأيت منه غرائب"[(٣)]أ.هـ.

---

(١) نقله عنه تلميذه أحمد بن المبارك السلجماسي في كتابه: الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز: ص٨٧.

(٢) سمير الطالبين: ص ١٨.

(٣) عنوان الدليل من مرسوم خطّ التنزيل لأبي العباس المراكشي: ص٣٠. ونقل صاحب نثر =

وظاهر كلام المارغني التونسي أيضا والزرقاني ولبيب السعيد[1]، وصرح به محمد الحسيني وحبيب الله الشنقيطي و الفرماوي وغيرهم[2].

وبالغ أشرف قطنة فقال: "أننا نعتقد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد هجَّأ للكتبة بعض كلمات القرآن الكريم، وهي الكلمات الموقوفة كتابتها، مثل كلمات: بصطة، المصيطرون، مصيطر، ضنين .."[3]أ.هـ.

واستدلوا القائلون بهذا القول بأدلة منها:

(١) عموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. فدلت الآيات على أن الله تعالى قد تكفل بحفظ القرآن الكريم،

= المرجان: (١/ ١٢) عن صاحب الخزانة نقله عن الكسائي قوله: "في خط المصحف عجائب وغرائب تحيَّرت فيها عقول العقلاء، وعجزت عنها أراء الرجال البلغاء، وكما أن لفظ القرآن معجز فكذلك رسمه خارج عن طوق البشر"أ.هـ.

(١) انظر: دليل الحيران: ص ٤٢، ومناهل العرفان: (١/ ٣٧٧ وما بعدها)، والجمع الصوتي الأول للقرآن ص ٢٩٥ وما بعدها، ومناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم لخالد عثمان السبت: (٣/ ٤٨٠).

(٢) انظر: إرشاد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن للحسيني: ص٧٧، وإيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام لمحمد الشنقيطي: ص١٣، ورسم المصحف ونقطه: ص١٠٩، ٥٤٠، والإعجاز القرآني في الرسم العثماني لعبد المنعم شعير: ص ٦، ١٧، والمدخل لدراسة علوم القرآن لأبي شهبة: ص٣٦٤، وتاريخ توثيق نص القرآن لخالد العك: ص٥٥.

(٣) رسم المصحف والإعجاز العددي: ص٥٩ .

كما أنه سبحانه نزّه القرآن عن أن يأتيه الباطل، ولو كانت كتابة الصحابة ﷺ للمصاحف بغير وحي، للزم رسم بعض الكلمات والحروف بغير ما نزلت به لجهل الكتبة بالخط وهذا باطل، لأن الله تكفّل بحفظ القرآن الكريم. قال علي الضباع: "ويشهد له أيضا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه تكفل بحفظ كتابه، وتواترت قراءة (رحمت، ونعمت، وسنت) وأخواتها المشهورة بالتاء عند الوقف، وقراءة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ﴾ في سورة النساء [١٤٦] بسكون التاء وحذف الياء لغير جازم ... فلو لم يكن الرسم العثماني توقيفيًا، علّمه جبريل عليه السلام للنبي ﷺ لكان خبره تعالى كاذبًا، وهو محال. أي لو كان الرسم العثماني غير توقيفي، بأن كتبه الصحابة على ما تيسر لهم، كما زعمه البعض لزم أن يكون سبحانه وتعالى أنزل هذه الكلمات (رحمت) وأخواتها بالهاء، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ﴾ بالياء ... ثم كتبها الصحابة لجهلهم بالخط يومئذ بالتاء وبحذف الياء والواو، ثم تبعتهم الأمة خطأ ثلاثة عشر قرنًا ونصفا، فتكون الأمة من عهده ﷺ إلى اليوم مجمعة على إبدال حروف بأخرى في كلامه ليست منزلة من عنده .وعلى حذف حروف عديدة منه. وإذا كان ذلك كذلك لكان خبره تعالى كاذبًا، وكذب خبره تعالى باطل، فبطل ما أدى إليه، وهو كون رسم هذه الكلمات ونظائرها بلا توقيف نبوي."[١]أ.هـ.

---

(١)سمير الطالبين: ص١٨، وانظر: رسم المصحف ونقطه : ص ٣٤٧-٣٤٨، ورسم القرآن =

(٢) إقرار النَّبي ﷺ كُتَّاب الوحي على ما كانوا يكتبون من القرآن بين يديه ﷺ ، وتوفي ﷺ والقرآن على هذه الكَتْبَة لم تتغير ولم تتبدل، ثم أتى أبو بكر الصديق ﷺ فكتب القرآن وجمعه من الصحف التي كُتبت بين يدي الرسول ﷺ، ثم استنسخ هذه الصحف عثمان ﷺ، وانعقد إجماع أصحاب رسول الله ﷺ على ذلك. يقول حبيب الله الشنقيطي:" معلوم من فن الأصول أن كل ما فعل بحضرته ﷺ وإقراره سنة واجبة الإتباع، لأن سنته قول أو فعل أو إقرار كما تقرر في محله، وقد اجتمع في رسم القرآن القول والإقرار أي التقرير، فالشأن فيه كله التوقيف.[(١)]"أ.هـ.

(٣) الاستدلال بآثار ضعيفة تدل على أن النَّبي ﷺ كان يوجه كُتَّاب الوحي في رسم القرآن وكتابته منها :

أ- ما روي عن معاوية ﷺ أنه كان يكتب بين يدي النَّبي ﷺ، فقال له:"أَلِق الدَّوَاةَ، وحرِّف القلمَ، وانصب الباء، وفرِّق السِّينَ، ولا تُعَوِّر الميم، وحسِّن (الله)، ومدّ (الرحمن)، وجوِّد (الرحيم)، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك."[(٢)]

= معجز كلفظه ولا يمكن تغييره لمحمد النص: ص٥-٧.

(١) إيقاظ الأعلام: ص١٣، وانظر: سمير الطالبين: ص١٩، ورسم المصحف ونقطه: ص ٣٤٩.

(٢) رواه السمعاني في أدب الاملاء والاستملاء: ص١٧٠ وذكره القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى: (١/ ٣٥٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (١/ ٣٢) للديلمي. وذكر بعضا منه المتقي في كنز العمال: (١٠/ ٣١٢) وقال: "وفي سنده عمرو بن الأزهر قال عنه النسائي: متروك، وقال عنه أحمد: يضع الحديث، وقال البخاري: يُرمى بالكذب."أ.هـ. وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: (٢/ ٢٠٥٣)"موضوع" =

ب- ما روي عن أنس ﷺ أن النَّبِي ﷺ قال: "إذا كتب أحدكم (بسم الله الرحمن الرحيم)، فليمدَّ الرحمن."(١)

(٤) أجماع الصحابة ﷺ والتابعين ومن بعدهم على ما رسمه عثمان ﷺ في المصاحف، واستحسانه، ومنعهم مخالفة خط المصاحف العثمانية.(٢)

(٥) الاحتجاج بظواهر الرسم العثماني التي أتت مخالفة لقواعد الرسم الإملائي، بالإضافة إلى مخالفة بعض الظواهر لنظائرها في المصحف. قال الفرماوي: "ومن دلائل هذه التوقيفية: أن الكلمة من القرآن، قد تكتب في بعض المواضع برسم، وفي موضع آخر برسم مع أنها هي هي ... فلو كان الرسم بالاصطلاح لما وقع هذا التخالف . نظرًا لأنهم - إذا كان الرسم باصطلاحهم - سوف يسيرون في عملهم عند الكتابة على الخطة التي قد اتفقوا عليها، أو الاصطلاح الذي أَلِفُوه وغالبا ما يكون واحدًا في القوم المحدودين المتعاصرين وهم كانوا كذلك، ولكن لأنهم لا يسيرون على خطة من عند أنفسهم، ولا يكتبون كيفما اتفق لهم، بل يتبعون إرشادات الوحي كانت هذه

= أ.هـ. وضعفه ابن حجر في الفتح: (٧/ ٥٠٤). وانظر: الوسيلة: ص٢٥،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (١٣/ ٢٣٤).

(١) ذكره القلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: (٦/ ٢١٣). وقال عنه الألباني في ضعيف الجامع: (١/ ١٦٩) "موضوع".

(٢) انظر: المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار: ص١٦٤، والبرهان في علوم القرآن : (١/ ٣٧٩)، ودليل الحيران: ص٤٢، ومناهل العرفان: (١/ ٣٧٧)، والمدخل لدراسة علوم القرآن: ص٣٠٧، ورسم المصحف ونقطه: ص ٣٤٨ وما بعدها.

المخالفات."[1] أ.هـ.

المذهب الثاني: أن رسم القرآن توفيقي اجتهادي:

يرى أصحاب هذا القول أن الصحابة ﷺ كتبوا القرآن في المصاحف كما سمعوه من رسول الله ﷺ وفق ما اعتاده الكُتَّاب في زمانهم من قواعد الكتابة ، فكتابتهم للقرآن الكريم بما لديهم من أصول الكتابة لا بتعليم الرسول ﷺ[2] وهو الراجح.

وممن صرح بهذا القول الباقلاني، والعز بن عبد السلام، وأبو شامة، وابن خلدون، والشوكاني[3]، ومن المعاصرين محمد طاهر كردي، و صبحي الصالح، و غانم قدوري الحمد، وإبراهيم الأبياري، ومحمد عزة دروزة وغيرهم.[4]

---

(١) رسم المصحف وضبطه: ص ٣٩٥ -٢٦٠، وانظر: سمير الطالبين: ص١٨-١٩.

(٢) هذا القول ظاهر كلام كثير من العلماء كابن قتيبة والفراء وابن تيمية . انظر: معاني القرآن للفراء: (٢/ ٤٣٩)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ص٥٧، ومجمع الفتاوى: (١٣/ ٣٢٠-٤٢١).

(٣) انظر: نكت الانتصار للباقلاني: (٢/ ١٤٨)، والمرشد الوجيز: ص١٧٣، والبرهان في علوم القرآن: (١/ ٣٧٩)، ومقدمة ابن خلدون: (٢/ ٩٦٥)، وفتح القدير للشوكاني: (١/ ٢٩٤). ولم يرتض أشرف قطنة نسبة هذا القول للباقلاني، وجنح إلى أن كلامه في هذا الأمر مدسوس عليه، أو أن أحد تلامذته كتبه كما فهمه لا كما قاله الباقلاني نفْسه. انظر: رسم المصحف والإعجاز العددي لأشرف قطنة: ص٥٧.

(٤) انظر: تاريخ القرآن: ص١٠١-١١٠، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ص٢٧٧، و لطائف البيان: ص١٣، وأبحاث في علوم القرآن لغانم قدوري: ص١٩٨- وما بعدها، وتأريخ القرآن لإبراهيم الأبياري: ص١٤٩، ورسم المصحف إحصاء =

واستدلوا القائلون بهذا القول بأدلة منها:

(١) حاجة دعوى التوقيف إلى دليل، ولا يوجد دليل صريح صحيح من الكتاب، ولا من السنة، ولا من أقوال الصحابة ﷺ يدل على أن رسم القرآن توقيفي . وما روي من روايات وآثار في هذا الباب لا يصح ولم يثبت عن النبي ﷺ . قال الباقلاني: "أما الكتابة ، فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئًا ، إذ لم يأخذ على كتَّاب القرآن وخطَّاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره ، أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدْرَك إلا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص ، وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية. بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهُل ، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجهًا معينًا ، ولا نَهى أحدًا عن كتابته ، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف ، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاحٌ ، وأن الناس

= ودراسة لصالح محمد عطية: ص٤٦،والقرآن المجيد لمحمد عزة دروزة: ص٣١، ودراسات في علوم القرآن لفهد الرومي: ص ٣٧١، ومن أسرار وإعجاز القرآن الكريم لمحمد النابلسي:ص ١٢، اللآلئ الحسان في علوم القرآن لموسى شاهين لاشين: ص٨١، والتبيان في علوم القرآن لكامل موسى وعلي دحروج: ص ٤٩ .

لا يخفى عليهم الحال"[1]أ.هـ

ويقول زيد عمر العيص في رده على الآثار التي أُستدل بها:"لا يسلم لهم هذا الاستدلال لا من حيث الدليل، ولا من حيث المدلول، فإن الحديث الذي ذكروه[2] لا يصح عنه ﷺ، ولو تنزلنا مع هؤلاء ونظرنا إلى مدلوله فإنه لا يتضمن أية إشارة إلى الرسم والإملاء، وإنما يشير إلى أمور تتعلق بالخط وتحسينه.[3]أ.هـ.

(٢) أن النبي ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب فلا يصح أن يُقال إنه أقرّ الطريقة التي رسم بها كتَّاب الوحي حروف القرآن[4] . يقول محمد طاهر الكردي: " إن من معجزات النبي ﷺ كونه أميا لا يكتب ولا يقرأ كتابا كما قال تعالى:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فكيف يملى عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت على حسب قواعد الكتابة والإملاء

---

(١) نكت الانتصار لنقل القرآن: (٢/ ١٤٨). وانظر: تاريخ القرآن: ص ١٠٣.

(٢) يعني حديث معاوية رضي الله عنه.

(٣) الرسم بين التحرر والتحرز: ص٧٩، وانظر: مباحث في علوم القرآن للصالح: ص٢٧٧-٢٧٨.

(٤) اختلف أهل العلم – رحمهم الله – هل كون النبي ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب صفة مستمرة فيه أم أنه تحول عنها ؟ على قولين . ووصفه ﷺ بالأميَّة دلت آيات القرآن عليه وهو صف ملازم له ﷺ، ولم يصح خبر أنه تحول عنه . انظر: السيرة الحلبية: (٣/ ٢٤)،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (١٣/ ٤٢٥)،فتح الباري: (٧/ ٤٠٥)، (٩/ ٤٥)، وروح المعاني للألوسي: (٢١/ ٤ ، ٥) .

من نحو الزيادة والنقص والوصل والفصل. فهل كان يقول صلى الله عليه وسلم لكاتب الوحي اكتب كلمة ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ في سورة البقرة كلها بغير ياء واكتبها في بقية القرآن بالياء واكتب كلمة ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ بياءين. واكتب كلمة ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ بزيادة ألف بعد الجيم. واكتب كلمة ﴿لِشَاْىْءٍ﴾ بزيادة ألف بعد الشين واكتب كلمة ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ بزيادة ياء قبل النون. واكتب كلمة ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ بهمزة فوق الواو وألف بعدها. واكتب هذه الكلمات (جاءو) (فاءو) (باءو) (تبوءو) بغير ألف فيها بعد واو الجماعة وفيما عدا هذه الكلمات أثبت الألف بعدها. واكتب كلمة (مائة) بالألف واكتب كلمة (فئة) بغير ألف. واكتب كلمة (سعوا) التي بالحج بالألف بعد الواو. واحذفها من (سعو) التى بسبأ. واكتب كلمة (واخشوني) بالياء في البقرة واحذفها منها في التى بالمائدة واحذف اللام الثانية من كلمة (اليل) وأثبتها في كلمة (اللؤلؤ) واكتب الكلمات (الصلوة) (الزكوة) (الربو) بالواو واكتب ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى﴾ بالتاء واكتب ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بالهاء وافصل (كي) عن (لا) في ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ وأوصلها في ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ وهكذا في جميع القرآن. فإن كان إملاء النبي ﷺ القرآن لكاتب الوحي بهذه الصفة فالرسم توقيفي بلا جدال لكن لم نر منقولا أن النبي ﷺ كان يملى كاتب الوحي بهذه الصفة والكيفية ،

فلو كان كذلك لتواتر عنه ﷺ وما كان ذلك خافيا على أحد ، ولو كان كذلك أيضا لكان عليه الصلاة والسلام عارفا بأصول الكتابة وقواعد الإملاء وكيف وهو النبي الأمي.(١)"أ.هـ.

(٣) ورد ما يدل على اختلاف كتّاب الوحي في طريقة رسم بعض كلمات القرآن الكريم، ومع ذلك لم يُنكر عليهم أحد، منها ما جاء في حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: "فأمر - أي عثمان ﷺ - زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ﷺ، فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا.". قال الزهري: "فاختلفوا يومئذ في (التابوت) و (التابوة) . فقال القرشيون: (التابوت)، وقال: زيد (التابوة)، فرفعوا اختلافهم إلى عثمان . فقال : اكتبوه (التابوت) فإنه نزل بلسان قريش"أ.هـ.(٢)

قال السخاوي:"إنه -أي عثمان ﷺ- أَرسل إلى أُبي يسأله عنها وعن

(١) تاريخ القرآن: (١/ ١٠١).

(٢)أخرجه البخاري في صحيحه:ص٤٣٢-٤٣٣،كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم الحديث (٤٩٨٧)، والترمذي في جامعه:ص١٩٦٥، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم الحديث (٣١٠٤)، وابن أبي داوود في المصاحف: (١/ ١٩٧)، وأبو عبيد في فضائل القرآن :ص١٥٣، ابن حبان في الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان: (٧/ ١٨)، والداني في المقنع: ص١٤٨.

قوله تعالى: (لا تبديل للخلق)، وعن قوله تعالى: (فأمهل الكافرين) وبعث بذلك إليه في مكتوب فمحا أبي ﷺ إحدى اللامين، وكتب (لخلق الله) ومحا (فأمهل) وكتب (فمهل) وكتب (يتسنه) وألحق فيها الهاء."[١]أ.هـ.

(٤)الشواهد والآثار التاريخية مما عثر عليه من نقوش وكتابات لغير القرآن تحمل نفس ظواهر الرسم التي رسمت بها المصاحف، وتثبت أن قواعد الكتابة التي رسم بها الصحابة ﷺ المصاحف هي التي كانت معروفة في زمانهم . يقول غانم قدوري: "ظلت تلك الظواهر الكتابية التي لم تخضع لقواعد الهجاء المستحدثة محل نقاش ومثار تساؤل، فاختلفت وجهات العلماء في تفسيرها، وتناقضت مواقفهم - أحيانًا- منها، حتى إن بعض العلماء حمل تلك الظواهر على خطأ الكاتب في الكتابة . وذهب آخرون إلى أنها توقيف، وأنها تخفي من الأسرار الباطنة مالا يدرك إلا بالفتح الرباني . وقد أوقعهم في ذلك جميعًا إهمالهم للبعد التاريخي الكتابة، واعتقادهم -جميعًا- أن الأصل في الكتابة موافقة الخط للفظ، فقالوا إن الصحابة ﷺ خرجوا على ذلك الأصل حين كتبوا المصحف، وهم في الحقيقة إنما استخدموا الهجاء المستعمل في زمانهم، الذي يعود بقواعده وبما يحمل من ظواهر كتابية وردت في رسم المصحف إلى فترات أقدم من تاريخ نسخ

(١) الوسيلة إلى كشف العقيلة: ص٦٦-٦٧.

المصاحف."[1]أ.هـ.

(٥) لو كان الرسم توقيفيا لنُعِت بذلك يقول محمد الكردي :"لو كان الرسم توقيفيا لنعتوه (بالرسم التوقيفى) أو (بالرسم النَّبوى) وما كانوا نعتوه (بالرسم العثماني) نسبة لعثمان بن عفان فاستدلالهم بأن زيد بن ثابت كتب كلمة (واخشوني) بالبقرة بإثبات الياء وكتبها في المائدة بحذفها في غير محله ، لأن ثبوت الياء أو حذفها يعلم من وقوف القارئ على الكلمة ، فإن وقف بالسكون على نون واخشوني كتبت بالنون فقط، وإن وقف على الياء كتبت بالياء قال بعضهم: إن مدار الرسم والكتابة معتبر بالوقف والبداءة، فزيد بن ثابت عرف ذلك من وقف النبي ﷺ على الكلمة ، فعلم مما ذكرناه أن رسم المصحف ليس توقيفيا وإنما هو من وضع الصحابة واصطلاحهم لحكمة لم ندركها."[2]أ.هـ.

<u>المذهب الثالث:</u> السكوت عن هذا الأمر ومنع المسألتين، فالرسم ليس توفيقي ولا اصطلاحي . وذهب إلى ذلك رؤوف شلبي حيث يقول:"موضوع ارتباط الرسم العثماني باصطلاح التوقيف أو التوفيق ليس بذي وزن، لأنه لو كان توقيفيا لما وقع خلاف، ولما أشار عليهم سيدنا عثمان اكتبوه بلسان قريش فقد نزل بلغتهم. إذن مبحث الرسم العثماني توقيفي أو توفيقي ليس بالجيد علمًا لوقوع هذا الخلاف، وليس معنى هذا أنني أميل إلى الرأي القائل بأنه توفيقي، كلا فأنا أمنع المسألتين معا، وأقول

(١) رسم المصحف "دراسة لغوية تأريخية": ص٢٠٤ .

(٢) تاريخ القرآن: (١/ ١٠٤).

إنه اصطلاح أجمع عليه كبار الصحابة وارتضته الأمة الإسلامية كلها وورثته تركة عن أكابر الصحابة وهم الأعرف بكتاب الله الذين شاهدوا الوحي والنبي ﷺ، وعاشوا حياة النور والهدي والله يصل السماء بالأرض بحبله المقدس فهو إجماع فريد في نوعه."[1]أ.هـ. وهذا القول في حقيقته يرجع لأحد القولين السابقين.

(١) جواهر العرفان في الدعوة وعلوم القرآن: ص٩٩٣.

المبحث الثاني: حكم مخالفة الرسم العثماني:

خلط بعض الباحثين بين هذه المسألة وبين مسألة القول بتوقيف الرسم العثماني، وهما مسألتان مفترقتان، وإن كان بينهما تلازم نسبي، إذ يلزم من القول بأن الرسم العثماني توقيفي ، القول بمنع مخالفته . ولا يلزم من القول بأن رسم القرآن اصطلاحي الحكم بجواز مخالفة الرسم العثماني، بل الأمر محتمل للجواز والمنع(١).

وقد كان الالتزام برسم المصاحف العثمانية محل إجماع عند علماء الأمة في القرون الثلاثة المفضلة، والاقتداء بخط تلك المصاحف سنة متبعة، حتى أسس العلماء قواعد الكتابة على أقيسة النحو وقواعد الصَّرف، فظهر الفرق بين علم رسم المصاحف، وقواعد رسم الإملاء(٢)، ونشأ الاختلاف بين

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ص ٢٢٧، رسم المصحف ونقطه: ص٣٤١ وما بعدها، ودراسات في علوم القرآن: ص ٣٧١-٣٧٢.

(٢) لتأخر ظهور الخلاف بين العلماء في هذه المسألة يرى أحمد شرشال أنه من الإجحاف المساواة بين الأقوال في هذه المسألة حيث يقول:"من الإجحاف وعدم الإنصاف أن يقولوا :"اختلف العلماء على قولين" فهذا فيه إيهام بأنهما متساويان، وفيه إجحاف بأحد القولين، لأن الذين قالوا بعدم الوجوب متأخرون وبعد قرون من الزمن، ويعد هذا القول محدثا وطارئا ولا يرقى أن يكون مذهبا يساوي مذهب علماء الأمة، لأن الذين ذهبوا إلى وجوب إتباع الرسم العثماني هم أئمة الأمة وعلماؤها وخيارها"أ.هـ. مختصر التبيين لهجاء التنزيل: (١/ ٢٠٧). وانظر: المقنع : ص١٦٥، ورسم المصحف: دراسة لغوية تأريخية: ص١٩٧-١٩٨، والفتح الرباني في علاقة القراءات بالرسم العثماني لمحمد محيسن : ص٥٩.

العلماء في حكم مخالفة رسم المصاحف العثمانية عند كتابة المصاحف على ثلاثة أقوال:

القول الأول: يجب على الأمة إتباع رسم المصاحف العثمانية والالتزام به، وتحرم مخالفته. وقد اختلفت أدلة القائلين بالوجوب، فمنهم من ذهب إلى أن دليل الوجوب كون الرسم العثماني توقيفيا[١]، ومنهم من ذهب إلى أنه اصطلاح تلقته الأمة بالقبول، وأجمعت عليه الصحابة ﭫ فيجب اتباعه[٢]، وهو مذهب جمهور العلماء، وهو الراجح.[٣]واستدلوا بأدلة منها:

(١) سبق مناقشة هذا القول.

(٢) يرى زيد العيص إن ما يسمى إجماعًا من الصحابة ﭫ على رسم مخصوص إنما هو عدم اعتراض على شيء مألوف عندهم. ويعكر على هذا الرأي ما ورد من اختلاف الصحابة ﭫ في رسم بعض الكلمات ثم إجماعهم على رسمها بعد ذلك، بالإضافة إلى أن اعتبار رسم المصاحف عند القراء في باب الوقف، وفي الوصل والفصل يشهد لحاجة الرسم للإجماع كما هي حاجة القراءات للإجماع. والله أعلم. انظر: رسم المصحف بين التحرر والتحرز، مجلة الدارة:ص٨٦، العدد الثالث.

(٣) أوصى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في المؤتمر السادس المنعقد في ٣٠ من المحرم سنة ١٣٩١هـ على ضرورة الاعتماد على الرسم العثماني للمصحف الشريف حفظا له من التحريف، وكذا أصدرت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية قرارًا بتاريخ ٢١/ ١٠/ ١٣٩٩هـ ينص على أن يبقى رسم المصحف على ما كان بالرسم العثماني ولا ينبغي تغييره ليوافق قواعد الإملاء الحديثة ، محافظة على كتاب الله من التحريف ، وإتباعا لما كان عليه الصحابة وأئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين، وكذا أصدر مجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، قرارا بتأييد قرار هيئة كبار العلماء بالمملكة بوجوب الالتزام برسم المصحف ونشر في المجلة الصادرة عن المجمع، العدد الرابع، ص٤٦٥.

(١) إجماع الصَّحابة ﷺ، ثـمَّ إجماع التابعين بعد ذلك وتابعي التَّابعين، ولم ينقل عن أحدٍ منهُم إجازته مخالفة الرسم العثماني. قال مصعب بن سعد بن أبي وقاص: "أَدْرَكتُ النَّاس حِين شَقَّق عثمان المصاحف فأَعْجَبَهم ذلك، أو قال: لَمْ يعب ذلك أحدٌ."[١] كما اتفقت المذاهب الأربعة على منع مخالفة رسم المصاحف العثمانية [٢]. وقد سُئِل مالك رحمه الله: "هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى"[٣]. قال السخاوي: "والذي ذهب إليه مالك هو الحق، إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن يعلمها الآخر، وفي خلاف ذلك تجهيل الناس بأوليتهم."[٤].

وقال أبو عمرو الداني: "ولا مُخالف له -أي مالك- في ذلك من علماء الأمة."[٥]

وقال الجعبري معقبًا على قول مالك أيضا: " وهذا مذهب الأئمة

(١) انظر: فضائل القرآن لأبي عبيد: ص١٥٦، والمقنع: ص١٦٠.

(٢) انظر: جامع البيان: (١/ ٣٣٠)، والمقنع: ص١٦٥، والبرهان في علوم القرآن: (١/ ٣٧٩)، والنشر: (٢/ ١٢٨)، ومناهل العرفان: (١/ ٣٧٩)، والفتح الرباني: ص٥٩، ودراسات في علوم القرآن: ص٣٧٢.

(٣) انظر المقنع : ص ١٦٤، والوسيلة : ص٧٩.

(٤) الوسيلة: ص١١٦.

(٥) المقنع: ١٩

الأربعة، وخص مالكًا، لأنه حكى فتياه."[١] وقال الطبري: "ليس لأحدٍ خلاف رسوم مصاحف المسلمين."[٢]

وقال البيهقي: "من كتب مصحفًا ينبغي أن يُحافظ على الهجاء الذي كتبوا به المصاحف ولا يُخالفهم فيها، ولا يُغيِّر مما كتبوه شيئا، فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا، وأعظم أمانة، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدركا عليهم، ولا سقطا لهم."[٣]

(٢) للالتزام الرسم العثماني فوائد، من أهمها:

أ- حمل الناس على تلقي القرآن الكريم من أفواه المشايخ والقراء، مع ما في التلقي من التوثق من ألفاظ القرآن الكريم وطرق أدائه، بالإضافة إلى اتصال السند برسول الله ﷺ الذي هو خصيصة اختصت بها الأمة الإسلامية على سائر الأمم.

ب- احتمال الرسم العثماني لوجوه القراءات المتواترة، ولذا كان اشتراط أئمة القراء لقبول موافقة الرسم العثماني.

القول الثاني: جواز كتابة المصاحف بالرسم الإملائي حسب ما تقتضيه قواعد أهل صناعة الخط ، فلا يجب على الأمة الالتزام بالرسم العثماني، وممن ذهب إلى هذا القول الباقلاني و ابن خلدون، والشوكاني، وبعض المعاصرين، وهو ظاهر كلام ابن تيمية.[٤]

(١) جميلة أرباب المراصد: (١/ ٢٦٥).

(٢) جامع البيان: (١/ ٣٣٠).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي: (٢/ ٥٤٨).

(٤) انظر: الانتصار للقرآن: (٢/ ١٤٨)، ومقدمة ابن خلدون: (٢/ ٩٦٥)، ومجموع =

من أدلة هذا القول:

(١) أن رسم المصاحف اصطلاح واجتهاد من الصحابة ﷺ، يجوز عليه الخطأ والصواب ، ولم يرد دليل شرعي يوجب كتابة المصحف برسم معين ، فلذا لا يلزمنا إتباع هذا الرسم والاقتداء به.

(٢) التيسير على العامة ولاسيما الناشئة في قراءة القرآن الكريم، ورفع الحرج عنهم، فالرسم العثماني قد يُوقِع الناس في الخلط والالتباس فتشق عليهم القراءة الصحيحة، ففي رسم المصاحف برسم الإملاء الحديث تسهيل عليهم .

وقد بالغ ابن خلدون فزعم أن رسم الصحابة ﷺ للمصاحف غير مستحكم الإجادة، لمخالفة كثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط، حيث قال: "كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوحش لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها. ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ، كما يقتفى لهذا

= الفتاوى: (١٣/ ٤٢١)، وفتح القدير: (١/ ٢٩٥)، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ص٢٨٠.

العهد خط ولي أو عالم تبركا ، ويتبع رسمه خطأ أو صوابا. وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ، فاتبع ذلك وأثبت رسما، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه. ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم أصول الرسم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في ﴿لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾ إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط. وحسبوا أن الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه ، وذلك ليس بصحيح. واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية"(١).أ.هـ

<u>**القول الثالث**</u>: التفصيل في المسألة، واختلف المفصلون في كيفية هذا

---

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون: (٢/ ٩٦٦)، وانظر: البرهان: (١/ ٤٦٠)، ومناهل العرفان: (١/ ٣٧٧)، وتاريخ القرآن: ص١٠١، والمدخل: ص٣١٨، والجمع الصوتي: ص٢٩١. وكلام ابن خلدون –رحمه الله– فيه جرأة ومغالطة فكيف يقاس خط الصحابة ﷺ المتقدم على قواعد الخط الإملائي المحدث ؟. أضف إلى ذلك أن قواعد الرسم الإملائي التي يحتكم إليها المتأخرون لم تراع فيها الموافقة التامة بين المكتوب والمنطوق، كما أن واضعوها لم يتفقوا عليها، فهي عرضة للتغيير والتبديل والتطوير وإن فصّلت وبوبت. انظر: مختصر التبيين: (١/ ١٣٣).

التفصيل ، فذهب الزركشي [(١)]، وتبعه بعض المعاصرين منهم أحمد مصطفى المراغي، و صبحي الصالح، و محمد الصّباغ إلى جواز رسم المصحف لعامة الناس بما يحدثونه من أنواع الهجاء، وما يصطلحون عليه من قواعد الإملاء، للتيسير على العامة في قراءة القرآن ، مع الإبقاء على الرسم العثماني في أمهات المصاحف، والمحافظة عليه للعلماء والخاصة، ولتكون مرجعا عند الحاجة إليها[(٢)] .

وذهب محمد أبو شهبة، و عبد القيوم أبو طاهر إلى جواز كتابة القرآن بالرسم الإملائي في غير المصاحف كالمجلات والصحف والأجزاء وغيرها، وكتابته بالرسم العثماني في المصاحف الكاملة.[(٣)]

---

(١) انظر: البرهان: (١/ ٣٧٩). ونُسب هذا القول للعز بن عبد السلام، والظاهر أن مذهبه هو: لزوم كتابة المصاحف بالرسم الإملائي، حيث قال:"لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى باصطلاح الأئمة لئلا يوقع في تغيير من الجهَّال" وقد وقع لبس في فهم مذهبه حيث خلط بعض الباحثين بين كلامه وبين تعقيب الزَّركشي عليه. انظر: رسم المصحف دراسة لغوية تأريخية: ص٢٠٠، وعلوم القرآن بين البرهان والإتقان لحازم سعيد حيدر: ص١٤١، ودراسة ترجيحات الزركشي في علوم القرآن لغانم الغانم: ص٣٠٠.

(٢) انظر: تفسير المراغي: (١/ ١٥)، ولمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير للصباغ: ص٩٣، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ص٢٨٠، وتاريخ القرآن: ص١٣٩.

(٣) انظر: المدخل: ص٣٢٢،، وصفحات في علوم القراءات لعبد القيوم أبو طاهر: ص١٢٨.

المبحث الثالث: نشأة القول بإعجاز الرسم القرآني:

بين مسألة القول بإعجاز الرسم القرآني والقول بأن رسم القرآن الكريم كان توقيفيًا بوحي تلازم نسبي، إذ يلزم من القول بإعجاز الرسم القرآني القولُ بأن رسم القرآن توقيفي بوحي، ولا عكس، فلا يلزم من القول بأن الرسم القرآني توقيفي بوحي القول بإعجازه فليس كل وحي معجز[١].

وهذه المسألة – أعني القول بإعجاز الرسم القرآني – مسألة محدثة لم أجد التصريح بنسبتها إلى عالم من العلماء – حسب اطلاعي – قبل الدباغ[٢] إلا ما نقل صاحب نثر المرجان عن صاحب الخزانة أنه نسب للكسائي قوله: "في خط المصحف عجائب وغرائب تحيّرت فيها عقول العقلاء، وعجزت عنها أراء الرجال البلغاء . وكما أن لفظ القرآن معجز فكذلك رسمه خارج عن طوق البشر"[٣].

ولعل بداية هذا الأمر كانت من ابن البنا المراكشي الذي فسر ظواهر الرسم القرآني المخالفة لقواعد الرسم الإملائي تفسيرًا إشاريًا صوفيًا.[٤] يقول خالد فهمي: "لقد كانت مباحث رسم المصحف في تاريخ العناية به

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١١/ ٣١١).

(٢) سبق نقل قول الدباغ في مبحث القول بتوقيف الرسم العثماني.

(٣) نثر المرجان: (١/ ١٢) . وانظر: رسم المصحف "دراسة لغوية تأريخة": ص٢٠٣. وإن لم يكن الكسائي هو علي بن حمزة الأسدي إمام أهل الكوفة فلا أدري من هو.

(٤) انظر: عنوان الدليل: ص ٣٢ وما بعدها، ورسم المصحف "دراسة لغوية تأريخية":ص٢٢٨-٢٣١.

تهدف إلى نوع من حفظ ما ورد في المصاحف القديمة على اعتبار أن الفتوى الثابتة المستقرة تقضي بوجوب التزام الرسم العثماني عبر العصور خلافا للعز بن عبد السلام فيما روي عنه . ولعل السر وراء ذلك الإجماع كامن في إغلاق الأبواب التي يمكن أن تفضي إلى تحريف الكتاب العزيز. على أن ثمة تطورا مهما أصاب هذا العلم وتوسع فيه أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي في كتابه "عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل". وخطورة هذا الكتاب أنه صنع اتجاها كاملا ، صارت له الغلبة والجلبة فيما بعد ، يفسر اختلافات الرسم العثماني في الكلمات تفسيرا يعكس الإيمان بإعجاز رسم المصحف ، وهو تطوير واسع المدى للاتجاه القائل بتوقيف الرسم المصحفي ، ومن لوازمه المفرطة في التأويل ... وكان أساس هذه المحاولة هو تفسير ظواهر الرسم على أساس اختلاف معاني الكلمات حسب السياقات بأسلوب صوفي باطني."[1]أ.هـ.

وقد ساعدت الهجمة على الرسم العثماني، والمطالبة بكتابة القرآن وفق قواعد الرسم الإملائي الاصطلاحي في ترسيخ القول بإعجاز الرسم القرآني . يقول المطعني : "بعد هذه الأشواط الطويلة (خمس وعشرون

(١) الإعجاز في رسم المصحف بين القبول والرفض، مقال خالد فهمي نشر في مجلة الوعي الإسلامي الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت العدد (٥٣٢) بتاريخ:٣/ ٩/ ٢٠١٠م. وقد نقل قول المراكشي كثير ممن أتى بعده، كالزركشي في البرهان: (١/ ٣٨٠)، والسيوطي في الإتقان: (١/ ١٦٨)، والقسطلاني في لطائف الإشارات: (١/ ٢٨٥)، وابن عقيلة المكي في الزيادة والإحسان: (٢/ ٤٤٥)، كما استفاد منه كثير من المعاصرين في توجيه مخالفات رسم المصاحف.

مقالـة) التـي سرناهـا مـع لطـائف وأسرار خـصوصيات الرسـم العـثماني للمصحف الشريف نشعر ... أنَّنا سددنا الطريق أمام الـدعوة بإعـادة كتابـة المصحف الشريف على منهج الخط الإملائي الحديث بحجة واهية ذكروهـا هـي أن هـذه الخـصوصيات تخلـو مـن الدلالـة وأنهـا لا معنـى لهـا . سـددنا الطريق أمام هذه السخيفة وكشفنا ما تنطوي عليه من غفلة وجهل"[١] أ.هـ.

(١) مجلـة منـبر الإسـلام: ص١٨، العـدد الأول الـصادر في محـرم سـنة ١٤٢٤ه، مـارس ٢٠٠٣م،وانظر: الجلال والجمال في رسم الكلمة في القرآن الكريم لسامح القليني: ص (هـ) .

الفصل الثاني:

مذاهب العلماء والدارسين في إعجاز الرسم القرآني،

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : المثبتون لإعجاز الرسم القرآني وأدلتهم

المبحث الثاني : النافون لإعجاز الرسم القرآني و أدلتهم.

المبحث الثالث : الترجيح بين الأقوال .

المبحث الأول :

المثبتون لإعجاز الرسم القرآني وأدلتهم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : المثبتون لإعجاز الرسم القرآني ومؤلفاتهم .

المطلب الثاني : أدلة المثبتين لإعجاز الرسم القرآني .

المطلب الثالث : نماذج من التطبيقات على إعجاز الرسم القرآني .

المبحث الأول : المثبتون لإعجاز الرسم القرآني وأدلتهم:

تمهيد:

الإعجاز مصدر من العَجْز وفِعْله أَعْجَزَ ، والعَجْزُ في اللغة الضَّعْف، يقال: عَجَزَ عن الشيء يَعْجَز عَجْزًا ، فهو عاجز ، أي ضعيف، والعَجْز نقيض الحزم ، والتَّعْجِز هو التشبيط.

وأَعْجَزَنِي فلان، إذا عَجَزْت عن طلبه وإدراكه، والإعجاز: الفوت والسبق.

والمُعْجِزة : اسم فاعل من العجز، وزيدت هاء التأنيث للمبالغة كما في "نَسَّابَة، وسَمَّاعة".

ويأتي العَجْزُ بمعنى: مُؤَخِر الشيء ، والجمع أَعْجَاز ، عَجْزُ الأمر ، وأَعْجَاز الأمور أواخرها[1].

والإعجاز في الاصطلاح :

تعددت تعاريف العلماء في معنى الإعجاز في الاصطلاح، فعرَّفه الفيروزآبادي بأنه: زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير[2].

وعرَّفه الجرجاني بأنه: ما يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق[3].

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة: (٤/ ٢٣٢)، لسان العرب: (٢/ ٦٩١) مادة: "ع.ج.ز"

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي: (١/ ٦٥).

(٣) انظر: التعريفات للجرجاني: ص٤٧.

وعرَّفه الزرقاني بقوله: "مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير : إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به"أ.هـ.(١).

ولم يستعمل مصطلح "الإعجاز" في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية ، بل أول استخدام لهذا المصطلح كان في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث(٢).

ويحسن التنبيه لأمرين مهمين:

الأول: الإعجاز ليس مقصودًا لذاته بل المقصود لازمه وهو إثبات صدق محمد ﷺ، وأنّ القرآن من عند الله تبارك وتعالى.

الثاني: أن هناك من فرق بين الإعجاز وأدلة صدق النبوة . يقول محمود شاكر:" إثبات دليل النبوة ، وتصديق دليل الوحي ، وأن القرآن من عند الله، لا يكون شيء منها يدل على أن القرآن معجز ، ولا أظن أن قائلاً يستطيع أن يقول إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة ، بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن ، من أجل أنها كتب منزلة من عند الله ، ومن البيّن أن العرب قد طُولِبُوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله ، ودليل

(١) مناهل العرفان: (٢/ ٣٣١)

(٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم: ص ٤٥، وتطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية لعمر الملا حويش : ص٢٠٢، وإعجاز القرآن بين الإمام السيوطي والعلماء لمحمد حسن موسى: ص٦٩ وما بعدها.

صدق الوحي الذي يأتيه ، بمجرد سماع القرآن نفسه ، لا بما يجادلهم به ؛ فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن ."[1] أ.هـ.

(١) فصل في إعجاز القرآن لمحمود محمد شاكر مقدمة لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: ص١٧-١٨. وانظر: مناهل العرفان: (١/ ٣٣١)، والمعجزة الكبرى لأبي زهرة: ص٩٠-٩١، وأبحاث في علوم القرآن: ص٢٤٤ وما بعدها.

المطلب الأول : المثبتون لإعجاز الرسم القرآني ومؤلفاتهم :

إثارة موضوع إعجاز الرسم القرآني كانت متأخرة جدًا، ولعل أشهر- إن لم يكن أول - من صرح بإعجاز الرسم عبد العزيز الدبّاغ (ت:١١٣١هـ) فيما نقله عنه تلميذه أحمد بن المبارك السجلماني من جوابه حين سأله عن رسم المصاحف فقال:"ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو بتوقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الأحرف ونقصانها ، لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وما كانت العرب في جاهليتها ولا أهل الإيمان من سائر الأمم في أديانهم يعرفون ذلك، ولا يهتدون بعقولهم إلى شيء منه ، وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، فلا يوجد شبه ذلك الرسم لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في غيرهما من الكتب السماوية ، وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز ، وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في «مائة» دون «فئة» وإلى سر زيادة الياء في «بأييد» في قوله تعالى:﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ [الذاريات:٤٧]؟. أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في «سعوا» من قوله تعالى في الحج:﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ ، وعدم زيادتها في سبأ من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ وإلى سر زيادتها في في قوله تعالى:﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾[الأعراف: ٧٧]، وحذفها

من قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]وإلى سر زيادتها في قوله تعالى:﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وإسقاطها من قوله تعالى:﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩] ... إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر وكل ذلك لأسرار إلهية ، وأغراض نبوية ، وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الرباني ، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطعة في أوائل السور ، فلها أسرارا عظيمة ومعاني كثيرة ... وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها ولا يدركون شيئا من المعاني الإلهية التي أشير إليها حتى ظن جماعة من الناس أنها أسماء للسور، وظنت جماعة أخرى أنها أشير بها إلى أعدد معلومة، وظنت جماعة أخرى أنها من الحروف المهملة التي ليس وراءها معان، وكلهم حجبوا الإطلاع على المعاني الباهرة العجيبة التي فيها، فكذا أمر الرسم الذي في القرآن حرفا بحرف."(١)

ونقل عنه أيضا قوله : "من فتح الله عليه ونظر في أشكال الرسم التي في ألواح القرآن ثم نظر في أشكال الكتابة التي في اللوح المحفوظ، وجد بينهما تشابها كثيرا، وعاين زيادة الألف في اللوح المحفوظ في (كفروا) و (آمنوا) وغير ذلك مما سبق، وعلم أسرارا في ذلك كله، وعلم أن تلك الأسرار من وراء العقول . قلت-أي ابن المبارك-: وقد سمعت من شيخنا رضي الله عنه وهو من الأميين أسرارا جميع ما سبق في (كفروا) و (مائة)

(١) انظر: الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدَّباغ لأحمد السجلماني: ص٨٧-٨٨.

ونحوهما وقابلناه مع ما ذكره أئمة الرسم وفحوله فوجدنا الجدّ فيه والله فيما قال الشيخ نفعنا الله به ... وما قنعت عقولنا قط بما قاله أئمة الرسم مع أنهم إنما تكلموا على توجيه النزر القليل منه، وما زلنا نستشكل أمر الرسم ونسبته إلى الصحابة رضي الله عنهم، حتى طرح الشيخ رحمه الله عنا بكلامه هذا الإشكال فجزاه الله عنا أفضل الجزاء."[1] أ.هـ.

وجلّ من أتى بعد الدّباغ ويرى إعجاز الرسم العثماني ينقل قوله في إعجاز الرسم العثماني ويجعله شاهدًا في هذا الباب . وممن صرح بالقول بإعجاز الرسم القرآني بعد الدَّباغ:

١. محمد العاقب بن سيدي عبدالله بن مايابي اليوسفي الجكني (ت:١٣١٢هـ) في منظومته كشف العمى في رسم المصحف حيث يقول:

رَسْمُ القُرْآنِ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةْ   كَمَا نَحَا أَهْلُ المَنَاحِي الأَرْبَعَة
لِأَنَّهُ إِمَّا بِأَمْـرِ المُصْطَفَى   أَوْ بِاجْتِمَاعِ الرَّاشِدِينَ الخُلَفَا
وَكُلُّ مَنْ بَدَّلَ مِنْهُ حَرْفًا   بَاءَ بنارٍ أَوْ عَلَيْهَـا أَشْفَـى
والخَطُّ فِيهِ مُعْجِزٌ لِلنَّاسِ   وحَائِدٌ عَن مُقْتَضَى القِيَاسِ
لَا تَهْتَدِي لِسِرِّهِ الفُحُـولُ   ولَا تَحُومُ حَوْلَهُ العُقُولُ
قَدْ خَصَّهُ اللهُ بِتِلْكَ المَنْزِلَـةْ   دُونَ جَمِيع الكُتُبِ المنزَّلة
لِيَظْهَرَ الإِعْجَازُ في المَرْسُومِ   منْه كَمَا في لَفْظِهِ المَنْظُومِ

إلى أن قال:

---
(١) الإبريز : ص ٩٠.

فكُلُّ ذا لِعِلَّةٍ مُقَــدَّرَهْ   وحِكْمَةٍ عَــنِ الحِجَا مُخَدَّرَهْ
أَنْفَاسُهُ للنَّفسِ لا تَنَسَّمُ   وسِــرُّهُ عــنِ الوَرَى مُطَلْسَمُ
وقد تَكَلَّفَ شُيُوخُ الكَتَبَهْ   فَسَارعوا فيه لِنَحْتِ الأَجْوبهْ
فَذَكَروا من ذاك مَالا يُقْنِعُ   قَلْبًا ولا غِــلُّ غَلِيــلٍ يُنْقِعُ[(1)]

٢. محمد بن علي بن خلف الحُسَيني الشهير بالحدَّاد (ت:١٣٥٧هـ) في كتابه إرشاد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن.

٣. محمد حبيب الله بن عبد الله الشنقيطي (ت:١٣٦٢) في كتابه إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام عثمان بن عفان ﷺ حيث قال:"خط القرآن العظيم معجز لسائر الأنس والجن كنظم لفظه البليغ الواصل في بلاغته الطرف الأعلى من الإعجاز كما أشار له في طلعت الأنوار مجدد زمانه سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي بقوله:

فالطرف الأعلى من الإعجاز مما به القرآن ذو امتيازالخ فذلك الإعجاز متناول لرسمه أيضا كما يعطيه عموم ظاهر قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]"[(2)]أ.هـ.

٤. علي بن محمد الضَّبَاع (ت:١٣٨٠هـ) في كتابه سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين.

---

(١) انظر: كشف العَمى والرَّين عن نَاظِرِي مصحف ذي النُّورين لمحمد العاقب: ص ٤.
(٢) إيقاظ الأعلام: ص ٣٦.

٥. عبد العظيم المطعني (ت:١٤٢٩هـ) في سلسلة بعنوان:"خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف" نُشرت في مجلة منبر الإسلام الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

٦. علي جمعة محمد مفتي الديار المصرية في تقديمه لكتاب إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة لمحمد شملول حيث يقول: "ولأنه -أي القرآن الكريم- معجزة رسالة قبل أن يكون معجزة رسول فقد ظل يكتشف فيه كل جيل الغرائب والعجائب عبر القرون، تلك الغرائب التي لا يقدر عليها إلَّا علَّام الغيوب الذي هو سبحانه على كل شيء قدير، حتى قال الشيخ خلف الله الحسيني الشهير بالحداد وهو شيخ مشايخ القراء في الديار المصرية في عصره في كتاب الآيات البينات في حكم جمع القراءات: "إن القرآن معجز في رسمه كما أنه معجز في لفظه" وهذه الحقيقة تعرض لها قديما ابن البنا المراكشي في كناب الماتع (التبيان) والذي نشر منذ سنوات بتحقيق هند شلبي وهي أطروحة الدكتوراة لها، وفي هذا الكتاب حاول ابن البنا إيجاد علاقة بين رسم القرآن وبين معاني الألفاظ والآيات في سياقها وسباقها ودلالات ذلك، وكان عمله بداية لهذا الفن العجيب الذي يؤكد هذه المقولة التي قالها فيما بعد الشيخ الحداد، والتي تبناها كثير من العلماء بعد ذلك".[1] أ.هـ. .

٧. عاطف أمين قاسم المليجي في كتابه رسم القرآن المعجز بخصائصه

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة : ص٤-٥.

وظواهره وأسراره.

٨. عبد المنعم كامل شعير في كتابه الإعجاز القرآني في الرسم العثماني

٩. سامح القليني في كتابه الجلال والجمال في رسم الكلمة في القرآن .

١٠. محمد سامر النّص في كتابه رسم القرآن معجز كلفظه ولا يمكن تغييره.

١١. محمد شملول في كتابه إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة حيث يقول: "الكلمة القرآنية معجزة في كتابتها، ومعجزة في ترتيلها، ومعجزة في بيانها . إعجاز الكتابة يظهر في تغير مبنى بعض الكلمات القرآنية في الآيات المختلفة سواء بزيادة حروفها أو نقصها - نطقت هذه الحروف أو لم تنطق - لتعطي آفاقًا جديدة للمعاني لم يكن من الممكن إدراكها لو لم يكن هناك تغيير عن الشكل المعتاد للكلمة."[(١)] أ.هـ.

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة : ص٨

المطلب الثاني : أدلة المثبتين لإعجاز الرسم القرآني :

ينبني القول بإعجاز الرسم العثماني على القول بأن الرسم العثماني توقيفي، ولذا استند المثبتون لإعجاز القرآن على أدلة القائلين بأن الرسم العثماني توقيفي[1]، بل بالغ بعضهم في ذلك فرأى أن الرسم معجز وإن كان باجتهاد من الصحابة ﷺ . وإجماع الصحابة على هذا المنهج في كتابة القرآن الكريم بمثابة الوحي من الله تعالى . يقول سامح القليني: "أرى أن أقل ما يقال في ذلك أنه توقيفي عن الصحابة (اثني عشر ألف صحابي) ﷺ، وأنهم أجمعوا على ذلك الرسم، ويكون ذلك - على أقل تقدير- بمثابة وحي من الله لهم لحفظ أعظم كتاب في الوجود برسمه وحروفه كما هو محتويا على أسرار في رسمه ستظل شغل العلماء إلى أن تقوم الساعة مثله مثل باقي أنواع ونواحي الإعجاز الأخرى، وهذا تصديقا لقوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] . ويكون إلهام للصحابة أو وحي من الله لهم بذلك كما أوحى للحواريين في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ [المائدة: ١١١] وهذا التوقيف من الصحابة - على أقل تقدير- لا يقلِّل من شأن هذا الإعجاز كما يتخيل ذلك البعض، ولكنه كما يقول العلامة عبد الله دراز في موقف مشابه وقضية مشابهة وهي ترتيب سور القرآن، وكان نفس التساؤل، وقد كان يرى ترتيب السور كما هو في

(١) انظر: مبحث القول بتوقيف الرسم العثماني.

المصحف الشريف لدينا هو كما رتبها الله تعالى وليس توقيفي على الصحابة، ولكنه قال بعد ذلك قاطعا للجدل: "ونعود الآن فنفرض جدلا أن ترتيب السور لو لم يكن توقيفي إلهي، ولا بتوقيف نبوي، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم ألا يكفينا في حرمته وقداسته أنه استقر عليه إجماعهم وإجماع المسلمين بعدهم." وهذا الكلام نردده أيضا لهؤلاء الذين ينكرون خصوصية الرسم القرآني، والذي هو على أقل تقدير توقيف من الصحابة وأجمع عليه جمهورهم."[1]أ.هـ.

ويقول المطعني:"هذه الخصوصيات وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم هو الإعجاز الخطي في رسم الكلمات . إنه منهج مبتكر في رسم المصحف لا وجود له إلا فيه . هدى الله إليه كتبة الوحي في حياة النبي ﷺ حين كان القرآن ينزل، لأن هذا الرسم مأخوذ عن الوثائق النبوية التي كانت محفوظة في بيته يوم انتقل إلى الرفيق الأعلى، وهي التي نسخها عثمان بن عفان ﷺ في المصحف الإمام، وعنه صدرت كل المصاحف."[2]أ.هـ.

كما احتج القائلون بإعجاز الرسم أيضا:

١- بالقول المنسوب لعبد العزيز الدباغ الذي نقله عنه تلميذه ابن المبارك في كتابه الإبريز، فمعظم من يرى أن الرسم معجز ينقل قوله

(١) الجلال والجمال في رسم الكلمة في القرآن الكريم: ص: (م-ن).

(٢) من مقال مسلسل بعنوان:"خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف" نُشرت في مجلة منبر الإسلام الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة: ص١٥، العدد السادس الصادر في جمادى الآخر سنة(١٤٢٣هـ).

في ذلك ويحتج به. يقول الضباع: "يشهد لكونه من إملائه ﷺ ما ذكره صاحب الإبريز عن شيخه العارف بالله سيدي عبد العزيز الدباغ أنه قال:" رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة، وكمال الرفعة، وهو صادر من النبي ﷺ ... وهو سر من الأسرار خصّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه معجز أيضا."""(١)أ.هـ.

٢- ظواهر الرسم العثماني المخالفة لقواعد الرسم الاصطلاحي بدعوى أنَّا مأمورون بالتدبر في الظواهر الكونية والقرآنية . يقول عبد الكريم إبراهيم عوض: "نتساءل كما يتساءل غيرنا من الباحثين المنصفين لماذا لا نفتش عن الحكمة بقدر طاقتنا البشرية، وبالوسائل المتاحة لنا؟. ألسنا قد أمرنا بالتدبر والنظر في كل ما يقع أمامنا من الظواهر الكونية؟ أَوَ لسنا مطالبين كذلك أن نسعى جادين في تحقيق المسائل العلمية مما لها أوثق الصلات بالرسم وأعظم التعلق بكتاب الله تعالي وذلك كظاهرة الرسم العثماني؟. فعسانا أن نجد فيها سرا من أسرار هذا الكتاب المجيد ونعثر علي ضرب آخر من أضرب إعجازه البياني الذي هو من أعظم الوسائل إظهار خصائص البلاغة القرآنية وكما يقولون :" الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق بها.""(٢)أ.هـ.

---

(١) سمير الطالبين: ص١٨، وانظر: مناهل العرفان: (١/ ٣٨٩).

(٢) المتحف في رسم المصحف لعبد الكريم إبراهيم صالح : ص ٨٥.

٣- اختلاف رسم القرآن الكريم عما كان يُرسم في غير القرآن، كرسائل الرسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء، وكرسم أسماء السور. يقول محمد شملول: "إن خير ما نستدل به على كتابة القرآن الكريم ورسمه هي كتابة فريدة خاصة بالقرآن الكريم وحده هو ما لاحظناه في قراءتنا لرسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والعظماء التي بأيدينا، فإن رسم الكلمات في هذه الرسائل هو الرسم العادي ولا يشبه الرسم الذي اختصت به كلمات القرآن الكريم، خاصة وأن هذه الرسائل كتبت في نفس الفترة التي كان ينزل فيها القرآن، ويكتبه كتبة الوحي بإملاء من الرسول ﷺ ... وهذا يدل على أن الكتابة المعتادة خلال فترة نزول القرآن الكريم وكتابته لم تكن هي الكتابة الفريدة التي اختص الله بها القرآن الكريم، وأن هذه الكتابة الفريدة جاءت لأغراض سامية ومعاني جليلة، بحيث تعطي للكلمة القرآنية معاني عميقة ومتجددة كل حين بإذن الله وحتى قيام الساعة."[(١)] أ.هـ.

---

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص٥٢-٥٣.

المطلب الثالث : نماذج من التطبيقات على إعجاز الرسم القرآني:

سلك القائلون بإعجاز الرسم العثماني مسلكين في توجيه مخالفة الرسم القرآني لأصول الرسم القياسي:

الأول: التوجيه القائم على تعليل مخالفات الرسم العثماني بتعليلات بلاغية، ودقائق ولطائف تفيد المعنى .

الثاني: التوجيه القائم على التفسير الإشاري . وذلك بتفسير مخالفات الرسم العثماني على أنها رموز باطنية تدل على أمور معنوية وغيبية، والإعجاز يكمن في دلالتها على تلك الرموز . يقول محمد شملول: "لقد جاء تغير مبنى الكلمة ليوحي بالمعاني المتجددة للكلمة في كل عصر بما يتوافق مع معطيات هذا العصر وبما يفيض الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين من فهم وعلم في كل العصور لكي تظل عجائب القرآن الكريم ومعجزاته متجددة فلا تنقضي عجائب القرآن إلى يوم الدين."(١)أ.هـ.

ويقول عبد المنعم شعير:" كل ألف تكون في كلمة تدل على أن هذه الكلمة تعبر عن شيء موجود ، فإذا حذف الألف فالكلمة تدل على معنى باطن أو صفة حالية أو أمور علوية مما لا يدركه الحس ، وإذا ثبتت الألف فالكلمة تدل على معنى ظاهر أو صفة حقيقية في العلم وأمور سفلية."(٢)أ.هـ.

---

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص٥٦.

(٢) الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص٢٥.

بل تجاوز الأمر إلى وضع بعض من يقول بإعجاز الرسم القرآني جدولًا بمعاني استعمالات الحروف الهجائية، فجعلوا لكل حرف معنى وفسروا زيادته أو حذفه في الرسم بناء على هذا المعنى(١).

وسأورد بعض النماذج من التطبيقات على إعجاز الرسم القرآني مرتبة على قواعد الرسم العثماني:

أولًا: قاعدة الحذف :

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]

حذفت الياء الدالة على المتكلم المضمر المنصوب في الفعلين ﴿ أَتُمِدُّونَنِ ﴾ و ﴿ ءَاتَىٰنِۦَ ﴾ لغير علة نحوية أو صرفية(٢).

وقد وجه القائلون بالإعجاز الرسمي حذف الياء في الموضعين بتوجيهات منها ما قاله سامح القليني: "حذف الياء في هذه الآية في موضعين الأول (أتمدونن) والثاني (ءاتان). وظاهر أن حذف الياء في الموضعين لم يكن لعلة صرفية ولا لعلة نحوية، بل هو رمز لمعنى يدل عليه، وفي كلا الموضعين كان "الياء" ضميرا مفعولا به للفعل قبله . والمعنى الذي يرمز إليه بحذف الياء في قوله تعالى: حكاية سليمان عليه السلام: (أتمدونن)

(١) انظر: سر المقطوع والموصول والتاءات التي بسطت في الرسم القرآني لعبد المجيد العرابلي: ص٢١٦.

(٢) انظر: المقنع: ص٣٠٩، ٣١٠، ومختصر التبيين: (٤/ ٩٤٩-٩٥٠)، ودليل الحيران: ص١٩٠، ١٩١.

الإشارة إلى ما كان يدور في باطن سليمان ﷺ من استبعاد نفسه عن زمرة من يرتشي بالمال بدليل الاستفهام في الآية إنكاري توبيخي شديد الإنكار (أقول : وكأنه استغرب منه ودهشة تجعله يخطف في نطق الكلام).

أما حذف الياء في الموضع الثاني (ءاتان) فإن هذا الحذف رمز به للتفرقة بين ما أتى الله رسوله سليمان ﷺ وبين ما آتاه الله ملكة سبأ، فالذي آتاه الله سليمان هو الحكم والكتاب والنبوة، والذي آتاه الله ملكة سبأ هو المال والسلطان الدنيوي . فعطاء الله سليمان في الفضل في الذروة العليا باق إلى العلو والرفعة في درجات الآخرة.

وأقول: لنا أن نقول أنه عطاء ملكوتي علوي، وعطاء الله ملكة سبأ سلطان زائل ومال نافذ لا بقاء له . وتبعته في الآخرة ثقيلة والحساب فيه عسير (عطاء مادي سفلي) هذا ما دلَّ عليه نقص الياء في (ءاتان)"[1] أ.هـ.

ويقول محمد شملول:"جاء قول سليمان ﷺ ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ وذلك بحذف ياء المتكلم من الفعل الأصلي وهو (تمدونني) موحيًا بأن ملكة سبأ قد أسرعت بإرسال هدية المال إلى سليمان ﷺ خوفًا من بطشه حيث قالت لقومها: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل: ٣٤] كذلك جاء قول سليمان ﷺ ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ ﴾ وذلك بحذف ياء المتكلم من الفعل الأصلي (آتاني) موحيا بسرعة عطاء الله

(١) الجلال والجمال في رسم الكلمة: ص١٠٩. وانظر: الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص٥٣ وما بعدها .

سبحانه وتعالى له من خير . وهنا لفتة لطيفة وهي وضع ياء ملحقة بالفعل (آتاني) لغرض التلاوة وليست بقصد رسم الكلمة دليل على إعجاز التلاوة إلى جانب إعجاز الكتابة، حيث يدل رسم كلمة (آتاني) بدون ياء على السرعة. ويوحي تلاوة كلمة (آتاني) بالياء على الخير الكثير."[1] أ.هـ.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]

رسمت كلمة (اخشون) بحذف الياء الدالة على المتكلم المضمر المنصوب لغير علة نحوية أو صرفية[2]. يقول عبد المنعم شعير في توجيه حذف الياء في الفعل (اخشون) : "﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ لا يدل على أناس بأعيانهم ولا موصوفين بصفة فهم كل الناس، فالخشية هنا كلية لشيء غير معلوم الحقيقة فوجب أن يكون الله أحق بذلك فإنه حق -وإن لم نحط به علما – كما أمر الله سبحانه ولا نخشى غيره، لأنه توهم كاذب .. فهذا الحرف على غير حال ما في البقرة قال تعالى فيها: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ [البقرة: ١٥٠] ضمير الجمع يعود على الذين ظلموا من الناس فهو بعض لا كل، ظهروا في الملك بالظلم فالخشية هنا جزئية فأمر الله سبحانه أن يخشى من جهة ما ظهر كما يجب ذلك أيضا من جهة ما ستر فإنه سبحانه عزيز ذو انتقام."[3] أ.هـ.

---

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص١٢٦.

(٢) انظر: المقنع:ص٣٠١، ودليل الحيران: ص١٨٧.

(٣) الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص ٦٣.

ثانيًا: قاعدة الزيادة :

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

يقول المطعني:"من الآيات اللآفتة للنظر في الحذف والإثبات قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فقد أثبتت الألف في (الطوفان) و (الجراد)، وحذف في (الضفادع) و(آيت مفصلت). وجريا على القواعد التي ذكرت مع تطبيقاتها من قبل يمكن أن يدرك أن الألف في الطوفان والجراد لأنهما كائنان ماديان حسيان لهم وجود ظاهر في علم المحسوسات، فالطوفان هو تدفق الماء مع ارتفاعه . والجراد حشرات طائرة، وقد تسير في أسراب تحجب ضوء الشمس. فثبت الألف رمز على ماديتها وحسيتها الظاهرة.

أما حذف الألف في (الضفادع) وإن كانت كائنات مادية حسية فليس له ظهور حسي كالطوفان والجراد، لأنها تعيش في الماء ففيها نوع خفاء كما ترى، ولا يقدح في هذا الفهم الاحتجاج بقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾، لأن الألف أثبتت في (حيتانهم) وهي كائنات مائية من شأنها الخفاء أكثر من الضفادع، لأننا نقول

في الرد على هذا الاحتجاج: إن (حيتانهم) في هذه الآية لم تكن خافية في الماء، لأن الله أثبت لها صفتين قويتين في الظهور وهما: الإتيان المدلول عليه بـ(تأتيهم)، ثم قوله تعالى: ﴿شُرَّعًا﴾، لأن معناه ظاهرة على وجه الماء ... وحذف الألف في (مفصلت)، لأن التفصيل أمر معنوي في تدبير الله عز وجل، فهذا التفصيل غيبي من تقدير الله قبل أن يروه واقعا في حياتهم."أ.هـ.

ويعقب القليني على كلام المطعني بقوله:"أنه من العجيب والمدهش أن هناك رسمان لـ(الضفادع والجراد) مرة بالألف وبدون الألف مرة أخرى في بعض المصاحف، مما أثار ثائرة هؤلاء المنكرين لإعجاز الرسم العثماني . والحقيقة أن توجيه هذين الرسمين لا يحتاج إلى هذه المعضلة، فإذا نُظر إلى هيئتها الظاهرية – المادية الملموسة– وما تفعله في علم المادة والمشاهدة تظهر فيها الألف، وإذا نظرنا غرابتها في مكانها وفعلها – على أنه آية عجيبة – نقصت وأخفيت منها الألف . وهذا ما يوجهون بمثله القراءات المختلفة في علم القراءات[1] ولا يجدون في ذلك أدنى حرج."[2]أ.هـ.

<u>المثال الثاني:</u> قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣]

---

(١) لا يخفى وجود الفارق بين توجيه القراءات المتعددة، وتوجيه خلاف المصاحف، فتوجيهات الرسم دقائق ولطائف لا دليل عليها بعكس توجيه القراءات.

(٢) انظر: الجلال والجمال: ص٢٣٤ –وما بعدها. ولم أجد من أشار إلى خلاف المصاحف في رسم كلمة (الضفادع) و (الجراد).

رسمت كلمة ﴿ لِشَاْىْءٍ ﴾ بزيادة ألف بين الشين والياء في موضع الكهف خاصة[١]، وقد وجهة هذه الزيادة بتوجيهات منها ما قاله عبد المنعم شعير: "وردت كلمة (شيء) بالخط الإملائي العادي كثيرا في القرآن إلا كلمة واحدة في سورة الكهف، وهي خاصة بالرسول ﷺ وبعده بقية المؤمنين . الشيء هنا معدوم، وإنما علمناه من تصور مثله الذي قد وقع في الوجود، فنُقل له الاسم منه، وهو في الحقيقة غير موجود - فهو موجود في الأذهان حقا معدوم في الأعيان حقا - مثل (سأقابل عمر غدًا)، فـ(عمر) نعرفه في ذهننا، ولكنه في الوقت الحالي معدوم الوجود (الأعيان) فالشيء انقسم قسمان ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ . وهذا على خلاف حال الكلمة التي في النحل ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾، لأن الشيء هنا من جهة قول الله له (كن) لا نعلم كيف ذلك، فهو مخفي عنا، ونحن إنما نعلم الأشياء بوجودها لا بعلمنا، ولكن الله سبحانه يعلم الأشياء بعلمه لا بوجودها فهي لا تنقسم[٢]، فلا نشبه ولا

(١) زيادة الألف باتفاق الشيخين أبي عمرو الداني و أبي داود سليمان بن نجاح في موضع الكهف دون غيره، وقيل بل هي زائدة في كل القرآن. انظر: المقنع: ص٣٥٣، ومختصر التبيين: (٣/ ٨٠٥)، ودليل الحيران: ص٢٤٢، وسمير الطالبين: ص٥٣-٥٤.

(٢) لعله يشير إلى مذهب الأشاعرة في علم الله تعالى وتعلقه بالمستقبل، حيث يرون أن الله تعالى يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته ، ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة ، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم، وهذا بناء على نفيهم لحلول الحوادث، لأنه يلزم من ذلك التغير في ذات الله كما يرون . ومذهب أهل السنة والجماعة =

نعطل ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾"[1]أ.هـ.

ويقول محمد شملول:"ورد كلمة (شيء) بشكلها العادي ٢٠١ مرة في القرآن الكريم كله. ووردت كلمة (لشاىء) بشكلها غير العادي بألف زائدة مرة واحدة فقط في القرآن الكريم كله آية خاصة للرسول ﷺ بصفته أول المسلمين ومن بعده بقية المسلمين ... وفيها تنبيه لهذا الأمر العظيم أن مشيئة الله فوق كل مشيئة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]"[2]أ.هـ.

ثالثًا: قاعدة الهمزة :

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]

رسمت كلمة (علماء) في سورة الشعراء،و(العلماء) في سورة فاطر بواو بعد الميم صورة للهمزة المضمومة، وألف بعدها (علمؤا) و (العلمؤا)، من غير ألف قبلها. وقد اتفقت المصاحف على رسم موضع فاطر بهذه

= هو أن الله سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها ، ويعلمها بعلم آخر حين وجودها جلّ وعلا. انظر: جامع الرسائل لابن تيمية: (١/ ١٧٧)، ودرء تعارض النقل والعقل لابن تيمية: (١٠/ ١٧).

(١) الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص٨١-٨٢، وانظر: الجلال والجمال: ص١٩٦.

(٢) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة : ص١٣٨.

الصورة، وجاء الخلاف في موضع الشعراء، والعمل على رسم الواو صورة للهمز[١].

يقول القليني في توجيه رسمها بهذه الصورة:"في سورة الشعراء ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ المراد من علماء بني إسرائيل هم الذين آمنوا منهم بعد الهجرة، كعبد الله بن سلام لما عرفوه من الحق فيما أنزله الله إليهم، وهذا ثناء من الله عليهم، لأنهم جهروا بالحق لمبعوثي قريش إليهم. وزيادة الواو في (علماؤا)، والأصل (علماء) بهمزة مضمومة، لكن زيدت الواو رامزة إلى معنى لطيف هو تفخيم وتشريف وتكريم هؤلاء العلماء، لأنهم أعلنوا الحق الذي علموه، ولم يكتموه كما فعل الآخرون من أحبارهم، وكذلك قوله تعالى في سورة فاطر آية (٢٨) زيدت الواو في كلمة (العلماؤا)كما زيدت في (علماؤا بني اسرائيل) وسبب الزيادة في الموضعين واحد هو التعظيم والتفخيم والتكريم، وقد عرفنا جهة التفخيم في (علماؤا) أما جهة التفخيم في (العلماؤا) هنا فهي أن الله عز وجل حصر خشيته فيهم وقصرها عليهم قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا وخشية وشرف عظيم لمن يتصف بها وفضل ليس فوقه فضل.

فإن قال قائل: إن التعظيم والتفخيم في الموضعين مستفاد من المقام وقرائن الأحوال وليس من زيادة الواو، قلنا: إن في زيادة الواو لفتا قويا

(١) انظر: المقنع: ص٤١٣، ومختصر التبيين: (٤/ ١٠١٧أ٩٣٩)، ودليل الحيران: ص٢٢٣، وسمير الطالبين: ص٦٠.

للأذهان إلى هذا المعنى، لأن الشيء إذا جاء على خلاف الأصل كان باعثا على التأمل والبحث عن السر وراء هذه المخالفة أو الخصوصية فهي مثل النبر في الكلام ... ونقول إن هذا الرسم بهذه الصورة المخالفة يرد على سؤال آخر ربما يثار في الأذهان وهو: أنكم تقولون في قرآنكم ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ونحن في الواقع العملي المشاهد أمام أعيننا نجد الأوربيين وغيرهم لا يخشون الله وأيضا لا يعلمون صدق القرآن ولا يؤمنون به ؟.

فيكون الرد على هذا هو: الرجوع إلى رسم كلمة (علماؤا) هذه بهذه الصورة التي ترسم مَن هم العلماء المقصودون، فهم علماء ثقال، علماء دنيا وآخرة، مثل ابن سلام وغيره الذين ارتفعوا عن شهوات الدنيا،وليسوا هم علماء الدنيا فقط المألوفين لدينا، والتي تكتب صفتهم بالصورة المألوفة لدينا (علماء)، ولأجل هذا المعنى كان هذا الرسم العثماني على هذه الصورة."[(1)] أ.هـ.

ويقول عبد المنعم شعير:" ﴿ عُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فإن كان الألف قبل الهمز مثل (هباء، وجفاء) ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] فإنها لا تقوى إلا أن يكون في المعنى ما يقويها مثل ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧] قويت الهمزة تنبيها

(١) الجلال والجمال: ص٣٣-٣٤. وانظر: إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص١٥٧

على علو درجتهم في العلم وظهورهم في الوجود في أرفع طبقة المرجوع إليهم في جزئيات العلم وكلياته، ولذلك جعلهم الله آية . وقد وردت كلمة ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ في القرآن مرتان فقط لتدل على مكانة العلماء، وأنهم بعلمهم يعرفون الله حق المعرفة ويخشون عذابه.[(١)]"أ.هـ.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]

رسمت كلمة (أنباء) بواو بعد الباء صورة للهمزة المضمومة، وألف بعدها (أنبـؤا)، من غير ألف قبلها[(٢)].

يقول القليني في توجيه رسمها بهذه الصورة: "زيدت الواو في كلمة (أنبـؤا) في الرسم العثماني للمصحف الشريف، وكان الأصل أن ترسم هكذا (أنباءُ) بهمزة مضمومة، وقد اجتلبت هذه الزيادة لإفادة التهويل والتفظيع، ومقتضى هذا التهويل المبالغة في التهديد والتخويف، لأن الكلام مسوق في الحديث عن الكلام وأعرضوا عن الحق الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، فقد وصفهم القرآن في بدايات سورة الأنعام بأنهم يساوون بين الله وبين شركائهم، وأنهم ممترون شاكون في صدق الرسالة والرسول، ثم قال في سورة الأنعام: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ

(١) الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص ٩٩، وانظر: الجلال والجمال: ص٣٢.

(٢) انظر: المقنع ص٤١٢، ومختصر التبيين: (٣/ ٤٦٩)، وسمير الطالبين: ص٦٠.

يَأْتِيهِمْ أَنْبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾ تهديدا ووعيدا لهم إذا لم يرعووا عن غيهم وضلالهم، ومعلوم أن التهديد بالمصير الفظيع أبلغ في التأثير من الوعيد اليسير.

من أجل هذه زيدت الواو في (أنباء) وجاءت هذه الزيادة لافتة الأذهان لفتا قويا إلى فظاعة وهول ما تتضمنه هذه الأنباء من معان وأحداث يوم يجعل الولدان شيبا . وسدت هذه الزيادة مسد أن يقال: الأنباء الفظيعة آثارها المهولة أحداثها."[1] أ.هـ.

رابعًا: قاعدة البدل :

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]

رسمت الألف في كلمة ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ واوا حيث وقعت إذا كانت الكلمة معرفة بأل نحو: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الأنعام: ٧٢]، أو مضافة إلى اسم ظاهر نحو: ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [النور: ٥٨] باتفاق المصاحف . وورد الخلاف في رسم ألف (الصلاة) واوا إن أضيف إلى ضمير نحو: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١]، والعمل على رسمها بالألف . واستثني من ذلك أربع كلمات رسمت بالواو اتفاقا، وورد فيها اختلاف القراء ، وهي: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:

(١) الجلال والجمال: ص٣٦-٢٧، وانظر: إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص١٥٦.

١٠٣]، وقوله: ﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [التوبة: ٩٩]، وقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ ﴾ [هود: ٨٧]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩][(١)].

وقد وجه تصوير الألف واوا بتوجيهات منها ما قاله محمد شملول:

"وردت ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بهذا الشكل في جميع آيات القرآن الكريم وعددها ٦٧ مرة مختلفة عن الكتابة العادية، ويوحي رسم هذه الكلمة بأهمية الصلاة الشرعية، وبأنها عماد الدين، وأنها الصلة بين العبد وخالقه، لذلك جاء رسمها ملفتا للنظر مثل ما أنك وضعت حولها دائرة أو تحتها خطًا لتميزها عن باقي الكلمات كذلك فإنه حين تنسب الصلاة إلى الأنبياء في جدلهم مع أهل الباطل أو في دعائهم للمؤمنين فإنها تأتي أيضا بصورتها الخاصة كما يلي:

﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ ﴾ [التوبة: ١٠٣] ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: ٨٧] أما من حيث تكون بشكل عام فتأتي بصورتها العادية حيث وردت ٦ مرات كما يلي:

﴿ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] ﴿ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ [الإسراء: ١١٠] ﴿ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ ﴾ [الأنفال: ٣٥] ﴿ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: المقنع: ص٣٩٨، ومختصر التبيين: (٢/ ٧٠)، ودليل الحيران: ص٢٨٣.

﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون: ٥] ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]"(١)أ.هـ.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]

الأصل في كلمة (امرأة) أن ترسم بهاء تأنيث، نحو قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ [الأحزاب: ٥٠] إلا سبعة مواضع في القرآن الكريم رسمت بالتاء المفتوحة ضابط هذه المواضع، أن كل امرأة أضيفت إلى زوجها فهي مرسومة بالتاء المفتوحة، وما عدا ذلك فبهاء تأنيث(٢).

وقد وجه المطعني رسم الهاء تاء في كلمة (امرأة) بقوله:"إن النظر الدقيق في هذه السياقات السبعة التي وردت فيها كلمة (امرأت) مفتوحة التاء يسفر عن الحقائق الآتية:

أولا: أنها في المواضع السبعة جاءت مضافة.

ثانيا: أن هذه الإضافة إلى غير الضمائر بل هي إضافة إلى أسماء ظاهرة، فرعون مرتان، والعزيز مرتان، ونوح مرة، ولوط مرة وعمران مرة .

ثالثا: إن كلمة (امرأت) في المواضع السبعة تدل على ذات معينة لا

---

(١) إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص١٦٥-١٦٦. وانظر الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص ١١٤

(٢) انظر: المقنع: ص٤٩٠، ومختصر التبيين: (٢/ ٢٧٤)، ودليل الحيران: ص٣١٠.

يشترك معها غيرها فهي دلالة خاصة لا عامة.

رابعا: أن المضاف (امرأت) والمضاف إليه في كل موضع بينهما علاقات وروابط زوجية قائمة.

خامسا: أن هذه العلاقات والروابط الزوجية هي الأساس في الإنجاب والتوالد من حيث الجملة.

وينتج عن هذه الاعتبارات الخمسة أن فتح تاء التأنيث فيها جاء رمزا إلى هذه المعاني فقد خولف الأصل في رسم (امرأت) ولم تكتب بالتاء المربوطة، فلله درّ القرآن الكريم ما أعظمه وما أعظم إعجازه من أي جهة نظرت إليه حتى رسم كلماته وحروفه معجز كنظمه وبلاغته ومعانيه."[(١)] أ.هـ.

ويقول عبد المجيد العرابلي رسم (امرأة) بالتاء المفتوحة: "كل امرأة معرفة تكتب بالتاء المبسوطة، وكل امرأة نكرة تكتب بالتاء المقبوضة ... والمرأة جاء اسمها من مادة (مَرَأ) التي هي من المروءة، والمروءة أن يكون فعل المرء من نفسه، لا يريد ممن فعل له الفعل أجرًا ولا شكورًا، وذكر المرأة في القرآن كان في المواضع التي كان فعلها من نفسها، فاستقلت به عن زوجها، وانفصلت بهذا الاستقلال عنه" ثم ذكر أمثلة لاستقلال المرأة بنفسها منها قوله:"أن تستقل في رغبتها في أمر ما عن زوجها، ومثاله نذْرُ امرأت عمران

(١) من مقال مسلسل بعنوان:"خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف" نُشرت في مجلة منبر الإسلام الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، العدد السابع، ص ١٤-١٥، الصادر في رجب سنة(١٤٢٣هـ).

ما في بطنها دون زوجها، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥] فقالت نذرت، ولم تقل نذرنا، وقالت تقبل مني، ولم تقل تقبل منا، وقيل إن عمران مات قبل ولادتها، أو قبل تنفيذ نذرها . وحالة سابعة: أن يكون بين الزوجين خلاف، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ١٢٨] وهنا رسمت تاؤها مقبوضة، لأنها نكرة غير معروفة."[(١)] أ.هـ.

خامسًا: قاعدة الفصل والوصل :

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٨]

اتفقت المصاحف على رسم (أَنَّ) المفتوحة الهمزة المشددة النون موصولة بـ(ما) في الخط، واستثني من ذلك ثلاثة مواضع رسمت بقطع (أَنَّ) عن (ما)، موضع باتفاق هو قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [لقمان: ٣٠]، وموضعان ورد فيهما الخلاف هما قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الحج: ٦٢] . والعمل على الوصل في موضع الأنفال،

(١) سر المقطوع والموصول والتاءات التي بسطت في الرسم القرآني:ص١٤٧-١٥١. وانظر: إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص١٧٣.

والقطع في موضع الحج[(١)].

وقد وجه شعير فصل (أنما) بقوله:"(أَنَّمَا) بفتح الهمزة كلها موصول إلا كلمتان ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢] ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [لقمان: ٣٠] وكما نرى أن حرف التوكيد (أنَّ) تم فصله عن الكلمة (يَدْعُونَ) بحرف (مَا)، لأنه ليس لدعوى غير الله فعل في الوجود فتوصل (أَنَّمَا) في النفي، ويدلك عليه قوله تعالى عن المؤمن: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [غافر: ٤٣] وهي تفصل في الإثبات لانفصاله عن دعوة الحق."[(٢)]أ.هـ.

ويقول العرابلي:"في الآيتين -أي موضع الحج ولقمان- تقرير من الله تعالى بنفس النص، بأن الذي يدعونه من دون الله تعالى هو باطل لا حقيقة له، ولا وجود له، وهو من اختلاقهم وفساد عقولهم . فكيف يكون وصل مع من لا وجود له، فـ(أنَّ) جاءت تأكيدًا على أنه باطل، وليس تأكيدًا على صحة وجوده . فجاء القطع صورة لما عليه واقع انقطاع أهل الكفر والشرك عن باطل يدعونه من دون الله عز وجل .

أما وصل (أَنَّمَا) في بقية المواضع فعائد إلى لزوم الأمر أو الوصف وما

(١) انظر: المقنع: ٤٧٥، ومختصر التبيين: (٣/ ٦٠٠) و (٤/ ٩٩٣)، ودليل الحيران: ص٢٩١.

(٢) الإعجاز القرآني في الرسم العثماني: ص١٣٨ . وانظر إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة: ص١٨٩-١٩٠.

لا يمكن نقضه، كألوهية الله تعالى ووحدانيته."[1] أ.هـ.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ [القيامة: ٣] اتفقت المصاحف على رسم (أَنَّ) المفتوحة الهمزة الساكنة النون مقطوعة عن (لن) في جميع المواضع عدا موضعين اتفقت المصاحف على قطعهما هما: موضع سورة القيامة، وقوله تعالى: ﴿ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴾ [الكهف: ٤٨]، واختلف في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المزمل: ٢٠] والعمل على قطعه[2].

يقول المطعني في توجيه فصل (أن لن) ووصلها: "(أن-لن) (ألن) الفصل والإظهار هو الأصل، لذلك فإن كل ما في القرآن من هذا النوع مفصول هكذا (أن لن) إلا موضعان خولف فيهما هذا الأصل، فجاءت نون (أن) مخفية لا ظاهرة، ونذكر أولا هذين الموضعين:

الأول: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ [القيامة: ٣]

الثاني: ﴿ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴾ [الكهف: ٤٨]

أما أمثلة الإظهار والفصل فمنها قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [التغابن: ٧] وقوله

(١) سر المقطوع والموصول: ص٦٠ .

(٢) انظر: المقنع: ص٤٦٦، ومختصر التبيين: (٣/ ٨١٠)، ودليل الحيران: ص٣٠٢، وسمير الطالبين: ص٦٦.

تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٧] قارن بين الآيات الأربع تجد النون في الأولين لا وجود لها في الخط، وتجدها في الثالثة والرابعة لها صورة في الخط، ولكل من الإظهار والإخفاء فيهما سبب وله معنى دل عليه، وإليك البيان:

في الآيتين الأوليين اللتين تحكيان ما قاله الكفار تجد فعلا ادعوه هم ونسبوه إلى الله عز وجلّ.

ففي الآية الأولى منها نسبوا جمع العظام منفيا إلى الله مستبعدين قدرة الله عليه سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وفي الثانية منهما نسبوا الموعد منفيا كذلك إلى الله، والموعد هو البعث أي أن الله على زعمهم لم يجعل يوما يبعث فيه الأموات للحساب. والخلاصة أن المشركين في هاتين يتحدثون عن الله لا عن أنفسهم، وهذا الحديث كاذب كما ترى ومع كذبه هذا أكدوه بـ(أن) المخففة من الثقيلة فعمد الرسم القرآني إلى حرف التوكيد الكاذب فأضاف في الخط هدما لما أرادوه منه التوكيد.

وهذا هو السبب في هذا الخفاء رمز به إلى معنى لطيف هو تكذيبهم فيما ادعوا.

أما في الآيتين الأخريين فظهر النون كما رأيت مع دعواهم فيه كاذبة وقد أشار القرآن إلى كذب دعواهم في آية التغابن بقوله: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ كما أشار إليه في آية القيامة بقوله: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ

﴿٤﴾ وتسوية البنان "نقش الأصابع والكف" اعقد من جمع العظام.

أما إظهار النون مع كذب الدعوى في الآيتين فلأنهم يتحدثون عن أنفسهم لا عن الله عزّ وجل فهم الذين زعموا أنهم لم يبعثوا والظن في آية الجن ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ هو ظنهم هم وهم فاعلوه وليس الله عز وجل، ولذا أظهرت النون ولم تدع الحاجة إلى إخفائها، لأنهم قد سوّل الشيطان صدق ما يقولون ويتوهمون وهم يعتقدون أنهم صادقون."[١] أ.هـ.

سادسًا: قاعدة ما فيه قراءتان :

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]

اتفقت المصاحف على رسم (يبسط) بالسين إلا موضع البقرة (ويبسط) فرسم بالصاد، وورد فيه خلاف القراء في قراءته[٢].

يقول عبد المجيد العرابلي:"السر في كتابة حرف السين صادًا يعود على معنى حرف السين والصاد في الاستعمال العربي، فالسين في الاستعمال العربي هي للتفلت، والتفلت خروج عن أمر كان مستمرًا فيه . والصاد في

(١) من مقال مسلسل بعنوان:"خصوصيات الرسم العثماني للمصحف الشريف" نُشرت في مجلة منبر الإسلام الصادرة عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، العدد الأول الصادر في محرم سنة(١٤٢٤هـ) ص ١٧-١٨ . وانظر: سر المقطوع والموصول: ص١١٩ .

(٢) انظر: المقنع: ص٥٠٩، ومختصر التبيين: (٢/ ٢٩٤)، وسمير الطالبين: ص ٧٠.

الاستعمال العربي هي للامتناع، والامتناع يفيد رفض دخول شيء إلى الشيء أو الخروج منه، ولذلك جاء في رسم الصاد صورة باطن فيها مقفل عليه، من ضمن سبعة حروف من حروف اللغة العربية، وهي حروف الإطباق الأربع، الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، بالإضافة إلى الفاء والقاف والواو، وترجع العلة في رسمها بهذه الصورة إلى معانيها في الاستعمال العربي.

وقد جاء القبض والبسط في آية البقرة: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ بصيغة العموم وليس بالتخصيص ليشمل ما يعلم وما لا يعلم . فبعض البسط قد عرفه الإنسان، وما يجهله أكثر، أي ممتنع عن المعرفة لخفاء سره، فإنزال المطر، وإنبات النبات مثلا، تتداخل فيهما عوامل كثيرة، عرف الإنسان بعضها، ويجهل كثيرا منها، وبعضها مما لا يخطر على باله، ولن يدركه حتى يقف عليه إذا فتح له سبيل من الله تعالى لمعرفته . فكانت صورة السين صادًا في هذا الموضع لبيان أن الوقوف على حدود البسط والقبض فوق قدرة البشر على الإحاطة بها."[(١)] أ.هـ.

(١) سر المقطوع والموصول: ص١٩٨.

المبحث الثاني :

النـافون لإعجاز الرسم القرآني و أدلتهم

وفيه مطلبـان :

المطلب الأول : النـافون لإعجاز الرسم القرآني .

المطلب الثاني : أدلة النـافين لإعجاز الرسم القرآني .

المطلب الأول : النافون لإعجاز الرسم القرآني :

يلزم من القول بعدم توقيف الرسم العثماني نفي الإعجاز عن الرسم العثماني وممن صرح بنفي وقوع الإعجاز الرسمي:

١. صبحي الصالح في كتابه مباحث في علوم القرآن .

٢. غانم قدوري الحمد في كتابه رسم المصحف دراسة تأريخية لغوية .

٣. محمد بن سيد محمد بن مولاي حيث يقول في تعليقه على كتاب رشف اللمى بعد نقله قول الدباغ بإعجاز الرسم القرآني:" إذا أمعنا النظر في كلام الشيخ عبد العزيز الدباغ ، لم نجد فيه ما يدل على أن الرسول علم الصحابة كتابة القرآن، فلم يأت بأسانيد تثبت ذلك ولم يعتمد على العزو، بل إنه يشير إلى ما يعرف بالإلهام. وهو لا يفيد حكما شرعيا، لأنه غير معصوم ويتطرق إليه الاحتمال، وذلك مانع من القبول، قال سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي ت ١٢٣٣هـ في مراقي السعود:

وينبذ الإلهام بالعراء أعـني به إلهام الأولياء

وقد نص العلماء رحمهم الله على أن علم المشاهدة لا يرخص في ذكره، ولا يعتمد عليه من باب أولى ، فأمور الشرع مبنية على الأدلة الواضحة لا على المرائي والإلهامات ونحو ذلك ، فالحجة إنما هي في عمل النبي ﷺ إذا صح ، أو في اجتماع الصحابة فمن بعدهم على هذا الرسم كما قال الشيخ محمد العاقب:

رسم القرآن سنة متبعه كما نحا أهل المناحي الأربعه

لأنه إما بأمر المصطفى أو باجتماع الراشدين الخلفا

ولا شك أن قول البعض كما تقدم: إن للرسم من الأسرار ما للحروف المقطعة في أوائل السور مثل: (ق، ص، ن)، من المبالغات الواضحة."[1]أ.هـ.

٤. زيد عمر مصطفى في بحثه المعنون بـ "رسم المصحف بين التحرز والتحرر".[2]

٥. محمد طاهر كردي في تاريخ القرآن حيث يقول: "وليس الرسم المصحفي من الإعجاز في شيء وإنما هو يخضع لمدى ما يحسن الكاتب، وأين التحدي من السماء بالإعجاز إلى الصنعة الأرضية التي تتفاوت جودة وضعفا وإتقانا."[3]أ.هـ.

٦. حمد خالد شكري في بحثه المعنون بـ "حكم الالتزام بقواعد رسم المصحف وضبطه".

(١) انظر: تحقيقه وتعليقه على رشف اللمى على كشف العمى: ص٢٢.

(٢) انظر: ص ٨١ وما بعدها.

(٣) تاريخ القرآن: ص١٣٥ .

المطلب الثاني : أدلة النافين لإعجاز الرسم القرآني :

يستدل النافون لإعجاز الرسم القرآني على نفي الإعجاز الرسمي بعدم ثبوت دليل يدل صراحة على أن الرسم العثماني كان بوحي، أو أنه ﷺ وجه الكتبة إلى كيفية كتابة المصاحف سوى ما ورد من بعض الآثار الضعيفة التي لا تقوم بمثلها حجة . إضافة إلى عدم تسليمهم بإقرار النبي ﷺ للكتابة وإنما يرون أن الإقرار كان للمكتوب لا الكتابة، فكان ﷺ يملي ويستوثق من اللفظ لا الرسم . ويعضد عدم ثبوت إقرار النبي ﷺ للكتبة على كيفية كتابتهم كونه ﷺ أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، مع ما روي من طريقة الصحابة رضي الله عنهم في كتابة المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه ونسخها[1].

يقول غازي عناية: "لم يثبت عن الرسول ﷺ شيء يفيد التوقيف للرسم العثماني للمصحف، وإنما الثابت أن هذا الرسم اصطلاح ارتضاه الخليفة عثمان بن عفان، وبإجماع من الأمة، حيث وضع ضابط الرسم للقرشين الثلاثة الذين كتبوا المصحف مع زيد بن ثابت، وهذا الضابط هو: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم)."[2]أ.هـ.

ويقول حمد شكري رادًا على استدلال القائلين بإعجاز الرسم القرآني بظواهر الرسم العثماني المخالفة للقياس :"أما أن الرسم كان بتوقيف من

(١) انظر: مبحث القول بتوقيف الرسم العثماني.

(٢) هدى الفرقان في علوم القرآن: ص٢٨١ . وانظر:تاريخ القرآن: ص ١٣٣ .

النبي ﷺ فلم يثبت ذلك، ولعدم ثبوته حصل الخلاف بين العلماء في حكم الرسم، وأما الاختلاف الحاصل بين الألفاظ المتشابهة والمتماثلة فله أكثر من توجيه، ما ذكره الدباغ أحدها ... وقد اعتنى بعض العلماء في استنباط أسرار وحكم من هذا الاختلاف في الرسم، وكلها أمور اجتهادية ذوقية ليست من متين العلم وإنما من ملحه ولطائفه، وهي مما تختلف فيه الآراء وتتعدد وجهات النظر، وكما قال الدباغ وغيره إن هذا الاختلاف كان لأسرار، قال آخرون إنه إنما كان لوجود مدرستين في الكتابة، فكتب لفظ على إحداهما وغيره على غيرها، أو كتب اللفظ في موضع على إحداها وفي غيره على غيرها، وفي جميع الأحوال فإن القول بالإعجاز في الرسم يحتاج إلى تجلية وتوضيح وتدليل وهو ما لم يفعله الدباغ ومن تبعه، وإذا كان الأمر سرا من الأسرار فهل يُتحدى الناس بها لا يعلمه إلا أصحاب الفتح الرباني؟... أما قوله إن العرب لم تكن تعرف هذه الطريقة في الرسم فينقضه ما سبق من مقارنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة، وثبوت وجود تشابه في كيفية الكتابة."[(١)] أ.هـ.

وقد أثبت غانم قدوري من خلال بحثه (موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة) مشاركة النقوش العربية القديمة الرسم العثماني في كثير من الظواهر الإملائية [(٢)].

---

(١) حكم الالتزام بقواعد رسم المصحف وضبطه حمد خالد شكري، بحث منشور بمجلة الشريعة والقانون العدد الثالث والثلاثون: ص٤٢٥، عام١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م .

(٢) انظر: أبحاث في علوم القرآن: ص١٦١ – وما بعدها.

المبحث الثالث : الترجيح بين الأقوال :

إن القول بتوقيف الرسم القرآني، وبالتالي إعجازه يحتاج إلى دليل، ولا دليل من الكتاب ولا من السنة ولا من أقوال الصحابة يدل على ذلك. وكل ما يستدل به القائلون بالإعجاز لا يصلح أن يكون دليلا، وذلك أن الاستدلال بإقرار النبي ﷺ لما رُسم في المصاحف لا يسلم به، لأنه لا يصح خصوصا أن النبي ﷺ كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولو سُلم بصحة إقراره للكتبة لم يكن ذلك إلا دليلا على الجواز والإباحة لا على أن الرسم كان بوحي أو أنه سنة، يقول ابن عثيمين: " تقريره ﷺ على الشيء فهو دليل على جوازه على الوجه الذي أقره قولاً كان أم فعلاً. مثال إقراراه على القول: إقراره الجارية التي سألها: "أين الله؟" قالت: في السماء. ومثال إقراراه على الفعل: إقراره صاحب السَّرية الذي كان يقرأ لأصحابه ، فيختم بـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، فقال النبي ﷺ: "سلوه لأي شيء كان يصنع ذلك"، فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأها، فقال النبي ﷺ: "أخبروه أن الله يحبه". ومثال آخر: إقراره الحبشة يلعبون في المسجد، من أجل التأليف على الإسلام."(١)أ.هـ. وبما أنه لم تثبت قدسية الرسم العثماني فمن باب أولى عدم ثبوت إعجازه . وحتى لو سُلم جدلا بتوقيف الرسم العثماني، فلا يُحكم على هذا الرسم أنه معجز، لأن الإعجاز ينبغي أن يكون ظاهرا جليا لا خفيا، فالمقصود منه

(١) الأصول من علم الأصول لمحمد بن عثيمن: ص٤٦.

إثبات أن هذا القرآن من عند الله تعالى، فلابد من ظهور أوجه إعجازه . ولما غفل عنه الصحابة ﷺ بل لأقروا وصرحوا بإعجاز رسم القرآن كما كان الإعجاز ثابت لمنطوقه.

كما أن السلف الصالح ﷺ لم يكونوا يشتغلون بمثل هذه الأمور التي لا مستند شرعي عليها، وليست هي من طرائقهم في تدبر آيات القرآن الكريم.

أهم نتائج البحث:

١- القول الراجح في حكم الالتزام بالرسم العثماني في كتابة المصاحف هو الوجوب، ولا يلزم منه كون الرسم توقيفيا أو معجزا .

٢- مسألة القول بإعجاز الرسم القرآني مسألة محدثة، كان أشهر وأقدم من صرح بها عبد العزيز الدباغ فيما نقله عنه تلميذه ابن المبارك.

٣- لم تثبت قدسية الرسم العثماني فمن باب أولى عدم ثبوت إعجازه .

٤- توجيهات مخالفات الرسم العثماني لقواعد القياسي مما زُعم أنه من الإعجاز الرسمي كلها أمور اجتهادية ولطائف لا دليل عليها، ويدخل في بعضها التوجيهات الإشارية.

ثبت المصادر والمراجع :

- الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدَّباغ، لأحمد بن المبارك السجلماسي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، ط٢ ، ٢٠٠٦.
- إرشاد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه في رسم القرآن، للشيخ محمد بن علي الحسيني الشهير بالحداد، تحقيق : جمال الدين محمد شرف، دار الصحابة بطنطا، ط١ .
- إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة ، لمحمد شملول ، دار السلام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- إعجاز القرآن ، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت:٤٠٣) ، تحقيق: السيد أحمد صقر ، دار المعارف مصر ، ط٥، ١٩٩٧م.
- الإعجاز القرآني في الرسم العثماني، لعبد المنعم كامل شعير،بدون تاريخ ورقم طباعة ودار.
- إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام، لمحمد حبيب الله الشنقيطي، مكتبة المعرفة، سورية، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- الانتصار للقرآن، لأبي بكر محمد الباقلاني، تحقيق: عمر حسن القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ .
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو

الفضل إبراهيم، دار المعرفة، ط٢، ١٣٩١هـ .

- تأريخ القرآن، لإبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني،بيروت، ط١٤٠٢ا٢هـ/ ١٩٨٢م.
- تاريخ القرآن وغرائب رسمه وأحكامه، لمحمد طاهر الكردي، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٥٣م.
- التبيان في علوم القرآن، لكامل موسى، و علي دحروج، دار بيروت المحروسة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- التقرير العلمي لمصحف المدينة المنورة، لعبد العزيز عبد الفتاح قارئ، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦ هـ .
- الجمع الصوتي الأول للقرآن، للبيب السعيد، دار المعارف، ط٢،ب.ت
- جمع القرآن الكريم حفظًا وكتابة، لعلي بن سليمان العبيد، نشر ضمن بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- جواهر العرفان في الدعوة وعلوم القرآن، لرؤوف شلبي، عالم الفكر، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- دليل الحيران على مورد الظمآن في فني الرسم والضبط ويليه (تنبيه الخلان على الإعلان) ، لإبراهيم بن أحمد المارغني، دار الكتب

العلمية، ط١، ١٩٩٤.

- الرحيق المختوم في شرح نظم اللؤلؤ المنظوم في ذكر جملة من المرسوم، للعلامة حسن بن خلف الحسيني على أرجوزة المتولي، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط١.
- رسم القرآن معجز كلفظه ولا يمكن تغييره، لمحمد سامر النص، دار التوفيق، ط١ ، ٢٠٠٧م
- رسم المصحف بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، لشعبان محمد إسماعيل، دار السلام، ط١، ١٤١٩هـ .
- رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، لغانم قدوري الحمد، نشر اللجنة الوطنية ببغداد، ط١، ١٤٠٢ هـ .
- رسم المصحف والإعجاز العددي، لأشرف عبد الرزاق قطنة، منار للنشر والتوزيع، دمشق، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الزيادة والإحسان في علوم القرآن، لابن عقيلة المكي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- سر المقطوع والموصول والتاءات في الرسم القرآني، لعبد المجيد العرابلي، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط١٤٣١أ١هـ/ ٢٠١٠م.
- شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لموفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي، لمحمد بن صالح بن عثيمين، حققه وخرج أحاديثه: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ط١،

١٣١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- علوم القرآن بين البرهان والإتقان "دراسة مقارنة"، لحازم سعيد حيدر، دار الزمان، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٠هـ.
- علوم القرآن الكريم، لنور الدين عتر، دار الخير، دمشق، ط١، ١٩٩٣م.
- عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، لأبي العباس أحمد البناء المراكشي (ت:٧٢١ هـ)، تحقيق : هند شلبي، دار المغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٠م.
- فصل في إعجاز القرآن (وهو تقديم لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي)، لمحمود محمد شاكر، دار الفكر، سوريا . ب.ت.
- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، لأبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١م .
- القراءات بأفريقية من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، لهند شلبي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م.
- القرآن المجيد، لمحمد محمد عبد اللطيف المعروف بابن الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت.
- لطائف البيان في رسم القرآن شرح مورد الظمآن، لأحمد محمد أبو زيتحار، مطبعة علي صبيح وأولاده، مصر، ط٢ .
- اللآلئ الحسان في علوم القرآن، لموسى شاهين لاشين، مطبعة الفجر الجديد، مصر ب.ت.

- مباحث في إعجاز القرآن ، لمصطفى مسلم ، دار المسلم ، ط٢ ، ١٤١٦هـ.
- المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق ودراسة : نورة حسن الحميد، دار التدمرية، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- مختصر التبيين لهجاء التنزيل، لأبي داود سليمان بن نجاح، دراسة وتحقيق: أحمد بن معمر شرشال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ.
- المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة، لإبراهيم محمد البريكان، دار السنة للنشر والتوزيع، الخبر، ط٢، ١٤١٤هـم١٩٩٣م.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة المقدسي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣م .
- مقدمة ابن خلدون، لإمام ابن خلدون، تحقيق: إيهاب محمد إبراهيم، دار ابن سينا، ط١، ٢٠٠٩م.
- المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، لأبي عمرو الداني، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، ١٤٠٣ هـ .
- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون،دار إحياء التراث العربي ، ط١، ١٤٢٢ هـ .
- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: على عبد الواحد

وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٣ .
- من أسرار وإعجاز القرآن الكريم، لمحمد أديب النابلسي، ط١٤٢٠أ١هـ-١٩٩٩م .
- من روائع القرآن "تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل"، لمحمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي، ط١٣٩٢أ٣هـ-١٩٧٢م.
- مناهج العلماء في دراسة إعجاز القرآن، لغانم قدوري الحمد.
- مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، راجعه وضبطه وعلق عليه: محمد علي قطب ويوسف محمد ، المكتبة العصرية، ط١٤٢٢هـ .
- موسوعة الحديث الشريف، بإشراف ومراجعة صالح عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- نثر المرجان في رسم نظم المرجان، لمحمد غوث بن ناصر الدين النائطي الأركاتي، مطبعة عثمان يونس، حيدر آباد، ١٣٣٩هـ.
- هدي الفرقان في علوم القرآن، لغازي عناية، عالم الكتب، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الوسيلة إلى كشف العقيلة، لعلم الدين السخاوي، تحقيق: نصر سعيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع

إعداد

أ.د. أحمد سعد محمد الخطيب

أ. د. أحمد سعد محمد الخطيب

- حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر بأسيوط بأطروحته " قضية التبني – دراسة في ضوء الكتاب والسنة".
- حصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر بأسيوط بأطروحته تنظيم الإسلام للمجتمع في ضوء سورة النساء".
- عضو اللجنة العلمية بالجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.

بسم الله الرحمن الرحيم

من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع

افتتاحية وتوطئة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٠-٧١)

أما بعد،

فإن كثيرا من المصطلحات الأدبية المحدثة تجفل نفسي عنها ، فأنزه القرآن عن أجعل صلةً ما بينه وبينها ، ولربما كان من أسباب ذلك هو كونها تدور على ألسنة من يتعالون على الناس بادعاء الحداثة والفكر ، موهمين إياهم بأنهم وحدهم أولو الألباب والعقول المستنيرة ، في إيماءة إلى اتهام

غيرهم بأنهم ظلاميون متخلفون رجعيون.

لكن مصطلحًا منها قفز إلى نفسي قفزا ، فرأيت تطبيقاته كائنة في تمامها في القرآن الكريم ، وهو مصطلح "كسر أفق التوقع".

وذلك أن عملية استباق النتائج وتوقع ما سيؤول إليه النص في الأدبيات الحديثة إحدى ثمار تفاعل القارئ مع النص عندهم ، لكن بعض النصوص تضِنُّ أحيانا على القارئ بنتائجها ومستقبل أحداثها ، فتفاجئه بما لا يتوقعه، لتحدث فيه نوعًا من الدهشة والاستغراب وربما النشوة أيضا ، ويعرف هذا بـ "كسر أفق التوقع".

إن مخالفة المتوقع في النصوص الأدبية إذا كانت تصيب القارئ بالدهشة أحيانا والنشوة أحيانا أخرى ، تبعا لتفاوت النصوص وقائليها ، فإن ما جاء على خلاف الأصل في القرآن الكريم [1]، أو على خلاف التوقع يثير الدهشة والإعجاب دائما لما يحمله من فوائد ونكات ، ما كان لها أن توجد لو كان التعبير ملائما لما هو متوقع.

إن النظم القرآني في حالتيه المتوقعة وغير المتوقعة ليفيض بهاء وعطاء بحيث إنك لا تجد عوضا قط عن أي مسلك سلكه ، أو أي طريق اختطه

(١) " ما جاء على خلاف الأصل" أو "خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر" هو التعبير التراثي – عند علمائنا – الذي يقترب كل الاقتراب من مصطلح المعاصرين (كسر أفق التوقع) بيد أن هذا الأخير صار أثيرا عندي لكونه ألصق بموضوع الدراسة التي أعنى بها هنا ، وأكثر دلالة عن مقصودها ، دونما غضاضة للتعبير الذي جرى على ألسنة علمائنا كالزركشي والسيوطي في كتابيهما العظيمين البرهان في علوم القرآن، والإتقان في علوم القرآن.

لنفسه ، في غير ما سلكه القرآن ومضى عليه ، وهذا سر عظيم من أسرار إعجاز القرآن الكريم.

وكان الإمام عبد القاهر الجرجاني فارس الميدان في هذا عندما قرر في غير تردد أن إعجاز القرآن إنما هو كائن في نظمه ، وصاغ في تقرير ذلك نظرية عظيمة باتت تعرف بـ " نظرية النظم "

وهي نظرية حسم بها عبد القاهر الخلاف حول قضية اللفظ والمعنى ، وكان الخلاف محتدما قبل عبد القاهر حول الصلة بين اللفظ والمعنى ، وبأي منهما يقاس الكلام ؟

واشتهر عن الجاحظ أنه من أولئك الذين تعصبوا للفظ على حساب المعنى ، لما قاله في كتابه "الحيوان" من كلام صارت له شهرة الأمثال ، نصه:

"المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي،والبدوي والقروي ، والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن،وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ،وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ...."[(١)]

فجاء عبد القاهر ليقرر أن "الألفاظ خدم للمعاني وهي تالية لها في الترتيب " [(٢)] أي على أساس المعنى وتعبير الألفاظ عنه يُقَيَّم النص بلاغةً.

وثمرة هذا الخلاف تظهر في تحديد وجه إعجاز القرآن الكريم: هل هو باللفظ فقط أي بالبلاغة فقط ؟ وهو ما قد يوحي إليه كلام الجاحظ سالف

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/ ١٣٢

(٢) دلائل الإعجاز ١/ ٥٩

الذكر.

أو باللفظ والمعنى ؟ ليدخل في الإعجاز سائر الوجوه التي عددها العلماء من الإخبار بالغيب وعظمة تشريعه ووعده ووعيده ...إلخ وجوه الإعجاز التي يذكرها العلماء ، حال كونها معبرا عنها أبلغ تعبير وأدل على أحوالها ومعانيها . وهو ما يؤكده عبد القاهر في نظرية النظم ، التي يقرر فيها أن سر البلاغة وقوة الكلام كائن في العلاقة المتمخضة عن ارتباط اللفظ بالمعنى ، وهو ما يسميه عبد القاهر "توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم " وبالتالي هي دلائل إعجاز القرآن الكريم .

فماذا تقول هذه النظرية ؟

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد أوجز عبد القاهر في الدلائل نظريته في النظم التي تكمن في توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم وقال في هذا:

"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، و زيد ينطلق، وينطلق زيد، و منطلق زيد، و زيد المنطلق، و المنطلق زيد ، و زيد هو المنطلق، و زيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج،

وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع. فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو: أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون، وأن لا يكون وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء" وموضع "الفاء" من موضع "ثم" وموضع أوْ" من موضع "أم" وموضع "لكن" من موضع "بل".

ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل. فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عومل بخلاف

هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه" (١)

التوقع والاستباق في أسلوب القرآن الكريم:

إن انسجام المعاني في القرآن الكريم وتأنق ألفاظها ودقة تعبيرها عنها ، ليقودك في انسياب إلى استباق بعض المعاني التالية وربما بنفس ألفاظها وتعابيرها.

ولهذا وقع لبعض الصحابة النطق بخاتمة آيات من القرآن حين سماعهم لها للوهلة الأولى إبّان نزولها، ومن ذلك:ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال: أملى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ (المؤمنون: ١٢ – ١٤)

فقال معاذ بن جبل: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال: بها ختمت.

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٧ ، ٧٨.

وورد في بعض الروايات أن ذلك من موافقات عمر رضي الله عنه، أخرج ذلك ابن أبي حاتم وغيره كما نقل السيوطي في الدر المنثور(١) وذكره الواحدي في أسباب النزول (٢)

وعلى ذلك فما ورد على ألسنة الصحابة من كلام اتفق وجوده في القرآن هو راجع إلى هذا الرقي العالي في البلاغة القرآنية التي يتسلسل فيها الكلام وينساب انسيابا ، يمهد فيه سابق للاحق ، ويبنى فيه ثان على أول ، وتتوثق فيه علاقة النتائج بمقدماتها ، على نحو منقطع النظير.(٣)

وهو أمر يدركه أهل الذوق، فكيف إذا كان الكلام عن أرباب الصفاء الذهني والذوق البلاغي ، الذي فطروا عليه ، وهم الصحابة رضي الله عنهم ؟!

ولا يُفهَم من الأمر أكثر من هذا، وبذا يرد على زعم العلمانيين أن في القرآن بعض أقوال الصحابة.

فهذه أمثلة صادقة على التوقع والانسجام التام بين فقرات وأجزاء الآي القرآنية من بدايتها لنهايتها ، بما قد يؤول إلى استباق المعاني القرآنية ، وفي بعض الأحيان إلى استباق الألفاظ القرآنية كذلك ، وأكثر ما قع ذلك

(١) الدر المنثور ١٠ / ٥٦٤

(٢) اسباب النزول للواحدي ص ٢١٠

(٣) يعرف هذا بـ ائتلاف الفاصلة . وسماه بعضهم التمكين وعرفه بقوله: أن يُمَهَّد قبل الفاصلة تمهيد تأتي به الفاصلة مُمَكَّنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم . ينظر: مفاتيح التفسير لأحمد سعد الخطيب ١/ ١٨

في الفواصل القرآنية. ولذلك أقدم علماؤنا على التأليف في هذا الفن، مطمئنين إلى عملهم هذا، كما يدل له هذا السفر العظيم (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لـ برهان الدين البقاعي.

كسر أفق التوقع في أسلوب القرآن:

إن الكلام البليغ إذا كانت المعاني تنساب فيه انسيابا في حالة التوقع، بما يعين على استباقها، أو استباقها بألفاظها، كما لحظنا فيما مضى، فإنه كذلك أيضا عندما يكسر أفق التوقع، فترى الفوائد الغزيرة، والمعاني الفيّاضة، مترتبة على هذا التغاير في الأسلوب، الذي يسميه التراثيون مخالفة الأصل، ويسميه المحدثون: كسر أفق التوقع.

مظاهر ومجالات كسر أفق التوقع في الكتاب العزيز:

في الواقع إن مظاهر وتجليات ذلك في الكتاب العزيز كثيرة متوافرة، بادية أمام كل من يجيد تدبر كلام الله، والغوص في معانيه، لاستخراج درره وفرائده، وسأذكر منها هنا ما يلائم المقام، ويجلّي الفكرة، وأما الاستقصاء والاستقراء، فله مقام آخر، ومجال غير هذا.

وقد اخترت من هذه المظاهر ما يلي:

١ - الالتفات

٢ - الاحتباك

٣ - التضمين

٤ - المغايرة في الإعراب والتوجيه النحوي.

٥ - التشبيه

٦- التهكم.

٧- الفاصلة

٨- الأسلوب الحكيم

٩- القول بالموجب

وهاك تفصيل القول عنها:

أولاً - الالتفات

الالتفات:هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، يعنى: من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأول[(١)].

وأضاف السكاكي إلى ذلك التعبير بأحد هذه الأساليب فيما حقه التعبير بغيره [(٢)].

والالتفات فن رفيع من فنون البلاغة سمي بذلك أخذا من التفات الانسان يمينا وشمالا فتارة يقبل بوجهه وتارة يلتفت يمينه وتارة يلتفت يسرة . وهكذا الالتفات في الكلام . فان المتكلم يلتفت فيه من خطاب إلى غيبة أو العكس . ومن تكلم إلى خطاب أو العكس ومن تكلم إلى غيبة أو العكس ويلقب الالتفات بشجاعة العربية ، ووجه هذه التسمية أن

(١) مفاتيح التفسير ١ / ١٦٧

(٢) إيضاح هذا جاء في كتاب "إزالة الإلباس عن كلام رب الناس" لأحمد سعد الخطيب فقدقال فيه: وقد اصطلح بعض العلماء على أن الالتفات ينضوي تحته كل كلام نقل من حالة الى أخرى مطلقا . ومن ثم أدخلوا فيه التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه ، والانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع الى غيره .... ص ١٣٩

الشجاعة هي الإقدام والرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره . ويتورد مالا يتورد سواه وكذلك الالتفات في الكلام [١].

* ومن فوائد الالتفات الإجمالية تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال، لما جبلت عليه النفوس من حب التغيير، هذه فائدة عامة. وإلا، فإن للالتفات في كل موضع لطائف وحكمًا.

جاء في البرهان للزركشي "وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة ، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه وتارة يجعله كافا فيجعل نفسه مخاطبا وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب. فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض .... "[٢].

وأيًا ما كان الانتقال من حالة إلى أخرى على طريقة الالتفات ، فهو كسر لأفق التوقع ، وخروج على مقتضى الظاهر.

أنواعه وأمثلته:

الأول : الانتقال بالكلام من الخطاب إلى الغيبة .

وعبر عنه ابن قتيبة بقوله : أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له وعلى لفظ الغائب [٣] .

---

(١) الالتفات في حاشية الشهاب الخفاجي د/ هاشم محمد هاشم : ص :٢٦ .
(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣١٤
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٩ .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا .. ﴾ الآية (سورة يونس: ٢٢) .

فقد التفت عن ﴿ كُنتُمۡ ﴾ وهو للخطاب الى ﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ هو للغيبة.

وكان مقتضى الظاهر أن يقول (وجرين بكم) لكنه كسر أفق التوقع بهذا الالتفات إلى الغيبة ﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾

وفائدة هذا الالتفات استهجان فعل هؤلاء الذين لا يعرفون الله إلا وقت الشدة والكرب فاذا فرج عنهم كربهم عادوا إلى نكرانهم فضل ربهم عليهم ، ولأجل فعلهم هذا فهم ليسوا أهلا لأن يخاطبهم الله ومن ثم التفت عن خطابهم إلى الغيبة.

النوع الثاني : الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

وقد ذكره ابن قتيبة وعبر عنه بقوله : وكذلك أيضا أن تجعل خطاب الغائب للشاهد [1] .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾ (سورة مريم: ٨٨ – ٨٩)

وفي النص الكريم كسر لأفق التوقع حيث التفت من الغيبة في قوله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ الى الخطاب في ﴿ جِئۡتُمۡ ﴾ ليعم بهذا الوعيد كل من يدعي أن

(١) تأويل المشكل ٢٩٠ .

للرحمن ولدا ، من ادعوا ذلك بالفعل ومن سيقعون في هذا الادعاء بعد ، حتى لكأن الجميع حاضرون .

النوع الثالث الالتفات من التكلم الى الغيبة :

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (سورة الكوثر: ١ – ٢)

حيث التفت من التكلم في ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ الى الخطاب في ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل ((لنا)) حثا على إقامة الصلاة لحق الربوبية ، فتتحقق بذلك العبودية.

النوع الرابع : الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (سورة فاطر: ٩).

حيث التفت من الغيبة في قوله ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ الى التكلم في قوله﴿ فَسُقْنَٰهُ ﴾ و﴿ فَأَحْيَيْنَا ﴾ والسبب أنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت إحياء للأرض بعد موتها بما يحمله هذا السحاب من مطر فيه دلالة على قدرة الله الباهرة ، وعظمته الفائقة عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص .

النوع الخامس : الالتفات من التكلم إلى الخطاب :

ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (سورة الفتح: ١ – ٢)

حيث التفت من التكلم في ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ إلى الغيبة في ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل ((لنغفر لك)) .

وذلك كي تتعلق هذه المغفرة باسمه الذي هو علم على الذات ، المهيمن على سائر الأسماء الحسنى وهو الاسم الجليل ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ليعلم أنها مغفرة تامة .

النوع السادس : الالتفات من الخطاب إلى التكلم :

هذا النوع عزيز وجوده في القرآن الكريم. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ (سورة هود: ٩٠).

حيث عبر أولا بطريق الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ ثم التفت فعبر ثانيا بطريق التكلم ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقال : ((إن ربكم)) [١] .

ثانيا - الاحتباك

الاحتباك مأخوذ في اللغة من الحبك وهو شدة الإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج[٢]

وفي الاصطلاح: أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه.[٣]

---

(١) الالتفات في حاشية الشهاب الخفاجي ١٩٥ .

(٢) ينظر: لسان العرب مادة حبك

(٣) ينظر مفاتيح التفسير ١ / ٤٨

وعرفه بعضهم بقوله: هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول [١]

والاحتباك أحد أنواع الحذف ، و يعرف بهذا الاسم عند جمهور العلماء، غير أن الزركشي في البرهان سماه "الحذف المقابلي"[٢]

ويعتبر الاحتباك وسيلة من وسائل كسر أفق التوقع ، إذ الأصل أن يذكر كلا المتقابلين كل بما يخصه بلا حذف ، فيأتي هذا الأسلوب ليُكتفى فيه بذكر ما يخص أحد المتقابلين في التركيب ، ويحذف الآخر ، لكون المذكور يدل عليه .

ومن أمثلته في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ (النمل:١٢) فالتقدير تدخل غير بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء فحذف من الأول غير بيضاء ومن الثاني وأخرجها.

(١) المرجع السابق

(٢) البرهان ٣ / ١٢٩

ويمكن توضيحه بالمخطط التالي:

المتقابلان		الصفة
الجملة الأولى	وأدخل يدك	مذكور
الجملة الثانية	وأخرجها	محذوف
الجملة الأولى	تدخل غير بيضاء	محذوف
الجملة الثانية	تخرج بيضاء	مذكور

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ (آل عمران: ١٣) أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (هود: ٣٥) والأصل: إن افتريته:

١- فعلى إجرامي وأنتم برآء منه .

٢- وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون.

وبذا يظهر جمال التعبر القرآني في حذف المقابل من كلتا الجملتين لدلالة المذكور عليه ، وهو من إيجاز القرآن الذي يبلغ حد الإعجاز.

ثالثا - التضمين:

التضمين الذي هو بمعنى إعطاء الشئ معنى الشئ.[(١)]

كما ضمن لفظ " حقيق" معنى: حريص في قوله تعالى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ (الأعراف:١٠٥) كما ضمن لفظ "يشرب" معنى: يروى في قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ (الإنسان:٦)

ويُعرَف التضمين في الفعل أو الاسم بحرف الجر الذي عدِّي به كما عرفنا تضمن " يشرب " معنى "يروى" لتعديته بالباء دون "من" التي من عادته التعدِّي بها ، وتضمن "حقيق" معنى حرص لتعديته بـ "على".

والأصل أن الفعل إذا لم يتعد إلى مفعوله بنفسه ، واحتاج إلى حرف جر يصله بمفعوله ، أن يكون معنى هذا الحرف ملائما لمعنى هذا الفعل ،

(١) مفاتيح التفسر ١ / ٢٩٨

والتضمين يكون في الأسماء بأن يضمن اسم معنى اسم آخر، ليفيد معنى الاسمين جميعا، ويكون في الأفعال أيضا ، وأما التضمين في الحروف ففيه خلاف، فبعضهم قال به، وهم الذين يرون أن حروف الجر تتناوب، وهم أكثر الكوفيين ومن وافقهم فيقولون في مثل الآية التي معنا من سورة الإنسان: إن الباء بمعنى "من"، ويرى أكثر البصريين أن التجوّز في مثل ذلك في الفعل، لا في الحرف٠

والرأي عندي في هذا المقام هو رأي البصريين لأن معنى الملفوظ على كلامهم يكون باقيا لكن أضيف إليه معنى زاده قوة في بابه بخلاف القول بالتضمين في الحرف فإنه يلغي معنى الحرف الملفوظ ويحل محله معنى حرف آخر، تأمل المثال السابق فإن معنى الشرب باق في الري وهو رأي البصريين، لكن معنى الباء غير باق كما هو مذهب الكوفيين حيث جزموا بأن الباء بمعنى "من".

كأن تقول ذهبت إلى المسجد فإن حرف الجر "إلى" يفيد انتهاء الغاية وهو ملائم للفعل ذهب في حال ارتباطه بغاية ، أو تقول جلست في البيت ، فتكون الظرفية الكائنة في معنى الحرف "في" ملائمة للفعل جلس في حال ارتباطه بظرف المكان.

فإذا كسر هذا التوقع فتعدى الفعل إلى مفعوله بحرف ليس من شأنه أن يتعدى به ، ولكنه من خصائص فعل آخر ، فإن الحل هنا يكمن في اللجوء إلى القول بالتضمين ، بأن يكون الفعل المذكور قد تضمن معنى الفعل الآخر المختص بحرف الجر.

ومن الفوائد المترتبة على ذلك أن الفعل المذكور يتسع معناه بالتضمين، ليشمل معنى الفعلين معا ، مع الاحتفاظ بإيجاز العبارة.

ومن الأمثلة على التضمين في الكتاب العزيز:

قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٧) حيث الأصل أن يتعدى لفظ "الرفث "إلى معموله بحرف الجر "الباء" ، لكن هذا التوقع قد انكسر ، حينما تعدى بحرف الجر "إلى" ، وذلك لأن "الرفث" تضمن معنى الإفضاء.(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الفرقان: ٥٩) حيث تعدى الفعل "اسأل" إلى مفعوله بحرف الجر الباء ، والأصل أن يتعدى بحرف الجر "عن" وذلك لأن الفعل "اسأل" تضمن معنى الاعتناء

(١) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٨٠

أي: فاعتن به خبيرا أو اشتغل به خبيرا.

أو كما قال الآلوسي: فاسأل معتنيا به خبيرا عظيم الشأن محيطا بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله عز و جل ..[(١)]

رابعًا - التشبيه:

هو في علم البيان: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى أوصفة بأداة من أدوات التشبيه وهي [الكاف، وكأن، ومثل، وشبه] وما جرى مجراها مما يشتق من المائلة والمشابهة [(٢)] .

والأصل في طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به) أن يكونا معلومين، ووجه الشبه بينهما جامع لوصف مشترك فيهما ، غير أنه في المشبه به أقوى.

فإذا قلت زيد كالأسد ، كان وجه الشبه الجامع بينهما هو الشجاعة في كليهما، لكن الشجاعة في الأسد وهو المشبه به أقوى بلا ريب.

لكن هذا التوقع قد ينكسر عندما يكون طرفا التشبيه أو أحدهما غير معروف المعالم ، وليس له من إدراك معالمه، إلا صورة في الذهن تنطبع فيها أوصافه لا على وجه التحديد.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم ٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥﴾ (الصافات: ٦٢ – ٦٥)

فإن طرفي التشبيه هنا غير معروفين من جهة الحس ، وأوصافهما

---

(١) روح المعاني ١٩/ ٣٨

(٢) ينظر مفاتيح التفسير ١ / ٢٨٦

صورة ذهنية ، فهو على هذا من تشبيه المعقول بالمعقول ، وهو عكس التوقع.

لكن إذا وقفنا على سر هذا التشبيه عرفنا أن الصورة الذهنية هنا أبلغ من الحس فيما لو كان طرفا التشبيه محسوسين ، أو كان أحدهما محسوسا والآخر معقولا.

حيث شبه أقبح ما يمكن أن يتصور من سوء الطعم وقبح المنظر ، برؤوس الشياطين ، اعتمادا على ما " اشتهر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها ، وإن كانت غير مرئية ، ولذلك يصورون الشيطان في أقبح الصور . فإذا رأوا أشعث منتفش الشعر قالوا : كأنه وجه شيطان ، وكأن رأسه رأس شيطان ..."(١)

ومن دواعي كراهية الناس للشيطان أيضا اعتقادهم في "أنَّه شرّ محضٌ لا يخلِطه خيرٌ.. كما أنهم اعتقدوا في المَلَكِ أنَّه خيرٌ محضٌ لا شرّ فيه، فشبَّهوا به الصورةَ الحسنةَ. قالَ اللهُ تعالى ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١) وهذا تشبيهٌ تخييليٌّ" (٢)

خامسًا - المغايرة في الإعراب والتوجيه النحوي:

يدرك كل من له صلة بالقرآن الكريم وتفسيره أهمية التوجيه النحوي في بيان معنى الآية ، وترجيح بعض الوجوه في تفسيرها على بعض .ولذا قالوا: الإعراب فرع المعنى.

(١) البحر المحيط ٧ / ٣٤٨

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٥ / ٢١٣

ولأن الناس تختلف مداركهم وتتباين ثقافاتهم ، إذ فيهم الخواص الذين تستهويهم الإشارة ، وتروي ظمأهم الدقة ، فقد لبى القرآن رغبتهم فألمح وأشار ، ونوّه وعرّض ، ونوّع في أوجه الإعراب ، فاشتمل على الدقائق التي لا يطلع عليها إلا بصير حصيف .

وفي الناس أيضا العوام الذين لا يلائمهم إلا صريح العبارة ووضوح المعنى وقد راعى القرآن الكريم أحوالهم وأشبع رغباتهم ، فتراه في مواطن أخرى أفصح وأبان ، وأرهب ورغّب وعلّل ووجّه . فاشتمل القرآن على صنوف من القول وفنون من البلاغة.

ولذا فإن بعض أوجه الإعراب التي سلكها القرآن الكريم في بعض المواضع لم تكن مستوعبة من قليلي البضاعة في النحو والإعراب ، خصوصا عندما يكسر القرآن الكريم التوقع ، بنقلة في نسق الآية ، يغاير من خلالها جرسها ، عندما يقرع السمعَ مرفوعٌ بعد منصوب ، أو منصوبٌ بعد مرفوع، له ما يبرره في قواعد النحو ، وفي علم المعاني ، كما سنرى الآن من خلال بعض الأمثلة.

المثال الأول: قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٥٤)

والشاهد هنا قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ حيث جاء لفظ (النجوم) منصوبا لعطفه على منصوب ، وهذا هو المتوقع.

غير أن هذا التوقع قد انكسر في آية أخرى مناظرة ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ

بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (النحل: ١٢).
فقد جاء قوله: ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ ﴾ بالرفع بعد منصوبات[١]، لينكسر التوقع.

وتوجيه ذلك من جهة النحو: أن الواو استئنافية و(النجومُ مسخرات) مبتدأ وخبر.

وأما من جهة المعنى، فقد علل ابن عاشور هذه المغايرة بقوله: ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح والآخر خفي لقلة من يرقب حركات النجوم.[٢]

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة: ٦٢).

والشاهد هنا قوله (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) حيث جاء منصوبا لعطفه على منصوب، وهذا هو المتوقع.

لكن هذا التوقع ينكسر في آية أخرى مناظرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (المائدة: ٦٩)

---

(١) في بعض القراءات السبعية جاء اللفظ متسقا مع ما قبله في النصب ﴿ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ فيكون قوله ﴿ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ حالا من النجوم.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ١١٦

حيث رفع لفظ (الصابئون) بين منصوبات ، فقد سبقه منصوب ولحقه أيضا منصوب ، لينكسر بذلك التوقع.

ولئن كان كسر التوقع هنا مثيرا للاندهاش ، فإن من لم يفقهوا إلا أنه معطوف على اسم "إن" عدوه من الخطأ ، فعلى رأيهم كان ينبغى أن يأتى اللفظ منصوباً ليواكب ما عطف عليه .

ونقول: اللفظ لا لحن فيه كما ادعوا، ولكنهم عجزوا عن توجيه الرفع، وتوجيهه سهل إذ له عدة أوجه هى:

١ – أن يكون قوله (الصابئون) مرفوعاً بالابتداء، والواو قبله للاستئناف، والخبر محذوفاً، والنية به التأخير عما في حيّز (إن) من اسمها وخبرها.

كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكهم كذا والصابئون كذلك. وقد رجح ذلك سيبويه وأنشد له شاهداً:

ألا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا على شقاق

أى: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك.

وهذا هو التوجيه النحوي.

وأما التوجيه من جهة المعنى ، فإن لفظ (الصابئون) إذا كان النية به التأخير، فلابد من حكمة تعلل تقديمه في الذكر، والعلة هنا التنبيه إلى أن الصابئين أشد إيغالاً في الضلالة، وعمقاً في الغواية، حيث لا عقيدة لهم ثابتة كالذين آمنوا وكأهل الكتاب، ولكنهم – كما يذكر ابن القيم – يتخيرون من سائر ديانات العالم بعض شعائرها، ويتركون البعض ولم يقيدوا أنفسهم بجملة دين معين وتفصيله [(١)]

(١) اغاثة اللهفان ٢/ ١٩٨ .

وهذا الوجه أقوى الوجوه، وأرجح ما تحمل عليه الآية الشريفة.[1]

المثال الثالث: النصب على المدح.

ويدخل في كسر التوقع أيضا من جهة المغايرة الإعرابية ، النصب على المدح كما في قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ (النساء: ١٦٢).

والشاهد في هذه الآية قوله: (والمقيمين الصلاة) حيث جاء منصوباً بين مرفوعين هما قوله (والمؤمنون) وقوله (والمؤتون الزكاة) وهو كسر للتوقع.

التوجيه النحوي والمعنوي:

وقد وجّه النصب في (المقيمين الصلاة) بتوجيهات عدة من أهمها أن النصب فيه على المدح، والناصب فعل مضمر تقديره أمدح، أو أخص المقيمين الصلاة. والعلة بيان فضل الصلاة ومزيتها. وذلك أن النصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هنا هي إظهار

---

(١) وهنالك توجيهات نحوية أخرى

(١) فقيل: إن الواو عاطفة والصابئون معطوف على موضع اسم (إن) لأنه قبل دخول (إن) كان في موضع رفع وهذا مذهب الكسائى والفراء.

(٢) وروى عن الكسائى أيضاً أنه مرفوع عطفاً على الضمير المرفوع في قوله (هادوا).

(٣) وقيل: (إن) هنا بمعنى نعم، أى حرف جواب وما بعده مرفوع بالابتداء، وعليه فالصابئون معطوف على ما قبله.

مزية الصلاة، كما أن تغيير الإعراب في كلمة بين أمثالها، ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها ويهدى إلى التفكير لاستخراج مزيتها وهو من أركان البلاغة ...... ونظيره في النطق أن يغير المتكلم جرس صوته، وكيفية أدائه للكلمة التى يريد تنبيه المخاطب لها كرفع الصوت أو خفضه أو مده بها [(١)]

سادسًا - التهكم

هو في اللغة الاستهزاء مطلقا.[(٢)]

واصطلاحا:هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد ، والمدح في معرض الاستهزاء ، ونحو ذلك. [(٣)]

وأسلوب التهكم بهذا المعنى ، هو كسر للتوقع ، إذ كيف يعبر بلفظ البشارة في موضع النذارة ، والوعد في مكان الوعيد ، والمدح في معرض الاستهزاء؟

لا شك أن هذا كله خلاف الأصل ، لكن إذا عرف أن الغرض من وراء ذلك هو التهكم زالت الدهشة وانعدم الاستغراب.

ومن استعمال القرآن الكريم البشارة في موضع النذارة ، للتهكم قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ (النساء:١٣٨) وقوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

(١) إعراب القرآن وبيانه . محيي الدين الدرويش ٢/ ٣٧٨ . تفسير المنار ٦/ ٥٣ .
(٢) ينظر: لسان العرب مادة هكم.
(٣) ينظر مفاتيح التفسير ١/ ٤٠٣.

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الصافات:٢٢، ٢٣) .

فقوله (بشّر) في الموضع الأول ، وقوله (فاهدوهم) في الموضع الثاني ، مراد بهما التهكم.

ومن المدح في معرض الاستهزاء بلفظ المدح قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الدخان:٤٩)

قال ابن عاشور: وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدّية . والمقصود عكس مدلوله ، أي أنت الذليل المهان ....[١]

سابعًا - توهم عدم تناسب الفاصلة :

الأصل في الفاصلة أن تأتي مُمَكَّنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم.

ويعرف هذا بالتمكين أو ائتلاف الفاصلة [٢] وهو وصف لازم للفاصلة القرآنية وهو:

١- قد يكون ظاهرا ، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ

(١) التحرير والتنوير ٢٥ / ٣١٦.

(٢) ينظر مفاتيح التفسير ١/ ١٨.

لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ (هود: ٨٧) فإنه لما تقدم في الآية ذكر العبادة، وتلاه ذكر التصرف في الأموال، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب لأن الحلم العقل الذي يصح به تكليف العبادات ويحض عليها، والرشد حسن التصرف في الأموال.

٢- وقد يكون خفيا كما في قوله تعالى: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (المائدة: ١١٨) وهو كسر للتوقع فإن قوله تعالى: ﴿ وإن تغفر لهم ﴾ يوهم أن الفاصلة ﴿ الغفور الرحيم ﴾، لكن بعد التأمل يظهر أن المناسب هو ﴿ العزيز الحكيم ﴾ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد، يرُدُّ عليه حكمه، فهو العزيز أي: الغالب، ثم وجب أن يوصف بالحكيم على سبيل الاحتراس لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة لأن الحكيم من يضع الشيء موضعه.

٣- وقد يكون موهما فلا تتبادر إلى معرفته بعض العقول حتى تراجع ، كما جاء في كتب التفسير من : أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٠٩) قراءة خاطئة هكذا: ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ .

ولم يكن هذا الأعرابي قارئا للقرآن، لكنه أدرك الخطأ بسليقته العربية وقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا الحكيم، فإن ذكر الغفران عند الزلل إغراء عليه. وقد صدق الأعرابي لأن الآية كما أنزلها الله: ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هكذا ذكر السيوطي في الإتقان (١) ، وذكر القرطبي (٢) عن النقاش "كعب الأحبار" بدل الأعرابي.

ثامنًا - الأسلوب الحكيم

وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلا مه على غير مراده تنبيها على انه هو الأولى بالقصد، وكذلك أيضا تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيها على ما هو الأولى بحاله وبالسؤال عنه وهو من خلاف مقتضى الظاهر.(٣)

ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩) فقد سأل السائلون عن السبب في اختلاف شكل القمر، حيث يبدو دقيقا أحيانا، وأحيانا يبدو كبيرا، ونحو ذلك.(٤)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٦١٧

(٢) تفسير القرطبي ٣/ ٢٤

(٣) مفاتيح التفسير ١ / ١٣٢

وقد سمى بعض علماء البلاغة كابن حجة الحموي: القول بالموجب "الأسلوب الحكيم " ، لكنهما وإن تقاربا باشتراكهما في كون كل منهما إخراجا للكلام على غير مقتضى الظاهر، إلا أنهما يفترقان في الغاية، فالقول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه، والأسلوب الحكيم هو ما قد عرفت • ينظر: مفاتيح التفسير ١ / ١٣٢

(٤) قال الطبري في تفسيره : ٣ / ٥٥٣ : ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية، جوابا لَهُم فيما سألوا عنه.

وفي أسباب النزول للواحدي تحقيق كمال بسيوني زغلول ص: ٥٦.

قَالَ الْكَلْبِيُّ: نَزَلَتْ فِي مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَثَعْلَبَةَ بْنِ عَنْمَةَ وَهُمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَا: يَا =

والأصل في الجواب أن يكون مطابقا للسؤال.

غير أن القرآن الكريم كسر أفق التوقع ، فعدل عن الجواب المباشر عما سألوا ، وأجابهم بما هو أهم، وهو فائدة هذه الأهلة، وفائدتها هي كونها ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ تنبيها لهم على أن الأَوْلى والأَحَقُ بالسؤال ، هو السؤال عن فائدتها وليس ما سألوا عنه٠

تاسعًا - القول بالموجب:

هو أحد الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل .(١)

والموجِب بكسر الجيم أي : الصفة الموجبة للحكم . وحقيقته : رد كلام الخصم من فحوى كلامه.(٢)

وهو بذلك كسر لأفق التوقع ، لأن الخصم يتوقع إفحام خصمه بما يرميه به من تهم ، وما يقيمه عليها من أدلة ، فيرد القرآن الكريم كلام الخصم من فحوى كلامه ، تبكيتا له.

قال السيوطي : وهو قسمان :

= رَسُولَ اللهَّ مَا بَالُ الْهِلَالِ يَبْدُو فَيَطْلُعُ دَقِيقًا مِثْلَ الْخَيْطِ، ثُمَّ يَزِيدُ حَتَّى يَعْظُمَ وَيَسْتَوِيَ وَيَسْتَدِيرَ، ثُمَّ لا يزال ينتقص وَيَدِقُّ حَتَّى يَكُونَ كَمَا كَانَ: لَا يَكُونُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

قال المحقق: الكلبي ضعيف- وذكره السيوطي في لباب النقول وعزاه لأبي نعيم وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(١) قال صاحب التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٤٩: ويسمّى بالتسليم الجَدلي في علم آداب البحث.

(٢) مفاتيح التفسير ٢ / ٦٨١.

أحدهما – أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فيثبتها لغير ذلك الشيء كقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المنافقون : ٨) .

فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، والأذل كناية عن فريق المؤمنين. وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون، وكأنه قيل: صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المُخرَج، والله ورسوله الأعز المُخرِج.

والثاني – حمل لفظ واقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله، بذكر متعلَقه . قال: ولم أر من أورد له مثالا من القرآن وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى: ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ (التوبة : ٦١) [(١)]

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٦٨١ ، لكن صاحب التحرير والتنوير ١٠ / ٢٤٢ جعل ذلك من النوع السابق وهو أسلوب الحكيم وقال: وجملة : (قل أذن خير لكم (جملة) قل (مستأنفة استينافاً ابتدائياً ، على طريقة المقاولة والمحاورة ، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظةً لهم ، وكمداً لمقاصدهم ، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يَحمِل فيه المخاطَبُ كلامَ المتكلّم على غير ما يريده ، تنبيهاً له على أنّه الأولى بأن يراد.

الخاتمة

نسأل الله حسنها

وبعد هذه الجولة حول أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع ، نتتهي إلى القول بأن أساليب القرآن في ذلك متنوعة وكثيرة ، وما اخترت دراسته منها هنا ، هي أمثلة فقط ، لأن طبيعة المقام لا تناسب الاستقصاء ، فيمكن أن تقوم على هذا دراسة أكاديمية شاملة ، ولعل بعض طلاب الدراسات العليا "مرحلة الدكتوراه" أن ينهض للقيام بهذه المهمة.

وقد بان لنا من خلال هذه الرحلة أن للقرآن الكريم من خلال كسره لأفق التوقع في بعض أساليبه ، أغراضا وأهدافا ، التقت على تحقيقها ألفاظه ومعانيه ، لتكتمل بذلك عملية النظم الذي هو سر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

وهذا هو شأن القرآن الكريم في كل أساليبه ، سواء منها ما يتفق والأصل ، أو ما يأتي منها على خلاف الأصل.

وقل ذلك أيضا فيما يتفق والظاهر ، أو ما يأتي على خلاف مقتضى الظاهر.

وقد مرت بنا الأمثلة على هذا ووقفنا على شيء من أغراض القرآن الكريم في معالجته بعض موضوعاته من خلال هذا المنحى أو ذلك الاتجاه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أهم المراجع:

- القرآن الكريم – جل من أنزله وصدق من بلغه.
- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي – خرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة.
- أسباب النزول – أبو الحسنالواحدي، النيسابوري، الشافعي تحقيق – كمال بسيوني زغلول – دار الكتب العلمية – بيروت.
- إعراب القرآن وبيانه – محي الدين الدرويش – دار ابن كثير.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشطان – ابن القيم . دار التراث العربي .
- الالتفات في حاشية الشهاب للخفاجي – د. هاشم محمد هاشم – ط:الأمانة .
- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٧٩٤هـ) – دار إحياء الكتب العربية
- تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – دار التراث .
- تفسير القرآن الحكيم ، المعروف بـ تفسير المنار – محمد رشيد رضا – الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جامع البيان في تأويل القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي تحقيق هشام البخاري – دار عالم المكتب الرياض.

- الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار الجيل.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور – جلال الدين السيوطي – دار هجر.
- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني تحقيق : د.محمد التنجي - نشر دار الكتاب العربي – بيروت
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين الآلوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت
- الكشاف عن حقائق التنزيل جار الله محمود الزخشري – مكتبة العبيكان.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية.
- مفاتيح التفسير – معجم شامل لما يهم المفسر معرفته من أصول التفسير وقواعده ومصطلحاته ومهماته – أحمد سعد الخطيب – دار التدمرية في الرياض.